



كلمة العدد

الصلح مرة أخرى

من المسائل التي احتلت مساحة وافرة ضمن الحديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وشخصيته الفذّ وما اكتنف عصره من ظروف هي مسألة الصلح الذي كان من طلب معاوية، وكان ذلك بعد أن احتفَّ بمعاوية أهل الشام وبالإمام الحسن أهل الكوفة وهذا يعني وجود انقسام في العالم الإسلامي إلى قسمين وخلفيتين مبادعين!

الأول: في الكوفة وهو الإمام الحسن وهو الخليفة الشرعي الإلهي الذي لا شك في استحقاقه لهذا المنصب سواء نظرنا بالنظرة الشيعية وهي أنه إمام منصوص على إمامته فلا بد من أن يكون بعد الإمام علي خليفة أو نظرنا بنظرة القوم ومنطق معاوية ومن سار على نهجه فالإمام الحسن عليه السلام هو الأحق بالخلافة كونه الابن الأكبر لرئيس الدولة وعليه يكون ما فعله معاوية ما هو إلا انشقاق وفتنة أوقع الأمة فيها.

والثاني: في الشام وهو معاوية الذي تردد على أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده الإمام الحسن عليه السلام ليبقى مسيطراً على الشام متّخذًا الأسلوب المختلفة من الإعلام والإرهاب وغير ذلك ليغلق المجتمع الشامي على نفسه ويرسم الصورة

الجملالية له ولآبائه ويشهود صورة الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ كي تسهل له السيطرة عليه ويبقى ملكه فيهم.

وهنا لا أريد الخوض في بنود الصلح وملابساته، لكنني أقول:

* لم تكن مسألة الصلح مبحثة في الآونة الأخيرة فحسب بل - لأهميتها الشديدة - كانت تبحث في أزمان متقدمة وبعضها معاصر للمعصومين أو بعدهم وألفت فيها كتب لم تصل إلينا إلا أسماؤها ضمن ترجمات مؤلفيها إلا أن بعضها كتبها من يتابع الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ وبعضها كانت لأقلام عباسية أو أموية كتبت هذه الكتب^(١)... وهذا يعني أن مسألة الصلح كانت تشكل زوبعة فكرية للبعض واستغلالاً سياسياً وعقائدياً لآخرين، وهي إلى اليوم لا زال يوجد من يستثمرها لما يريد من مآرب سياسية وفكرية وعقائدية.

* إن مسألة الصلح لا بد طرحها مكرراً لما لا يغافلها من أثر سلي على اتباع الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ إذ مع مرور الزمن وانتشار الدعايات المختلفة حول هذا الصلح التي تبرز - تجنياً على الإمام - أنه صاحب الشخصية الضعيفة جاهيراً وسياسياً وغير المؤهلة لقيادة الأمة بعد أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ والحال أن شخصيته عَلَيْهِ الْكَلَمُ على العكس من ذلك تماماً، ويتبّع هذا من كان له قلب ونظر في التاريخ وكتب الحديث نظر إنصاف، ولذا ينبغي تكرار الحديث في هذا الأمر كيما تتضح الصورة أكثر من خلال الباحثين والخطباء والمحققين، وهذا لا يعني إغفال بقية الجوانب الحياتية من سيرة الإمام ولا يعني إغفال ما ورد من روایات وأدعية عنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ المحتاجة هي الأخرى إلى دراسات تحقیقیة لاستخراج ما فيها من كنوز.

❖ لا زال في أمر الصلح الكثير من المباحث التي تحتاج إلى مزيد إشباع
في البحث والطرح من قبيل:

- أنَّ صلح الإمام الحسن أ فيه إقرار بشرعية معاوية أم لا.

- هل كان الإمام الحسن ثوريًا - بالمعنى المتบรรد إلى أذهان الكثير - أم لم يكن كذلك وهذا ما يحتاج إلى استقراء كلَّ ما ورد من خطابات منه عليه السلام في المواقف المحتاجة إلى ذلك وكلَّ الرسائل المختلفة التي بينه وبين معاوية بل حتى في حياة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وموقفه من الحروب التي جرت في حياته.

- هل أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان في موقف قوَّة أو ضعف عندما أقدم على الصلح.

- بعد الصلح هل وجدت انفراجات على الشيعة أم أنها زادت^(٢).

- ألم يكن لأهل البيت عليهما السلام من الأئمة اللاحقين حديث حول الصلح.

- ما هي الظروف الموضوعية للصلح بقراءة تاريخية للواقع الكوفي والشامي وكلَّ من موقعة الدولة الإسلامية آنذاك والقدرة القتالية والحضور السياسي لها بين الدول الأخرى المجاورة ليتبين هل كان الصلح أسلم أم كانت الحرب في الدولة الواحدة أفضل.

- هل كان للصلح ذكر بعد موت معاوية حيث إنَّ من بنود الصلح أن تنتقل الخلافة إلى الإمام الحسين عليه السلام.

وغيرها من الأبحاث المهمَّة التي تحتاج فيها إلى استنطاق ما في الكتب

والمصادر كي يُعرف الأمر وتحلّى الصورة أكثر ويرفع بذلك شيء من
مظلومية الإمام الحسن عليه السلام.

على أي حال

الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام بالدليل القطعي هو الوصي من بعد أبيه خليفة على المسلمين، وهو الإمام المعصوم المفترض الطاعة قام أو قعد، ولا يصدر منه ما هو خطأ فما علينا إلا دراسة الوضع المحيط حوله دراسة منصفة لنصل إلى الحقيقة.

الهامش:

- (١) أما من هم من أتباع الإمام الحسن عليه السلام: (صلاح الإمام الحسن ومعاوية عنة الله لأحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن السبيبي الهمداني ٣٣٣هـ قيام الإمام الحسن عليه السلام لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الشفقي ٢٨٣هـ وغيرها). وأما أفلام غير الأتباع فمنهم (عواونة بن الحكم ١٥٨هـ، وسفيان بن عيينة ١٩٨هـ وغيرهم).
- (٢) توجد دعوى لأحد المحققين بأن العشر السنوات الأولى من الصلاح كانت سنوات رخاء للشيعة بحيث كان بإمكانهم نشر علوم أهل البيت عليه السلام بأريحية حتى في الشام التي كانت تحت سلطة معاوية، ولم يكن سبّ للإمام علي خلال هذه السنوات العشر، إذ "كلّ ما سُجِّلَ من التروع والقتل والسجن والتهجير لشيعة الكوفة من قبل ولادة معاوية لم يكن قد وقع أيام الإمام الحسن عليه السلام بل كان بعد وفاته، وهذا يعني أنّ عشر سنوات من حياة الإمام الحسن عليه السلام بعد الصلح كانت سنوات آمان تأمّل الشيعة لم يرَوْع فيها شيئاً واحداً" من كتاب الإمام الحسن في مواجهة الانشقاق الأموي للسيد سامي البدرى.

حول بعض الإشكالات المثارة على سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

حوار مع العلامة المحقق الشيخ محمد جواد الطبسي عليه السلام^(١)

حاوره: الشيخ منصور الجبيلي

والشيخ علي عقيل الجمري

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلوة والسلام على محمد وآلـه الطاهرين

من الأمور الواضحة التي لا خلاف فيها هي مسألة تسلیم وطاعة العبد لموالاه ولمن فرض موالاه طاعته عليه، وهذا المعنى لوضوحه لا يخفى على الإمام الحسين عليه السلام مع أخيه الحسن عليه السلام؛ باعتبار أنّهم سادة الخلق والذين علّموا الخلق ذلك، والشك في رضا سيد الشهداء عليه السلام عن صلح الإمام المجتبى عليه السلام تجنب وجراة على المعصوم، وهذا ينبع عن جهل بالمعصوم ومقامه، فمن يعرف المعصوم لا يسأله عن فعله فضلاً عن رميـه بعبارات نابية؛ وذلك للعـصمة التي تقتضي عدم الخطأ، فـفي عـقـيدـتنا - وهو من الأمور البـيـنة التي تربـيـنا عـلـيـها مـنـذـ نـعـومـةـ أـظـفـارـنـاـ ولوـ شـكـكـ فيـهاـ بعضـ المـنـحرـفـينـ - أنـ المعـصـومـ لاـ يـخـالـفـ وـلاـ يـعـارـضـ المعـصـومـ الآـخـرـ، فـالـحسـينـ عليـهـ السـلامـ لمـ يـخـالـفـ

الحسن عليه السلام قطُّ، فلو فرض أَنَّه وردت مخالفة ظاهريَّة فهُيَّ غير صحيحة أو مؤوِّلة لِمَا سبق من عصمتهم، فالإمام المقصوم ما يراه هو الصواب، فلا يُسأَل عن سبب صلح أو غيره -مَا هُو مختصٌ بِهِمْ-، على أَنَّهُم مع علمهم بما وراء الأمور -إِذ وَهُبُّهُمُ اللهُ ذَلِكُ- إِلا أَنَّهُم يتعاملون مع النَّاس ويتعايشون معهم بحسب الظاهر، رغم مَا هُم مِن الشَّانِ والمزلة العظيمة إِلا أَنَّ إِمامنا الحسن المجتبى عليه السلام لم يسلِّم من الاتهامات التي لا ينبغي أن يرمى بها الإنسان العادي فضلاً عن المقصوم، فنحن عندنا من الأمور المسلمة أَنَّ الإمامة بالنَّصِّ، وأنَّه قد نصَّ عليهم النبيُّ الأَكْرَم عليه وآله وسَلَّمَ من قبل الله، وأنَّ الإمام السابق يؤكِّد ذلك بوصيَّة للإمام اللاحق، فهم الدُّعَاة إلى الله وهدفهم واحد، فكُلُّ منهم يهدِّد ويوطئُ للآخر لإصلاح هذه الأُمَّة، ومن خالفهم في الدِّرَك الأَسْفَل من التَّارِ.

- بداية نشكركم على تقبيلكم لهذه الدعوة في إجراء المقابلة معكم.

❖ هل كان الإمام الحسين عليه السلام راضياً مسلماً بصلاح الإمام الحسن عليه السلام حيث إنَّ البعض يقول بأنَّه لم يكن راضياً به ومسلماً له، فهو الصحيح أَنَّه كان قابلاً مسلماً به أم رافضاً له؟

- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، أشكركم على هذه المقابلة من المحلة الكريمة وشخصكم الكريم حيث فضلتُم أن تكونوا معنا في هذا الموقف الكريم.

أما السؤال الذي تفضلتم به، هل الإمام الحسين عليه السلام كان راضياً ومسلماً أم لا؟ أقول: هذا من العجائب أن نقول بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام -والعياذ بالله- لم يكن راضياً بما فعله الحسن عليه السلام، فالإمام الحسن عليه السلام في زمانه كان

إماماً على الإمام وعلى غير الإمام، والإمام الحسين عليه السلام أيضاً كان إماماً، ولكنه كان إماماً ساكتاً كما في التعبير، ولم يكن إماماً ناطقاً، فلذلك لو تأملنا في حياة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام لرأينا بأن الإمام الحسين عليه السلام كان ساكتاً في كل أفعال الإمام من دون أي اعتراض، لأن الإمام مفترض الطاعة، كما كان هكذا شأن الإمام علي عليه السلام في زمن الرسول عليهما السلام ولكن لما كان الرسول مفترض الطاعة على علي عليه السلام وغير علي عليه السلام، فعلى المعصوم وعلى غير المعصوم متابعة قوله وفعله، فذلك لا تقبله النفس، وتأباه، بأن نقول بأن الإمام الحسين عليه السلام خالف الإمام الحسن عليه السلام، نعم ورد في بعض كتب أبناء السنة ذلك كابن عساكر، إلا أنه غير مروي عندها، بل يأباه الطبع، كان يقول الإمام الحسن عليه السلام: «لو شئت لجعلتك -يقصد الإمام الحسين عليه السلام - في بيت وطينت باب البيت» هذا مذكور في كتاب ابن عساكر، ولكن من أين نقله، ومن نقله؟ فهذا غير ثابت، وبإسناد هذا الحديث المردود قيل بأنه كان بين الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام تضاد، فأقول: إن هذا غير ممكن؛ حيث لا يتفوه بهذا الكلام من كان له أدنى معرفة بالإمام فكيف بالإمام الحسين عليه السلام بهذه المعرفة كيف يكون مضاداً للإمام الحسن عليه السلام، وهذا غير مقبول، وغير صحيح.

◆ يقول المستشكل بأنه جاء في معجم السيد الخوئي تدوين هذه الرواية وقد نقلها الكشي حيث قال: جبرائيل بن أحمد وأبو إسحاق حمدوبيه وإبراهيم ابنا نصیر، قالوا: حدثنا محمد بن عبد الحميد العطار الكوفي، عن يونس بن يعقوب، عن فضل غلام محمد بن راشد، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن معاوية كتب إلى الحسن بن علي عليهما السلام، أن أقدم أنت والحسين وأصحاب علي، فخرج معهم قيس بن سعد بن عبادة الأنباري، وقدموا الشام، فأذن لهم معاوية وأعد لهم

الخطباء، فقال: يا حسن قم فبائع، فقام فبائع، ثم قال للحسين عليه السلام: قم فبائع، فقام فبائع، ثم قال: يا قيس قم فبائع فالتفت إلى الحسين عليه السلام ينظر ما يأمره، فقال: يا قيس إنه إمامي يعني الحسن عليه السلام، فهل تدل هذه الرواية على بيعة الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية رضي الله عنه أم لا؟

- أما بالنسبة إلى السؤال الثاني، فإنه أولاً من تتمة كلام الإمام الحسين عليه السلام فإنه يقول: «يا قيس إنه إمامي» فإن هذا دليل ما بعده دليل أوضح منه، حيث يلتفت إلى قيس ويقول له: «يا قيس هذا إمامي» يعني إن كل ما يفعله الإمام ويأمر به أنا ملتزم به، هذا على فرض صحة هذه الرواية.

فأولاً عن فضل غلام بن محمد بن راشد؛ فمن هو فضل؟ فهذا يحتاج إلى تأمل، فإن رجال الحديث، أما محمد بن راشد فواضح أنه شخص، أما فضل من هو؟!

ثم هذا الخروج متى كان؟ فمتى خرج الإمام الحسين عليه السلام ومتى خرج الإمام الحسن عليه السلام، عندنا كتاب اسمه: (حوارات ساخنة) بين معاوية رضي الله عنه وأصحاب علي عليه السلام حيث إن هذا الكتاب عندي وهو مكون من (١٦٠) صحفة تقريرياً، وقد طبع حوالي قبل ٢٠ سنة، فهناك قد ذكرت سفرة للإمام الحسن الجibli عليه السلام ولكن لم يكن قيس معه، وقد ذكر هناك بأنهم "قدمو الشام" فهل هم قدمو الشام أم أجبروهم على القدوم إلى الشام؟ فهذا كلّه يحتاج إلى تأمل، فأذن لهم معاوية وأعد لهم الخطباء فقال: يا حسن قم فبائع! فيحتمل أن تكون هذه القضية في الكوفة لا في الشام، لما كان الإمام عليه السلام في الكوفة، فإذا، نقول:

أولاً: في السنن يحتاج التأمل في "فضل" من هو؟

ثانياً: في رجال الكشي أشياء كثيرة غير واضحة.

وثالثاً: هذه السفرة كانت في الشام وقد قدموا إلى الشام؟!

ورابعاً: أنه يقول للإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ: قم فبایع! فهل يعقل أن يقوم الإمام فيبایع معاویة لعَنْهُ اللَّهُ؟! فما معنی هذه الحرب التي دارت بين الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ وَمَاوَى يَهُودَةَ؟! فمرات عديدة قال الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ لِمَاوَى يَهُودَةَ لعَنْهُ اللَّهُ إِنَّ هَذَا الْحَقُّ لَيْسَ لَكُمْ، إِنَّهُ لِي، فَالَّذِي هُوَ يَدْعُونِي بِأَنَّ الْحَقَّ لَهُ كَيْفَ يَقُولُ وَيَبَايِعُ الْآخَرَ، فَإِنَّهُ يَتَنَازَلُ عَنِ الْأَيِّ شَيْءٍ؟ يَتَنَازَلُ عَنْ حَقِّهِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِوَاسْطَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! هَذَا الْحَقُّ يَنْتَزِعُهُ الْآخَرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ لَهُ أَهْلِيَّةً؟! فَالإِمَامُ الْحَسَنُ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ كَيْفَ يَقُولُ لِبَايِعَ وَلَمْ يَكُنْ الْحَقُّ لِمَاوَى يَهُودَةَ؟! ثُمَّ كَيْفَ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ هُوَ مُنْكَرٌ بِحِيثَ يَقُولُ للإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ قم فبایع - وَأَنَا لَسْتُ فِي صَدَّ بِيَانِ تَكْلِيفِ الإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ - وَثُمَّ الإِمَامُ الْحَسَنُ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ يَقُولُ لِسَعْدٍ: قم أَنْتَ فبایع، وَهُنَاكَ سَعْدٌ يَنْظُرُ إِلَى الإِمَامِ الْحَسَنِ لَا إِلَى الإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ فِي حِيثَ إِنَّ إِمَامَ قَيْسٍ هُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ، وَلَا يَرْجِعُ وَيَقُولُ كَيْفَ أَبَايِع؟ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْحَسَنِ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ؛ فَلَذِكَّرْ يَقُولُ الإِمَامُ الْحَسَنُ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ لِسَعْدٍ: «إِنَّهُ إِمَامِي». وَهَذَا الْحَدِيثُ مُضْطَرِبٌ جَدًا لَا يَعْتَدُ عَلَيْهِ أَبَدًا، مِنْ جَهَةِ السَّنْدِ وَالدَّلَالَةِ.

♦ يقال: إنَّ كَثِيرًا من الشيعة يقعون في الحسن بن علي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ ويدَمُونَهُ وذرِيَّته، رغم أنَّه أحد أئمتهم، ومن أهل البيت عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ، بل قد خوطب به "يا مذل المؤمنين". فكيف يقال بأنَّه معصوم مفترض الطاعة؟

أولاً: ننتقل إلى الرسول عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ فهل كان مفترض الطاعة؟ بلا شك، ولا

أحد كان يعترض على الرسول من دون فهم وعلم؟ نعم، الكثير من الناس الذي كانوا معه، كالحارث بن النعمان عندما نصب الإمام علي عليه السلام للإمامية، فقد كان من المعارضين. ألم يكن الرسول عليهما السلام مفترض الطاعة؟ نعم، وهو يعلم بذلك، ولكنه رغم ذلك جاء له وقال: هل هذا منك أو من الله؟! وهذا ماذا معناه؟ أوليس الذي من الرسول هو من الله؟ هذا أمر غريب؟ فحرّكه لأنّه يتكلّم بهذا الشكل، هذا بالنسبة إلى الرسول عليهما السلام الذي لا شكّ عندنا في أنه مفترض الطاعة، ولكن لوجود بعض الجهلة تكلّموا بهذا الكلام، وهكذا بالنسبة إلى الإمام الحسن عليهما السلام ألم يقل فيه رسول الله عليهما السلام: «الحسنُ والحسينُ إمامانِ قاماً أوْ قَعَداً»^(٢) نعم، يقيناً قال ذلك، والآن، هذا السؤال "كثير من الشيعة يقعون في الحسن بن علي عليهما السلام"، هؤلاء هل كانوا شيعة؟ فالذى يعترف بأنّ النبي عليهما السلام قال: «الحسن إمام» هل عرف معنى الإمام، حتى يقول هكذا؟ فالذى يقول هذا الكلام لم يعرف معنى الإمام أصلاً! نعم، كان فيهم شيء من الحبّة، ولكن هل هؤلاء شيعة؟! الشيعة من شابع عليهما السلام، فهل الشيعة يقعون في الإمام الحسن عليهما السلام؟! هذا غير ممكن، هؤلاء ليسوا من الشيعة، نعم قد يكونوا محبيّن، كما يحبّ الواحد منهم أولاده أو بعض الصحابة، ولكن يحبّ الإمام لكونه إماماً، فهذا غير ممكن. فأنت حضرتك الآنجالس معى هل لك أن تعترض على الإمام؟ فإذا الشخص عدّ نفسه من شيعة آل البيت عليهما السلام كيف يعترض على الإمام؟ في حين أنّ الإمام عليهما السلام من الذين أوصى بهم النبي عليهما السلام أمته وشيعته أن يتمسّكون بهم، فالشخص الذي يدّين بأنّ هذا إمامٌ فعليه أن يكون مسلماً كما كان الإمام الحسين عليهما السلام مسلماً لأمر الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام، نعم، كان في زمان الإمام الحسن عليهما السلام سليمان بن صرد الخزاعي، هذا الإنسان لا أعلم ماذا أقول عنه!!

أو بعض أصحاب الإمام الحسن عليه السلام دخلوا عليه، فهؤلاء أوجدوا الأرضية لهذا الصلح الذي حمله معاوية لعنة الإمام الحسن المجتبى عليه وإن الإمام الحسن عليه قد كان حاضراً وقد أرسل الجيوش لحرب معاوية، فمن الذي تقاعس، ومن الذي تأخر؟! فهؤلاء الذين جاؤوا إلى الإمام الحسن عليه إلى الكوفة هم الذين أخذوا يقولون: السلام عليك يا مذل المؤمنين! أنتم أذلة المؤمنين أو الإمام الحسن عليه، من؟ فكما قلت في السؤال الذي مر علينا فإن هؤلاء لم يعرفوا الإمام حقاً معرفته، كما أنهم لم يعرفوا الإمام علي عليه حق معرفته، فلو كانوا يعرفون الإمام لضحكوا بأنفسهم.

♦ كيف يدعى الشيعة أن أنتمهم معصومون، وقد ورد بالاتفاق ما ينافي هذا، فعلى سبيل المثال:

أ - كان الحسن بن علي عليهما السلام يخالف أباه علياً عليهما السلام في خروجه لمحاربة المطالبين بدم عثمان. فلا شك أن أحدهما مصيب والآخر مخطئ. وكلاهما إمامان معصومان عند الشيعة!

ب - خالف الحسين بن علي عليهما السلام أخيه الحسن عليهما السلام في قضية الصلح مع معاوية. ولا شك أن أحدهما مصيب والآخر مخطئ. وكلاهما إمامان معصومان عند الشيعة!

أقول: بالنسبة إلى النموذج الأول؛ من أين جاء هذا الاتفاق، ومن الذي نقل هذا الاتفاق؟! فإن هذا الاتفاق لم ينقل في كتابنا أصلاً!! ففي بعض التوارييخ بأن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عند الخروج قال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا قلت لك كم مرة بأن لا تخرج لقتال هؤلاء» -هذا منقول من ذخائر العقبى، لحب الدين الطبرى فمن هو محب الدين الطبرى حتى يعيّن

تكليف الإمام المجتبى والإمام أمير المؤمنين عليهما السلام! وفي أنه لما خرج إلى الربذة قال: «من كان يريد أن يتحقق بنا، لا بأس» فالإمام الحسن يقول: «قام وقال: يا أباه! ... أينما كنت الناس يدورون حولك» -بالمعنى، لأن النص ليس عندي الآن الموجود في ذخائر العقبة.

أما بالنسبة إلى النموذج الثاني؛ فأقول: كالسؤال الأول، فالإمام الحسن عليهما السلام متى خالف أباه! فهل نقل ما يقال بأن الإمام الحسن قد خالف أباه - في كتابنا التاريخية! رغم البحث فإني لم أجده ذلك فإني أفتح كتاب السبط الأكبر فتجد ما يقولون من المخالفه نقله ذخائر العقبى لحب الدين الطبرى فلا اعتبار بنقل هذا الشخص لأنّه من المعادين ولم يكن من المحبيّن.

♦ ننتقل إلى السؤال الخامس: يقول البعض: ألم يكن من الأصلح التغاضي عن معاوية ولو لفترة - لحين إعداد القاعدة الإيمانية خصوصاً وأن الإمام عليهما السلام يعرف أصحابه وقد جربهم في زمان أبيه عليهما السلام؟

لماذا لم يكن هذا السؤال موجهاً إلى أمير المؤمنين عليهما السلام حيث لم يتغاضَ عن معاوية عندما جاء إليه المغيرة بن شعبة وغيره يطلب من الإمام أن يتغاضى عن معاوية وبعد مدة يعزله فقال عليهما السلام: «والله لا أعطيه إلا السيف»^(٣)، فكان أمير المؤمنين عليهما السلام يعرف معاوية وأصحابه حتى وهم صبياناً وهو القائل بذلك: «عرفتهم منذ أن كانوا صبياناً فكانوا شرّ صبيان» فلماً وصلوا مرحلة الشباب كانوا شرّ الشباب وحتى لما وصلوا إلى هذه المرحلة فهم شرّ الناس فكيف بالإمام أن يعطيهم ويخوّلهم الحكومة أو قسم من البلاد ويكون هذا التخويل من قبل الخليفة، ولمن؟ لهؤلاء الذين حملوا السيف على الخلفاء وعلى رسول الله وحاربوه عليهما السلام فكيف يقيمهم الإمام علي وهذا الإمام الحسن عليهما السلام.

لكن لما عرف أنه لم يكن له ناصر فسكته من هذه الجهة حيث لم يكن له ناصر ينصره، وإن فحكمه حكم أمير المؤمنين ما أعطاه إلا السيف.

♦ ما هي الحكمة من وراء زواج الإمام الحسن عليه السلام من ابنة الأشعث مع أنها فعلت ما فعلت؟ وكيف تربط بينها السبب وبين أقوالهم عليهما السلام في مسألة اختيار الزوجة الصالحة مثل: «تخيروا لطفلكم فإن العرق دساس» وما شاكل من الأحاديث الكثيرة التي تؤكد على اختيار الزوجة الصالحة والحال أنه تزوج من ابنة الأشعث مع علمه بحالها؟

تارة نقول: علم الإمام عليهما السلام بأن هذه المرأة لم تكن امرأة صالحة مثلاً، وأخرى نقول: بأن علم الإمام -في هذا المجال- مثل علم الآخرين، شبيه بهذه القضية قضية الإمام البارق عليه السلام؛ فقد تزوج امرأة قليل إلى بعض الجهات فطلقها، والإمام الحسن المجتبى عليه السلام أيضاً هكذا، فهذه القضية لم ترتبط فقط بالإمام الحسن عليه السلام، وابنة الأشعث من أول أمرها لم تكن امرأة لا يرضى بها بل كانت تعيش مع الإمام الحسن عليه السلام لكن حالتها تبدل بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث أغراها معاوية بالمال كي تقتل الإمام.

أما علم الإمام فلم يكن مؤثراً في مثل هذا المورد، فهو يعلم من الله بأن هذه المرأة في آخر الأمر ستقتله، ولكن هذه القضية لو نظرنا إليها بنظار قضية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقتل ابن ملجم إليه حيث كان يعلم بأن هذا هو قاتله فمع ذلك لم يقتله، فعلم الإمام لا يؤدي بأن يقتل الإمام علي عليه السلام ابن ملجم أو يقتل الإمام الحسن جعدة ما لم يصدر منها شيء حتى يستوجب القتل. وهذا أمر آخر.

أما قضية مثل تخّيروا لنطفكم وأمثالها فالروايات موجودة ولكن الأشعث كان عاملًا للإمام أمير المؤمنين ع في أذربيجان أيّ أنه كان مرضيًّا عند الدولة الإسلامية، لكنه وأمثاله قد تخلوا عن الإمام أمير المؤمنين ع فيما بعد، وبحسب الظاهر أنّ الزواج بابنة الأشعث قد حصل في تلك المرحلة.

❖ هناك من يشكّل بأنّ الإمام الحسن ع مزوج وأنه كثير الزواج حتى أنّ الإمام أمير المؤمنين ع قد ذمّه على ما يدعى في ذلك.

أتهم الإمام الحسن ع باتهامات كثيرة في زمانه وأنه كان مطلاقاً فأشاعوا حديثاً على لسان الأمير ع وقالوا بأنه قد صعد المنبر وقال «هذا ابني الحسن مطلق فلا تزوجوه» فهذه الأحاديث لم تكن في زمن الإمام أمير المؤمنين أبداً ... أن يدعى أنه قد تزوج من أربعينات زوجة وهذا كذب! متن كلام يصل إليهم؟!

ثم إنّ هذه الأحاديث تجد أكثرها في قوت القلوب^(٤) وقد صدرت من زمن العباسين في الوقت الذي كان أبناء الحسن يقودون الثورات في زمن العباسين وبالتحديد في زمن المنصور ومن دونه، ويقال بأنّ المنصور هو أول من تكلّم بهذه الأحاديث ولا يخفى مقدار الفاصل الكبير بينهما. فقال أبوكم الحسن كان مطلاقاً... فهذه من افتراءات هؤلاء ولم تكن هذه الأحاديث موجودة قبل زمن المنصور.

أما بالنسبة إلى ما يقال بأنّ الإمام أمير المؤمنين ع صعد المنبر!! ولا أعلم كيف أنّ الإمام أمير المؤمنين ع قد صعد المنبر قبل أن يعظ الإمام الحسن ع ولم يتكلّم معه، فهل من الممكن أن يصحّ هذا الكلام وأن يهتك

الإمام علي حجاب الإمام الحسن أمّا الناس!!.. يقينًا ليس كذلك. فهذه المسائل مغلوطة ومردودة، وعلى كلّ ما قيل أقول: هل يحرم الطلاق؟ حتى لو تعدد!.

فهذه تهمة اتهم بها في غير زمانه بل بعد زمنه بكثير.

♦ لو كانت الخلافة بالنّصّ من الله تعالى والتعيين من الرّسول عليهما السلام كما تقول النّظرية الإماميّة، لم يكن يجوز للإمام الحسن عليهما السلام أن يتنازل عنها لأيّ أحد تحت أيّ ظرف من الظّروف. ولم يكن يجوز له بعد ذلك أن يباعي معاوية أو أن يدعو أصحابه وشيعته تبعيته. ولم يكن يجوز له أن يهمل الإمام الحسين عليهما السلام ولأشار إلى ضرورة تعينه من بعده. ولكن الإمام الحسن عليهما السلام لم يفعل أيّ شيء من ذلك وسلك مسلكًا يوحى بالتزامه بحقّ المسلمين في انتخاب خليفهم عبر نظام الشّوري؟

هذه الأسئلة متعددة ومتشعبّة.

الخلافة لا شك أنها بالنّصّ. نصّ الرّسول على خلافة أمير المؤمنين عليهما السلام في يوم الغدير ونصّ الرّسول عليهما السلام في إمامية الأئمّة الإثني عشر مثل «لا تزال أمتي عزيزة ما دام فيها اثنا عشر خليفة». فالنّصوص بالنسبة إلى كلّ إمام من قبل الرّسول أولاً ومن قبل كلّ إمام لإمام بعده هذا ثانياً.

خلافة الإمام الحسن منصوصة من قبل النبي عليهما السلام مثل: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، والنّص الآخر منصوص من قبل الإمام أمير المؤمنين عليهما السلام بالنسبة إلى الإمام الحسن المجتبى. فهي منصوصة لا شورائيّة ولا غير ذلك.

هذا بالنسبة إلى تعين الرّسول.

أماماً

أما لم يكن أن يجوز للإمام الحسن أن يتنازل...

متى تنازل الإمام الحسن عليهما؟!

هل تنازل الإمام علي عليهما عن الخلافة والإمامية! معاوية هل كان إماماً حتى يتنازل عنه الإمام الحسن المجتبى عليهما؟ متى كان ذلك؟

فالآئمة قطعاً كانوا أئمّة عليهما، والخلافة -إن قلنا بأنّ الإمامة غير الخلافة- بنظري لا فرق بينها وبين الإمامة، فالرسول كان إماماً وخليفة وكذا الإمام علي عليهما، قبل الناس بذلك أم لم يقبلوا.

الإمام الحسن عليهما هكذا لم يكن ليتنازل عن الإمامة، فإذا كان الحق معاوية فلماذا قبله الإمام قبل ذلك؟ فالإمام لم يتنازل وإنما فقط راعى مصالح المسلمين.. ولذلك أشار إلى معاوية بأنّ هذا الحق لم يكن لك أبداً بل ابتنز هذا الأمر ظلماً وغصباً، وعليه فالإمام لم يتنازل بأي صورة من صور التنازل، لكنّ ظلم معاوية وإغراء الناس هو الذي جعل الناس يتخلّفون عن الإمام مما أدى إلى معاوية أن يأتي إلى الكوفة ويفعل ما يفعل.

أما مبادئه لمعاوية ودعوة أصحابه وشيعته..

فكلّ هذا مردود ولم يثبت أصلاً.

❖ ما وجه العلاقة بين صلح الإمام الحسن عليهما وبين ثورة الإمام الحسين عليهما؟ هل بينهما تباعد أو أن دورهما مكمل للأخر؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن أن يقال: بأنّ الصلح الحسني كان ممهداً للنهاية الحسينية؟ وكيف ذلك؟

لا شك في أن الصلح الذي حمله معاوية لعَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَى الإِمَام عَلَيْهِ السَّلَام هو صلح تحميلي، فالإمام لم يقترح الصلح، ومعاوية هو الذي أرسل رسالة وأمضى تحت الرسالة وقال اكتب ما تريده، فصار معاوية هو الذي سلم الأمر إلى الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام، فالحق أن الإمام لم يصالح معاوية بل معاوية هو من صالح الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام لخوفه منه، ولذلك لما وجد عدم قدرته على مواجهة الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام دخل إليه من باب الغدر والخيانة فوعد أصحاب الإمام الحسن بالأمور وأغراهم حتى تخلىوا عن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام، فهذه صارت عرضية لأن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام حافظ على أصحاب أبيه من القتل لما رأى هذا من أهل الكوفة خشي على أصحاب أبيه، ولذلك كان من الشروط أن لا يتعرض معاوية لأصحاب أبيه، وكل هذا حتى يعرف الناس من هو معاوية، وحتى يعرف الناس صفات معاوية ومقدار خبيثه، فلذا كان الإمام الحسن الجبى بعد ذلك يعارض معاوية بأشد المعارضة؛ لأن الناس لا يعرفون من يكون معاوية، ولكن لما صارت هذه القضية وجاء إلى المدينة وذم الإمام وما شاكل.. كلها كانت أرضية لنهاية الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام بعد موت معاوية.

كلمة الختام

نشكركم سماحة الشيخ على تفضلكم بقبول هذه الدعوة، كلمة في الختام تودون -سماحة الشيخ- قولها.

هذه الجلة الحمد لله من المجالات الوزينة المهمة في عالم التأليف والقلم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظكم وأن يُجري على أقلامكم أحسن مما سبق إن شاء الله تعالى، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

الهوامش:

(١) سماحة الحقّ الشّيخ محمد جواد الطّبسي حَفَظَهُ اللَّهُ عَزَّ ذِيْجَلَّ، ولد في عام ١٣٣١ هـ ش. في النجف الأشرف من عائلة علمائية، فأبوه آية الله العظمى الشّيخ محمد رضا الطّبسي تَعَظَّمَ. بدأ دراسته في المدارس الرسمية إلى الصف السادس، ثم التحق بالحوza العلمية في النجف الأشرف، حصل على شهادة دكتوراه في الفقه والأصول من الحوزة العلمية.

في عام ١٣٥٠ هـ ش تم اعتقال سماحة الحق مع مجموعة من العلماء من قبل نظام البعث المقبور ثم تم تسفيرهم، ثم واصل دراسته في قم المقدسة، وواصل دراسته فيها عند كبار الأساتذة في المراحل المختلفة منهم:

- ١- آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشى النجفى.
- ٢- آية الله العظمى الشيخ جواد التبريزى.
- ٣- آية الله العظمى الشيخ محمد فاضل اللنكرانى.
- ٤- آية الله العظمى الشيخ هاشم آملى.
- ٥- آية الله العظمى السيد أو القاسم الكواكبي.
- ٦- آية الله العظمى الشيخ الوحدى الخراسانى.
- ٧- آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازى.
- ٨- آية الله العظمى الشيخ جعفر السبحانى.

له أكثر من خمسين مؤلفاً باللغتين الفارسية والعربية، ومقالات في بعض المجالات، ومن مؤلفاته: (سفر به قبله. هرراه با مهدی. با مداد بشریت. ملکوت منی. امام حسین وقرآن. البکاء علی النبی وآلہ علی ضوء الكتاب والسنۃ. أهل البيت في فترة الصغر. قم عاصمة الحضارة الشیعیة. حیاة الصدیقة فاطمة دراسة وتحليل. بحوث في الرؤایا والأحلام).

(٢) مناقب آل أبي طالب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (لابن شهرآشوب)، ج ٣، ص ٣٩٤.

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (الخوئي)، ج ١٨، ص ٢٥١.

(٤) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، كتاب في علم التصوف يشتمل على ثانية وأربعين فصلاً موزعاً في مجلدين، من تأليف أبو طالب المكي المتوفي سنة ٣٨٦ هـ والذى أخذ منه الغزالى في كتابه إحياء علوم الدين.

(ويكيبيديا)



الإمام الحسن المجتبى عليه السلام من الولادة إلى الطفولة

(عرض وتحليل)

الشيخ عزيز حسن الخضران

الملخص:

تناول الكاتب في هذه المقالة بعض المخطّات من سيرة السبط الأول عليه السلام، فسلط الضوء على إرهاصات ولادته وأنها مثلت تحدياً إلهياً، لما كان يعيشه النبي صلوات الله عليه وآله بالأبتر، ثم بين سبب تسميته فذكر أنها تسمية إلهية وهبة إلهية، ثم تعرض إلى السنوات التي عاشها مع جده القليلة الكم الكثيرة الكيف، من خلال الإشارة إلى عناء النبي صلوات الله عليه وآله به وما ورد مناقب في حقه مع صغره وتمهيده للإمامية وغرس ودّه في قلوب الناس، ثم ختم بذكر بعض المواقف القيادية له بعد وفاة جده صلوات الله عليه وآله.

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد وآل محمد.

المقدمة

قليلة هي البحوث التي كتبت في تحليل سيرة الأئمة عليهم السلام، بل حتى سيرة النبي صلوات الله عليه وآله والتي هي أعظم سيرة عرفتها البشرية، وربما أكثر السير

تحليلاً هي سيرة إمامنا الحسين عليهما السلام، أو سيرة أمير المؤمنين عليهما السلام، ومع ذلك فالتحليل في سيرتهما عليهما السلام خاص ببعض المقاطع الزمنية كواقعة كربلاء وما يرتبط بها من أحداث، أو حادثة السقيفة وامتناع الأمير عليهما السلام عن البيعة، ولا يعم كل حياتهما.

وأما بالنسبة لإمامنا الحسن المجتبى عليهما السلام، فالتحليل اختص بمسألة الصلح غالباً، وقد يُعزى ذلك إلى قلة ما نقل عن حياتهم عليهما السلام التفصيلية أو إلى أن التحليل إنما نحتاج إليه في المقاطع المهمة من حياتهم عليهما السلام.

ولكن في النظر الفاصل أنه حتى مع وجود الشيء القليل مما نقل عن سيرهم فإننا نحتاج إلى مزيد من التحليل والدراسة في سير هؤلاء العظام الذين هم قدوة البشرية جماء، وسنحاول -رغم قصر الباع في هذا المجال- التعرّض بشكل بجمل وبما يتلائم مع هذه المقالة المختصرة إلى سيرة الإمام المجتبى عليهما السلام (من الولادة إلى فترة الطفولة) وتحليلها قدر الإمكان، وهو مجرد محاولة مقتضبة تمهيداً لدراسة أعمق وأشمل، ولذا فإن ما سنذكره هو انتخاب لبعض ما ورد في سيرته عليهما السلام، ولم نستقص كل ما ورد روماً للاختصار.

و قبل الدخول في صلب البحث لا بد من الإشارة إلى أننا سنلاحظ أن هناك مشروععاً إهياً لتأهيل هذا الإمام عليهما السلام للاستمرار في الدعوة الحمدية، والتي محورها التوحيد، وسبيلها الإمامة الإلهية، وكذلك فإن البحث يشمل في كثير من حياته سيرة الإمام الحسين عليهما السلام بسبب الحياة المشتركة والمنزلة المتساوية بين هذين الإمامين العظيمين.

والبحث ضمن المراحل التالية للإمام عليهما السلام:

أولاً: الولادة المباركة

تعتبر ولادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في حدّ نفسها منعطفاً مهمّاً في تاريخ الدعوة المحمدية، لكونه أول سبط لرسول الله عليه وآله وسليمه، وهو يأتي ضمن الوعد الإلهي للنبي: ﴿إِنَّا أَعْظَمْنَاكَ الْكَوْثَر﴾^(١)، حيث كان يُعيّر بانقطاع نسله وذريته.

وقد قال النبي عليه وآله وسليمه خديجة عليهما السلام حينما سمعها تتحدث مع الزهراء عليهما السلام وقد كانت جنيناً في بطنهما: «يا خديجة، هذا جبرئيل يبشرني بأنّها أنثى، وأنّها النّسمة الطاهرة الميمونة، وأنّ الله تعالى سيجعل نسلها، وسيجعل من نسلها أئمّة في الأمة، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه»^(٢).

إذن هذا المولود هو اختيار إلهي لا استمرار الخلافة الإلهية في الأرض، وهو شبيه بعيسى عليهما السلام من ناحية أنّ الله تعالى وعد أمّ مريم بابن فتبين أنها أنثى، وكان من هذه الأنثى العظيمة نبي عظيم، وهكذا كان من الزهراء العظيمة ابن عظيم، ولكن كما يقول الشاعر:

أَفَهَلْ لِمَرِيمَ وَالْمَدْ كَمْمَدْ

أَمْ هَلْ لِمَرِيمَ مُشَلْ فَاطِمَ أَشَبْلْ

وما يؤكّد الاختيار الإلهي وخصوصية هذا المولود ما ورد عن النبي عليه وآله وسليمه وهو يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي، أنت زوج سيدة النساء فاطمة ابتي، وأبو سبطي الحسن والحسين، يا علي، إنّ الله تبارك وتعالى جعل ذرية كلّنبي من صلبه، وجعل ذريتي من صلبيك»^(٣).

وجعل ذرية النبي عليه وآله وسليمه من صلب رجل آخر عن طريق ابنته



الزهراء عليها السلام - مع كونه يصح لغة وعرفاً كما كان عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام عن طريق أمه - يدل على أن المسألة أعمق من المسألة النسبية البحتة، بل لها جانب إلهي وتعبدني إن صح التعبير، وقد يكون هذا شبيهاً بصطلاح أهل البيت الذي يتجاوز المصطلح اللغوي والعرفي حيث المقصود بهم مجموعة خاصة، وليس كل من ينتسب إلى النبي صلوات الله عليه وآله.

ثانياً: التسمية

كل الحوادث المرتبطة بإمامنا الحسن عليه السلام تشير إلى ارتباط بالسماء، وأنها ليست جزافية، ومنها تسميته بالحسن، فإن الأبوين إذا أرادا تسمية ولدهما يضعان له اسمًا مؤملين أن يكون المسمي موافقاً للاسم، وقد يسمى الولد صالحًا ويكون طالحاً، أو يسمى عبد الله ويكون عبداً للشيطان وهكذا. ولكن لننظر من سمي الإمام بهذا الاسم؟ ولماذا سمي به؟

نقرأ هذا النص عن الإمام زين العابدين عليه السلام عندما ولد الإمام الحسن عليه السلام قال النبي صلوات الله عليه وآله: «لعلى عليه السلام: هل سميته؟ فقال: ما كنت لأسبقك باسمه؟ فقال صلوات الله عليه وآله: وما كنت لأسبق باسمه ربى عليك السلام، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى جبريل أنه قد ولد لمحمد ابن فاهبط واقرئه السلام ونهته، وقل له: إن علياً منك

بمنزلة هارون من موسى، فسممه باسم ابن هارون، فهبط جبريل عليه السلام فهناه من الله عليك السلام، ثم قال: إن الله عليك السلام يأمرك أن تسميه باسم ابن هارون، قال: وما كان اسمه؟ قال: شبر، قال: لساني عربي، قال: سمه الحسن، فسماه الحسن...»⁽⁴⁾.

والحديث يعلل سبب التسمية باسم ابني هارون بأن علي من النبي كهارون من موسى، وأولاد علي كانوا لاد هارون؛ وقد روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أوصى موسى عليه السلام إلى يوشع ابن نون، وأوصى يوشع بن

نون إلى ولد هارون، ولم يوصَ إلى ولده ولا إلى ولد موسى، إنَّ الله تعالى له الحيرة، يختار من يشاء من يشاء»^(٥).

وعن هشام بن سالم قال: «قلت للصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: الحسن أفضل أم الحسين؟ فقال: «الحسن أفضل من الحسين»، [قال] قلت: فكيف صارت الإمامة من بعد الحسين في عقبه دون ولد الحسن؟ فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أحبَّ أن يجعل سنةً موسى وهارون جارية في الحسن والحسين عليهما السلام، ألا ترى أنهما كانا شريكين في النبوة كما كان الحسن والحسين شريكين في الإمامة، وإنَّ الله تعالى جعل النبوة في ولد هارون ولم يجعلها في ولد موسى، وإنْ كان موسى أفضل من هارون عليهما السلام»^(٦).

فهي إذاً إشارة إلى مسألة الوصية والخلافة، وعن النبي عليهما السلام: «يا فاطمة، اسم الحسن والحسين في ابني هارون شَرِّ وشَيْر لكرامتهم على الله تعالى»^(٧)، وهذا الاسم هدية إلهية كما عن إمامنا الباقر عليهما السلام قال: «أهدى جرئيل إلى رسول الله عليهما السلام اسم الحسن بن علي عليهما السلام»^(٨).

فتسمية الإمام من قبل رب العزة يدلُّ على أنه من «المُخلَصِين»^(٩)، وأنَّ هذا المولود ضمن المشروع الإلهي الذي جاء به النبي عليهما السلام.

وقد ذُكرَ أنَّ اسم الحسن والحسين لم يكونا موجودين في الجاهلية عند العرب، وأنهما من أسماء الجنة، وأنَّ الله حجبهما عن الناس قبل الحسن والحسين عليهما السلام، نعم كان الموجود حسْن بسكون السين، وحسِين بفتح الحاء وكسر السين^(١٠).

بل ورد عن النبي عليهما السلام ما هو أوضح دلالة في كون التسمية مرتبطة بالله

تعالى حيث يقول: «سُمِّيَ الْحَسْنُ حَسَنًا لَأَنَّ بِإِحْسَانِ اللَّهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ، وَاشْتَقَ الْحَسِينُ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَعَلَيْهِ وَالْحَسْنُ اسْمَانٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى»⁽¹¹⁾.

إذن لهذا المولود شأن عظيم في مستقبل الدّعوة المحمدية، بل هو أحد أركانها الموعودين وأن هذه التسمية لم تكن اعتباطاً.

ثالثاً: في كنف النبي ﷺ

لم يعش الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكِبَرُ في كنف جده عَلَيْهِ الْكِبَرُ إلا سبع سنين تقريباً، ولكن حينما نقرأ الأحاديث في حقه نتصور أنه عاش حياة طويلة معه، لكثرة الأحاديث وأهمية مضمونها؛ وبما أنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الْكِبَرُ ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾⁽¹²⁾ ولا يتحدث من باب العاطفة والقربى والنسب مع أحد ولا في صالح أحد؛ فيجب إذاً ملاحظة كلماته عَلَيْهِ الْكِبَرُ بدقة وتأمل فيها، وما تحمل مع أهداف وغايات ترتبط بالدعوة.

فلنأت إذاً البعض ما ورد من كلمات وما صدر من أفعال تجاه السبط الجبلي عَلَيْهِ الْكِبَرُ ونحاول تحليلها وفهم غاياتها ضمن العناوين التالية:

1. الاهتمام الخاص والتعرif به:

أول ما يلاحظه المتأنّل في أفعال وأقوال النبي عَلَيْهِ الْكِبَرُ في حقِّ الحسن عَلَيْهِ الْكِبَرُ هو الاهتمام الخاص الذي لا يتعلّق بمجرد كونه ابنًا، فنراه يقول عنه وعن أخيه «هـما ريحانتاي من الدنيا»⁽¹³⁾، وكان يقول لفاطمة: «ادعـي لي ابني»، فيضمـهما ويضمـهما إليه⁽¹⁴⁾، وعن عائشة أنَّ النبي عَلَيْهِ الْكِبَرُ «كان يأخذ حسناً فيضمـه إليه فيقول: «اللهـم إـنـ هـذا اـبـني فـأـحـبـهـ وـأـحـبـ منـ يـحـبـهـ»⁽¹⁵⁾، ويقول أـسـامةـ

بن زيد: "طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه، فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه، فقال: «هذان ابني وأبنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»".^(١٦)

وهذا الاهتمام ليس خاصاً بداخل بيت النبي وفاطمة ظليلاً، بل يظهر أنّ النبي عليهما السلام كان يتعتمد إلفات نظر المسلمين بهذه العناية الخاصة بهذا الغلام، ويدل على ذلك كثرة الناقلين واختلاف أحوالهم مما يدل على تعدد الواقع.

فعن البراء بن عازب، قال: "رأيت رسول الله عليهما السلام حاملاً الحسن (على عاتقه) وهو يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَحُبُّهُ فَأَحُبُّهُ»".^(١٧)

وعن أبي هريرة قال: "خرج علينا رسول الله عليهما السلام ومعه الحسن والحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى أنهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله إنك تحبّهما، فقال: «نعم، من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»".^(١٨) ثم إنّ حمل الحسين على عاتقه أيضاً له دلالة خاصة، وكان عليهما السلام يقول: «من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن».^(١٩) وهذا أمر بالتعامل مع الإمام الحسن ظليلاً على أنه سيدهم؛ لأنّهم كلّهم يتمنى أن يكون من أهل الجنة.

وقال ابن شهر آشوب: "جاء في أكثر التفاسير أنّ النبي كان يعوذهما بالمعوذتين، ولهذا سميت المعوذتين".^(٢٠)

الأساس هو الدين وليس النسب

والظاهر من تعامل النبي عليهما السلام مع الحسن ظليلاً أنّه ليس على أساس

النسب، وإنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن مارية القبطية هو أقرب إلى النبي ﷺ نسبياً لأنَّه ابنه المباشر ولم ينقل اختصاصه بتعامل يفضل به على الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس ابناً عادياً حيث ورد عن النبي ﷺ في حَقِّهِ حين وفاته: «وَإِنَا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمْ حَزُونُونَ، وَلَوْ عَاشَ إِبْرَاهِيمُ لَكَانَ نَبِيًّا»^(٢١).

ونلاحظ أيضاً أنَّ هذه المعاملة الخاصة تقتربُ دائماً بذكر مقام الإمام «اللهَمَّ إِنِّي أَحُبُّهُ فَأَحْبَبْهُ»، و«منْ أَحْبَبَهُمَا فَقَدْ أَحْبَبَنِي»، فلو لم تكن هذه الحبة راجعة إلى منزلة هذين العظيمين عند الله تعالى لما كان مجرد النسب موجباً لحبة الله تعالى.

وما يدلُّ عليه ما روي عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ كان يعوذ حسناً وحسيناً فيقول: «أعوذكم بكلمات الله التامة من كُلّ شيطان وهامة، ومن كُلّ عين لامة، وكان إِبْرَاهِيمَ يعوذ بها إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»^(٢٢)، فالمسألة ترتبط بالنبوة والإمامية.

وقد وصل الاهتمام به إلى درجة استغراب الصحابة كما يذكر ابن حبان في صحيحه: "قالوا: يا رسول الله، إِنَّكَ تصنعُ بهذا الغلام شيئاً ما رأيناكَ تصنعه بأحد! فقال: «إِنَّهُ ريحانتي»"^(٢٣).

وما يدلُّ على ذلك أيضاً رواية طويلة مهمة نختتم بها هذه النقطة، وهي ما رواه الأصبغ بن نباتة قال: دخلت على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ والحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندَهُ، وهو ينظر إليهما نظراً شديداً، فقلت له: بارك الله لك فيهما، وبلغهما آمالهما في أنفسهما، والله إِنِّي لأراكَ تنظر إليهما نظراً شديداً فتطيل النظر إليهما، فقال: «نعم يا أصبع، ذكرت لها حديثاً»، فقلت: حدثني به جعلت فداكَ: فقال: «كنتُ في ضيعة لي، فأقبلتُ نصف النهار في شدة الحرّ وأنا

سورة العنكبوت - الآية ١٧
الحمد لله رب العالمين - اللهم إني أسألك
الثبات والثبات والثبات

٣٠

الدين والإسلام.

٢. الفضائل النوعية:

كثيرٌ من الناس هم فضائل، ومنهم مجموعةٌ من الصحابة كسلمان وأبي ذر مثلاً، ولكن فضائل أهل البيت عليهم السلام ترقى إلى مستوى الدلالة على الإمامة والولاية والأفضلية على الخلق، والمطلع على أحاديث الفضائل في كتب الفريقين لن يجد ما ورد في حقٍّ صغيرين كما ورد في حقٍّ الحسينين عليهم السلام، بل لم يرد حتى في الكبار سوى ما ورد في حقٍّ أبيهما علي وأمهما فاطمة عليها السلام، وليس للعمر مدخلية في منزلة الشخص وعظمته في نظر

جائع، فقلت لابنة محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه: أعندي شيءٌ تطعمينيه؟ فقامت لتهيء لي شيئاً حتى إذا انفلت من الصلاة قد أحضرت، أقبل الحسن والحسين عليهم السلام حتى جلسا في حجرها، فقالت لهما: ما حبسكم وأبطأكم عنِّي؟ قالا: حبسنا رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وجبريل، فقال الحسن: أنا كنتُ في حجر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه والحسين عليهم السلام في حجر جبريل عليه السلام، فكنت أنا أثبت من حجر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى حجر جبريل عليه السلام، وكان الحسين عليهم السلام يسب من حجر جبريل إلى حجر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، حتى إذا زالت الشمس قال جبريل عليه السلام: قم فصل إنَّ الشمس قد زالت، فعرج جبريل عليه السلام إلى السماء وقام رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فجئنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، في أيٍّ صورة نظر إليه الحسن والحسين عليهم السلام؟ فقال: «في الصورة التي كان ينزل فيها على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فلما حضرت الصلاة خرجتُ فصليت مع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فلما انصرفَ من صلاته، قلت: يا رسول الله، (وقصَّ عليه قصتها) فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «صدق ابني، ما زلتُ أنا وجريل عليهم السلام نزهو بها منذ أصبحنا إلى أن زالت الشمس، قلت: يا رسول الله بأيٍّ صورة كانوا يربان جبريل عليه السلام؟ فقال: بالصورة التي كان ينزل فيها علي» (٢٤).

ولنكتفي بذكر حديثين من باب الاختصار:

الحديث الأول: وهو الحديث الصحيح المشهور: «الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة»^(٢٥)، فهل هذا مجرد مدح وتشريف؟ وما معنى أن يكونَ الحسانِ سيداً شبابَ أهل الجنة؟ فمن هم أهل الجنة؟ وهل فيهم غير المؤمنين، وغير الصالحين، وغير الأولياء والأنبياء والصديقين؟! مع العلم أنه يرجع جميع الناس شباباً في الجنة.

وقد ورد عن الحسن بن زياد العطار، قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ: قول رسول الله: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، سيدة نساء عالمها؟ قال: «ذاك مريم، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة من الأولين والآخرين»، فقلت: فقول رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ: «الحسن والحسين سيداً شبابَ أهل الجنة؟» قال: «هما والله سيداً شبابَ أهل الجنة من الأولين والآخرين»^(٢٦).

وإذا جعلَ اللهُ شخصاً ما سيداً على أهل الجنة، لا يكون قد جعله سيداً في الدنيا على أهلها؟ ثم إنَّ معنى السيادة الثابتة للحسنين عَلَيْهِمَا الْكَلَمُونَ لا بدَّ أن يكون مرتبطاً بالمنصب والمزلة الإلهية، وليس منصباً مادياً كما هو واضح، ومن يكون الحسنُ سيداً في الآخرة لا يمكن أن يتقدم عليه في الدنيا، فالنبي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ بقوله هذا قد أثبتت سيادة الحسينين على جميع الصحابة لمن كان منصفاً.

ومما يدلُّ ويؤكِّد على ذلك موارد وظروف هذا الحديث وهي كثيرة، فمنها ما أخرجه أحمد في مسنده عن حذيفة قال: "سألتني أمي منذ متى عهدك بالنبي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ" قال: فقلت لها: منذ كذا وكذا، قال: فنالت مني وسبتي، قال: فقلت لها: دعيني فإنِّي آتني النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ فأصلَّى معه المغرب ثمَّ لا أدعه حتى يستغفر لي ولـك، قال: فأتيت النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ فصلَّى معه المغرب، فصلَّى النبي عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ

العشاء ثم انفلت فتبنته، فعرض له عارضٌ فناجاه، ثم ذهب فاتبنته فسمع صوتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، قال: ما لك؟ فحدثه بالأمر، فقال: «غفر الله لك ولا مك»، ثم قال: «أما رأيت العارض الذي عرض لي قبيل؟» قال: قلت: بلى، قال: « فهو ملكٌ من الملائكة لم يهبط الأرض قبل هذه الليلة، فاستأذن ربّه أن يسلم علىَّ ويبشرني أنَّ الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة، وأنَّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»^(٢٧).

الحديث الثاني: قول رسول الله ﷺ: «الحسنُ والحسينُ إمامان قاما أو قعوا»^(٢٨)، وهذا الحديث صريح في الإمامة لا يقبل التأويل، ولا معنى لتفصيص الحديث بالإمامية الدنيوية (الخلافة الظاهرية)، خصوصاً أنَّهما عليهم السلام لم يحصلا عليها، نعم حصل عليها الحسن عليه السلام بضعة أشهر، وحتى لو كان المقصود بالإمامية هي الخلافة والحكم فيثبتت على رأي العامة تقدُّم الحسينين على غيرهما بهذا الحديث.

ولا يسعُ المسلم إلا قبول إمامنة الحسينين عليهم السلام، ومقتضاه رفض إمامنة المخالف لهم، كمعاوية ويزيد، بل ما فوقهما؛ حيث لم يرد في حقِّهم دليلٌ على الإمامة.

والدليل على كون كلام النبي ﷺ يتعلَّق بالإمامية الإلهية قوله لأبي ذر: «يا أبا ذر إنَّها (أي الزهراء عليها السلام) بضعة مني، فمن آذها فقد آذاني، ألا إنَّها سيدة نساء العالمين، وبعلها سيد الوصيين، وابنيها الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة، وإنما إمامان إن قاما أو قعوا، وأبوهما خير منها، وسوف يخرج من صلب الحسين تسعة من الأئمة معصومون قوَّامون بالقسط، ومنا مهديُّ هذه الأمة»، قال: قلت: يا رسول الله فكم الأئمة بعدك؟ قال: عدد نقباء بنى إسرائيل»^(٢٩).

٣. التهيئة لقبول قيادته عند الاختلاف:

يعلم النبي ﷺ بما سيصدر من الأئمة من بعده، ومنها ما سيجري على الإمام الحسن علیه السلام، ويشير إلى ذلك ما روي عنه علیه السلام في حق الحسن علیه السلام، عن أبي بكرة قال: "صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: «إِنَّ أَبْنَى هَذَا سِيِّدٌ يُصْلِحُ اللَّهَ عَلَى يَدِيهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ»، قال الترمذى: "هذا حديث حسن صحيح" ^(٣٠)، وفي لفظ آخر في مسند أحمد والبخارى عن أبي بكرة: "رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وحسن علیه السلام معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول: «إِنَّ أَبْنَى هَذَا سِيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»" ^(٣١).

فمبادرة النبي ﷺ لإخبار الناس بما سيقع بعده بزمن بعيد من الاختلاف وأن الإصلاح سيقع على يد هذا الغلام يدل على أهمية الموضوع أولاً، وعلى عظمته هذا الغلام ثانياً، وعلى وجوب اتباعه حيث أنه المصلح بين المسلمين ثالثاً، خصوصاً أنه علیه السلام عبر عنه أنه «سيّد».

فكلام النبي ﷺ هنا يعتبر حجة على كل المسلمين، وعلى كل من خالف الإمام الحسن علیه السلام، فضلاً عن حاربه كمعاوية وأتباعه، بل كلامه علیه السلام يدل على بطلان خلافة معاوية لمن تأمل.

٤. زراعة محبته في قلوب المسلمين:

ضمن تهيئة الإمام الحسن علیه السلام للإمامية الإلهية حاول الرسول ﷺ في أكثر من مناسبة زرع محبته في القلوب، وبعض ما تقدّم يدخل في هذا الإطار.

وروى الترمذى في سننه عن البراء: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْصَرَ حَسَنًا

وحسينا فقال: «اللهم إني أحبهم فأحبهم»، وعن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ حاملُ الحسن بن علي على عاتقه، فقال رجلٌ: نعم المركب ركبت يا غلام، فقال النبي ﷺ: «ونعم الراكب هو». وعن أبي هريرة، قال: "قال رسول الله عليه ﷺ: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»^(٣٢)، وفي آخر أنه ﷺ قال للحسن: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»^(٣٣).

وروى النسائي: عن أنس قال: "لقد رأيت رسول الله ﷺ يخطبُ والحسنُ على فخذه فتكلّم ما بدا له، ثم يقبلُ عليه فيقبله فيقول: «اللهم إني أحبه فأحبه، قال: ويقول: «إني لأرجو أن يُصلح به بين فتتين من أمتي»^(٣٤).

فهذا التأكيد لا يمكن أن يكون مجرد عاطفة منه ﷺ، بل لا يصح ذلك لو لم يكن الحسن عليه أهلاً لهذه الحبة الخاصة، خصوصاً أنَّ النبي ﷺ ربط بين محبته ومحبة الله تعالى، وهذا لا يكون إلا في الرجال الإلهيين كما تقدم.

رابعاً: بعد رحيل المصطفى ﷺ

بعدما أدى الرسول ﷺ ما يجب عليه من بيان مكانة الإمام الحسن عليه، وبعدما رأى المسلمين سيرة النبي معه، فحينئذ أي فعل يصدر من الإمام عليه يكون له أثرٌ خاص على رغم صغر سنّه، والناس لم يعتادوا من قبل أن يكون للصغار رأي أو مكانة، ولكن ببركات سيرة النبي ﷺ وتأكيidاته وموافقه المتقدمة وغيرها عرف الناس أنَّ للإمام الحسن عليه مكانة خاصة، وسواء عمل الناس بما عرفوا أم جحدوا فإنَّ ذلك لا ينقص من مكانة الإمام عليه، ولا يجعل فعل النبي ﷺ عبيشاً، بل يكون ذلك حجة على المسلمين إلى يوم القيمة.

وورد في سيرة الإمام علي عليه السلام بعض المواقف المهمة بعد رحيل جده عليه السلام، وهي مواقف نابعة عن علم الإمام بما يفعل وبما يجب عليه القيام به، وليس كما يصدر من الصغار تجاه الأحداث التي تمس حياتهم الشخصية.

انزل عن منبر أبي:

من أهم المواقف في شأن الخلافة وبطريقه الخاصة وبما يتناسب مع الظروف اعترافه على أبي بكر وهو يخطب في الناس، فعن الشعبي قال: "قام الحسن بن علي عليهما السلام إلى أبي بكر وهو يخطب على المنبر، فقال له: «انزل عن منبر أبي»".

وهذا موقف عظيم ومهم ومحرج بالنسبة إلى الخليفة، ومعنى كلام الإمام علي عليهما السلام أن هذا المنصب لا يليق بك بل هو منصب "أبي"، وسواء كان مراد الإمام علي عليهما السلام من أبيه هو رسول الله أم أمير المؤمنين عليهما السلام فإنه يشير به إلى أحقيته بالخلافة، فبماذا أجاب الخليفة على ذلك؟ لقد أقر بالأمر وقال: "صدقت، والله إنّه لم ينبر أبيك لا منبر أبي"، فبعث علياً إلى أبي بكر، «إنه غلام حدث، وإنّا لم نأمره»، فقال أبو بكر: "صدقت إنّا لم نتهمك" ^(٣٥).

وإقرار الخليفة لكلام الإمام علي عليهما السلام وعدم إمكان معارضته، ولكن من ناحية عملية لم يفعل الخليفة شيئاً ولم يسلم الأمر إلى صاحبه بمقتضى اعترافه بالأمر!

ويبدو أن هذا الموقف بقي في قلب الخليفة، وإن كانت الرواية المتقدمة تذكر بأنه لم يتهم الإمام علي عليهما السلام بتحريض ابنه الحسن عليهما السلام، ولكن قد ورد في حادثة دفن الزهراء عليهما السلام أن الأول والثاني جاءا معترضين على أمير المؤمنين عليهما السلام لعدم إخبارهما بذلك وقالا: "والله ما تركت شيئاً من غوايلنا

متعددة منها:

عن الإمام الحسين ع قال: «رأيت عمر بن الخطاب على منبر رسول الله عليه وآله فقلت [له]: انزل عن منبر أبي إلى منبر أبيك!! فقال: إني لم يكن لأبي منبر؟ قال: فأجلسني في حجره فلما نزل انطلق بي إلى منزله فقال: من علمك هذا؟ فقلت: لم يعلمنيه أحد. [ف] قال: لا تدع أن تعاهدنا. قال: فأتيته يوما وإذا ابن عمر على الباب لم يؤذن له فانصرف وانصرفت معه فلقيني عمر بعد ذلك فقال لم أرك [تعاهدنا؟] فقلت إني قد جئتكم فرأيت عبد الله بن عمر على الباب لم يؤذن له فانصرف فانصرفت معه. فقال: أنت أحق بالإذن والدخول على من عبد الله إنما أنت الله هذا - وأشار بيده إلى رأسه - ثم أنت!!!»^(٣٧).

ومساءتنا، وما هذا إلا من شيء في صدرك علينا، هل هذا إلا كما غسلت رسول الله عليه وآله دوننا ولم تدخلنا معك، وكما علمت ابنك أن يصبح بأبي بكر أن «انزل عن منبر أبي»..، وضمن ما قاله الإمام علي ع في جوابهما:

«وأما الحسن ابني فقد تعلمـانـ ويـعـلـمـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ آـنـهـ يـتـخـطـيـ الصـفـوـفـ حـتـىـ يـأـتـيـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـبـرـهـ وـهـ سـاجـدـ فـيـرـكـ ظـهـرـهـ، فـيـقـوـمـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـبـرـهـ عـلـىـ ظـهـرـ الـحـسـنـ وـالـأـخـرـىـ عـلـىـ رـكـبـتـهـ حـتـىـ يـتـمـ الصـلـاـةـ»، قالـاـ: نـعـمـ، قـدـ عـلـمـنـاـ ذـلـكـ، ثـمـ قـالـ: «تعلـمـانـ وـيـعـلـمـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ آـنـ الـحـسـنـ كـانـ يـسـعـىـ إـلـىـ النـبـيـ وـيـرـكـ عـلـىـ رـقـبـتـهـ وـيـدـلـيـ الـحـسـنـ رـجـلـيـهـ عـلـىـ صـدـرـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـبـرـهـ حـتـىـ يـرـىـ بـرـيقـ خـلـخـالـيـهـ مـنـ أـقـصـيـ الـمـسـجـدـ وـالـنـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـبـرـهـ يـخـطـبـ وـلـاـ يـزـالـ عـلـىـ رـقـبـتـهـ حـتـىـ يـفـرـغـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـبـرـهـ مـنـ خـطـبـتـهـ وـالـحـسـنـ عـلـىـ رـقـبـتـهـ، فـلـمـ رـأـيـ الصـبـيـ عـلـىـ مـنـبـرـ أـبـيـهـ غـيرـ شـقـ عـلـيـهـ ذـلـكـ، وـالـلـهـ مـاـ أـمـرـتـهـ بـذـلـكـ وـلـاـ فـعـلـهـ عـنـ أـمـرـيـ»^(٣٦).

وقد وردت هذه الحادثة عن الإمام الحسين ع مع عمر أيضاً وبروايات

وفي حديث آخر أنَّ الحسين بن علي علیهما السلام أتى عمر بن الخطاب وهو على المنبر يوم الجمعة، فقال له: «انزل عن منبر أبي»، فبكى عمر، ثم قال: صدق يا بني، منبر أبيك لا منبر أبي. فقال علي علیهما السلام: «ما هو والله عن رأيي». قال: صدق والله ما اهتمتك يا أبا الحسن، ثم نزل عن المنبر، فأخذه فأجلسه إلى جانبه على المنبر، فخطب الناس وهو جالس معه على المنبر، ثم قال: أيها الناس، سمعت نبيكم علیه السلام يقول: «احفظوني في عترتي وذرتي، فمن حفظني فيهم حفظه الله، ألا لعنة الله على من آذاني فيهم! ثلثاً».^(٣٨)

وينبغي الإشارة إلى أنَّ قول الإمام علي علیهما السلام بعدم تحريضه لابنه لا يدل على عدم قبوله، بل ظرف التقية تقتضي ذلك، بل هذا الموقف يبين أنَّ كلام الحسينين علیهما السلام لهما معنى عميق جداً يرتبط بالإمامية والخلافة، فتأمل.

تقديم علي للحسن طليلاً وهو غلام:

في واقعة أخرى زمن الخليفة الأول تدل على ارتباط الإمام علي علیهما السلام بالمشروع الإلهي نذكرها -على طوها- لأهميتها وارتباطها بجانب من جوانب الإمامة والخلافة:

عن أبي عبد الله علیهما السلام: أنَّ أعرابياً بدرياً خرج من قومه حاجاً محرماً، فورد على أحدى نعام فيه بيض فأخذوه واشتواه، وأكل منه، وذكر أن الصيد حرام في الإحرام. فورد المدينة فقال الأعرابي: أين خليفة رسول الله علیه السلام؟ فقد جنئت جنائية عظيمة، فأرشد إلى أبي بكر، فورد عليه الأعرابي وعنده

سورة الحج - الآية ٢٧
الحمد لله رب العالمين - اللهم إني أسألك ملائكة الرحمة
لهم اغفر لـ عـاصـيـكـ وـ ذـنـبـيـ وـ حـرـمـيـ وـ زـبـرـيـ

٣٨

ملاً من قريش فيهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، والمغيرة بن شعبة، فسلم الأعرابي عليهم، فقال: يا قوم أين خليفة رسول الله ﷺ؟ فقالوا: هذا خليفة رسول الله ﷺ؟ فقال: أفتني؟ فقال له أبو بكر: قل يا أعرابي، فقال: إني خرجت من قومي حاجاً، فأتيت على أدى فيه بيض نعام فأخذته فاشتوريته، وأكلته، فماذا لي من الحج، وما عليَّ فيه أحلاً ما حرم علي من الصيد أم حراماً؟ فأقبل أبو بكر على من حوله فقال: حواري رسول الله ﷺ وأصحابه، أجيروا الأعرابي، قال له الزبير من بين الجماعة: أنت خليفة رسول الله ﷺ فأنت أحقُّ بإجابته، فقال أبو بكر: يا زبير، حبُّ بني هاشم في صدرك! قال: وكيف لا! وأمي صفية بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ فقال الأعرابي: إنَّ الله ذهبَتْ فتياي، فتنازع القوم فيما لا جواب فيه، فقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ، استرجع بعد محمد ﷺ دينه فنرجع عنه، فسكت القوم، فقال الزبير: يا أعرابي ما في القوم إلا من يجهل ما جهلت، قال الأعرابي: ما أصنع؟ قال له الزبير: لم يبق في المدينة من تسلَّه بعد من ضمَّه هذا المجلس، إلا صاحب الحق الذي هو أولى بهذا المجلس منهم، قال الأعرابي: فترشدي إليني؟ قال له الزبير: إنَّ إخباري يُسرُّ قوماً ويُسخطُ قوماً آخرين، قال الأعرابي: وقد ذهب الحقُّ وصرتم تكرهونه! فقال عمر: إلى كم تطيل الخطاب يا ابن العوام؟ قوموا بنا والأعرابي إلى علي عليه السلام، فلا تسمع جواب هذه المسألة إلا منه، فقاموا بأجمعهم والأعرابي معهم، حتى صاروا إلى منزل أمير المؤمنين عليه السلام فاستخرجوه من بيته، وقالوا: يا إعرابي أقصص قصتك على أبي الحسن عليه السلام، فقال الأعرابي: فلم أرشد متوني إلى غير خليفة رسول الله ﷺ؟

قالوا: يا أعرابي خليفة رسول الله عليه وآله أبو بكر، وهذا وصيّه في أهل بيته، وخليفته عليهم، وقاضي دينه، ومنجز عداته، ووارث علمه، قال: ويحكم يا أصحاب رسول الله، والذي أشرتم إليه بالخلافة ليس فيه من هذه الخلال خللا! قالوا: يا أعرابي سل عمّا بدا لك، ودع ما ليس من شأنك قال الأعرابي: يا أبي الحسن، يا خليفة رسول الله، إني خرجت من قومي محراً، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «تريد الحج، فوردت على أدى وفيه بيض نعام، فأخذته واستويته وأكلته»، فقال الأعرابي: نعم يا مولاي. فقال له: «وأتيت تسأل عن خليفة رسول الله عليه وآله، فأرشدت إلى مجلس أبي بكر وعمر، فأبديت بمسألتك فاختصم القوم ولم يكن فيهم من يحييك على مسألتك»، فقال: نعم، يا مولاي. فقال له: «يا أعرابي الصبي الذي بين يدي مؤدب صاحب الذواب، فإنه ابني الحسن عليه السلام، فسله فإنه يفتئك»، قال الأعرابي: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات دين محمد عليه وآله بعد موته، وتنازع القوم وارتدوا، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «حاش لله يا أعرابي، ما مات دين محمد عليه وآله، ولن يموت»، قال الأعرابي: فمن الحق أن أسأل خليفة رسول الله عليه وآله وحواريه وأصحابه، فلا يفتوني، ويحيلوني عليك فلا تجيبي، وتأمرني أن أسأل صبياً بين يدي المعلم، ولعله لا يفصل بين الخير والشر، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أعرابي لا تقف ما ليس لك به علم، فسائل الصبي فإنه يبنئك». فمال الأعرابي إلى الحسن عليه السلام وقلمه في يده، وينظر في صحيفته خطأً، ويقول مؤدب: أحسنت أحسنت، أحسن الله إليك، فقال الأعرابي: يا مؤدب الحسن الصبي فتعجب من إحسانه، وما أسعك تقول له شيئاً حتى كأنه مؤدب، فضحك القوم من الأعرابي وصاحوا به: ويحك يا أعرابي سل وأوجز. قال الأعرابي: فديتك يا حسن، إني خرجت حاجاً محراً فوردت

على أحدي فيه بيض نعام، فشويته وأكلته عامداً وناسياً. قال الحسن عليه السلام: «زدت في القول يا أعرابي قولك عامداً، لم يكن هذا من مسألك، هذا عبث»، قال الأعرابي: صدقت ما كنت إلا ناسياً، فقال له الحسن عليه السلام، وهو يخطُّ في صحيفته: «يا أعرابي خذ بعدد البيض نوقاً فاحمل عليها فنيقاً (وهو الفحل من الإبل)، فما نجحت من قابل فاجعله هديةً بالغ الكعبة، فإنه كفارة فعلك». فقال الأعرابي: فديتك يا حسن إنَّ من النيق ما يزلقن، فقال الحسن عليه السلام: «يا أعرابي، إنَّ من البيض ما يمرقن»^(٣٩)، فقال الأعرابي: أنت صبي محقق محرر في علم الله مغرق، ولو جاز أن يكون ما أقوله قلته إنك خليفة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقال له الحسن عليه السلام: «يا أعرابي أنا الخلف من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وأبى أمير المؤمنين عليه السلام الخليفة»، فقال الأعرابي: وأبو بكر ماذا؟ قال الحسن عليه السلام: «سلهم يا أعرابي»، فكثير القوم، وعجبوا مما سمعوا من الحسن عليه السلام، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل في وفي ابني هذا، ما جعله في داود وسليمان، إذ يقول الله عز من قائل: ﴿فَقَهَمْنَاهَا سُلَيْمَان﴾»^(٤٠).

وفي هذه الحادثة معاني جليلة لا يسع المقام لذكرها، ولكن فيما يرتبط بالإمام الجحتي عليه السلام نلاحظ:

المقام العلمي للإمام عليه السلام وهو على أكثر التقادير لم يتجاوز العاشرة حينها، ودلالة هذا المقام على الخلافة، واهتمام الإمام عليه السلام بالكتابة وتعامله مع القلم تعامل العظماء، ثم تعمَّد أمير المؤمنين عليه السلام لإبراز ابنه الإمام الحسن عليه السلام أمام النَّاس في هذه الحادثة المثيرة، وربط الأمر بإرادة الله تعالى، وذكر الشبيه بينه وبين الأنبياء عليهم السلام بقوله: «الحمد لله الذي جعل في وفي ابني هذا، ما جعله في داود وسليمان».

الخاتمة

هذا موجزٌ مختصرٌ لبعض ما ورد في سيرة السبط الأكبر عليه السلام، ولا حظنا الاهتمام الإلهي والنبوى الخاص بهذا الإمام العظيم عليه السلام، وأنه كان يعمل على إعداده لمواصلة مسيرة جده وأبيه، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وإذا وفقنا في فرصة أخرى أن نكمل البحث فسوف نرى ثرة هذه التربية وهذا الإعداد الإلهي. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:



٤١

- (١) سورة الكوثر: ١.
- (٢) دلائل الإمامة، ابن جرير الطبرى الشيعي، ص ٧٧، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١١٩.
- (٣) الأماى، الشيخ الصدوق، ص ٤٥٠.
- (٤) الأماى، الشيخ الصدوق، ص ١٩٨-١٩٧، وعلل الشرائع، ج ١، ص ١٣٧.
- (٥) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٩٣، وقرب منه في بصائر الدرجات، الصفار، ص ٤٨٩.
- (٦) كمال الدين وقام النعمة، الصدوق، ص ٤٦.
- (٧) علل الشرائع، الصدوق، ص ١٣٨.
- (٨) علل الشرائع، الصدوق، ص ١٣٩.
- (٩) سورة الحجر: ٤٠.
- (١٠) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٦٦، شرح الأخبار، القاضي النعمان، ج ٣، ص ٨٩.
- (١١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٦٦.
- (١٢) النجم: ٣.
- (١٣) صحيح البخارى، ج ٤، ص ٢١٧، وسنن الترمذى، ج ٥، ص ٣٢٢.

- (١٤) سنن الترمذى، ج ٥، ص ٣٢٣.
- (١٥) المعجم الكبير، الطبرانى، ج ٣، ص ٣٢، وعنه فى مجمع الزوائد، الهيثمى، ج ٩، ص ١٧٦.
- (١٦) سنن الترمذى، ج ٥، ص ٣٢٢.
- (١٧) الأمالى، الطوسي، ص ٢٤٩. وصحیح البخاري، ج ٤، ص ٢١٧، وصحیح مسلم، ج ٧، ص ١٣٠.
- (١٨) مستدرک الصحیحین، الحاکم النیسابوری، ج ٣، ص ١٦٦، وقال عنه: "هذا حديث صحیح الاسناد ولم یخرجاہ".
- (١٩) تاريخ مدینة دمشق، ابن عساکر، ج ١٣، ص ٢٠٩، والجامع الصغیر، جلال الدین السیوطی، ج ٢، ص ٦٠٧.
- (٢٠) مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٥٥.
- (٢١) تفسیر فرات الکوفی، ص ٥٨٦، وعنه في البحار، ج ٢٢، ص ٤٥٨.
- (٢٢) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٥٥.
- (٢٣) صحیح ابن حبان، ج ١٥، ص ٤١٩.
- (٢٤) مختصر بصائر الدرجات، حسن بن سليمان الحلی، ص ٦٩.
- (٢٥) مسند أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، ج ٣، ص ٦٢ و ٣٣، وترجمة الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، طبقات ابن سعد، ص ٤٨، وقال عنه الترمذى في سننه، ج ٥، ص ٣٢١: "هذا حديث صحيح حسن".
- (٢٦) الأمالى، الصدق، ص ١٨٧.
- (٢٧) مسند أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، ج ٥، ص ٣٩٢، وسنن الترمذى، ج ٥، ص ٢٢٦.
- (٢٨) روضة الوعاظين، الفتال النیسابوری، ص ١٥٧.
- (٢٩) کفایة الآخر، الخراز القمي، ص ٣٨.
- (٣٠) سنن الترمذى، ج ٥، ص ٣٢٣.
- (٣١) مسند أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، ج ٥، ص ٣٨، وص ٤٤، وصحیح البخاري، ج ٣، ص ١٧٠.
- (٣٢) سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٥١.



- (٣٣) صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٢٩.
- (٣٤) فضائل الصحابة، النسائي، ص ١٩-٢٠.
- (٣٥) السقيفة وفك، الجوهرى، ص ٦٩، وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ص ٦، ص ٤٢.
- (٣٦) علل الشرائع، الصدوق، ج ١، ص ١٨٨.
- (٣٧) مناقب الإمام علي عليه السلام، محمد بن سليمان الكوفي، ج ٢، ص ٢٥٦.
- (٣٨) الأمازي، الطوسي، ص ٧٠٣.
- (٣٩) أزlectت الإبل: ألقـت ولدها قبل قـامةـهـ، ومرقت البيضـةـ: فـسـدـتـ فـصـارـتـ مـاءـ.
- (٤٠) مستدرك الوسائل، التورى، ج ٩، ص ٢٦٦-٢٧٠.

الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام .. معز المؤمنين

السيد حسن الغريفي

الملاخص:

تناول الكاتب في مقالته بعض ظلامات السبط الأكبر عَلَيْهِ السَّلَام، وأشار إلى ضرورة التثبت والتأمل عند إصدار أي حكم في سيرة كل معصوم، ثم أكد على أن سيرة المعصومين هي خط واحد مع تنوع الأدوار بما يرونها من مصلحة، ومن ذلك تصدي الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَام للفتنة بعد أبيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام والصلح، ثم ختم المقالة بذكر شروط الصلح ونقضها من قبل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تجلى مظاهر العزة والكرامة والبصرة الثاقبة في حياة الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَام السياسي والمجهادي بأجلى صورها ومعانيها، خصوصاً فيما يتعلق بال موقف السياسي الذي اتخذه الإمام عَلَيْهِ السَّلَام في (قضية الصلح).

هذه المسألة ما زالت إلى يومنا هذا مثاراً للبحث والمناقشة والأخذ عند كثير من الكتاب والباحثين، وبغض النظر عن تقييم صحيحها من سقيمها، تعرّضت للأسف هذه المسألة (الصلح) للتّشویه والتّضليل والإساءة المتممّدة من قبل الأقلام المأجورة والمغرضة، والتي صاغت التاريخ وفق مشهيات

أصحاب السلطة، كما كانت عرضة لقراءات متحيزة وناقصة مبتورة تحمل نفساً طائفياً بغيضاً، كان الأجدى ب أصحابها أن تمارس أدنى درجات الموضوعية المطلوبة لدى الباحث عن الحقيقة، وهنا لا نريد أن ندخل في الإسفاف المأجور الذي دونته هذه الأقلام في أغلب كتب التاريخ المدسوسة، خصوصاً ما يتعلّق بشخصيّة الإمام الحسن عليهما السلام من افتراء متعمّد ، مثل أنّ سبب اختيار الإمام عليهما السلام للصلح هو شخصيّته التي دعته للدّعّة والرّاحة ليأخذ بهذا الخيار؟؟!

الإمام الحسن عليهما السلام عاش من صغره في بيت النّبوة والإمامية، وتعلم وترعرع في كنف جده المصطفى محمد عليهما السلام تعاليم الوحي السّامية وأخذ منه شمائل النّبوة الهدادية، وورث منه الهيبة والسؤدد يقول عليهما السلام:

«أَمَا الْحَسْنُ فَإِنَّ لَهُ هَبَيْتِي وَسُؤَدَّدِي ...»^(١)، كما ذكر الشّيخ المفيد عليهما السلام في كتاب الإرشاد:

لم يكن أحد أشبه برسول الله عليهما السلام من الحسن بن علي عليهما السلام خلقاً وخلقًا وهيأً وهدياً وسؤداداً...

كما عاش الإمام عليهما السلام أيضاً المحن العظيمة والرّزايا الجليلة أمام ناظريه من المحنّة الكبرى لرحيل جده المصطفى الأكرم عليهما السلام وما جرى بعد رحيله، وما جرى على أمّه المظلومة الشّهيدة وأبيه الصّابر الحتسّب عليهما السلام.

النظرة الكلية المتكاملة

من الضروري للمتأمّل والباحث الحصيف أن يطالع سيرة أهل البيت عليهما السلام بصورة مترابطة ومتكمّلة، كما يقرأ القراءة التفصيلية لحياة كلّ

إمام معصوم من أهل البيت عليهما السلام، خصوصاً القراءة الأولى (المتكاملة) فهي تفسّر بشكل واضح وجلّي حقيقة موافق الأئمة عليهم السلام المختلفة من الأحداث والأوضاع التي عاشهما، ضمن نسيج مترابط ومنسجم يكمل بعضه الآخر، وبدون ذلك قد تصبح القراءة ربّما ملتيسة وناقصة، ولكي نقرأ موقف الإمام الحسن عليه السلام على ضوء النّظرة المتكاملة المترابطة ..

نبدأ من بعد رحيل النبي الأكرم عليه السلام وما أحدث من هزة في واقع الأمة، مروراً بسيرة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام والذي واجه معركة من نوع آخر وهي (معركة التأowيل) ذكرها النبي الأكرم عليه السلام « ... يا علي تقائلهم على التأowيل كما قاتلتهم على التنزيل »^(٢).

لا شك أن هذه المعركة عصفت بأهم ركن في الإسلام والرسالة وأعظم نعمة للإسلام، إلا وهي (الإمامية) التي بها نظام الملة والأمان من الفرقـةـ كما عبرت السيدة الزهراء عليها السلامـ، والتي كان لها الدور المؤثر في الدفاع عن هذا الموقع الإلهي العظيم واستشهدت في سبيله، فهو الطريق إلى النّجاة والفالح من الزّيغ والضلال وهو الفوز بالجنة والرضوان.

لكن كيف قابلت الأمة هذه النّعمة؟! كيف حفظت الأمانة والوصيّة؟! ألم تقابلها بالكفران والجحود ونقض العهود، حينها دخلت الأمة في فتنـةـ عمـاءـ مظلمـةـ لم ينجـعـ منها إـلاـ العـدـدـ القـلـيلـ منـ صـاحـبـةـ النـبـيـ الأـكـرمـ عليـهـ السـلامــ، مـنـ عـرـفـواـ أـهـلـ الـبـيـتـ عليـهـ السـلامــ حـقـ مـعـرـفـتـهـمـ وـشـاعـرـوـهـمـ، وـبـقـواـ عـلـىـ طـرـيقـهـمـ مـتـمـسـكـينـ بـنـهـجـهـمـ مـضـحـيـنـ بـعـهـجـهـمـ وـمـاـ بـدـلـواـ تـبـدـيـلاـ.

أمام (معركة التأowيل) .. واجه أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وهو المخلص الأمين للإسلام ومصالح الأمة في طوال مسيرة حياته المباركة،

هذا الواقع المؤلم واجهه بالعمل على خطّين أساسين هامين -كانا عرضة لمعول الهدم بصورة مستمرة عبر فتنـة كبرى تعيد المـاحالـية الأولى (بـستـار الإسلام) - وهما:

أ - الحفاظ على أصالة تعاليم الإسلام التي جاء بها النبي الأكرم عليه السلام ونقاوتها من التـحرـيف والضـيـاع والـعـثـ.

ب - تقديم النـموـذـج الأصـيل للـإـسـلـام من خـلـال (نهـج الإـمامـة)، والـحـافـظـةـ على أـتـبـاعـهـمـ الخـلـصـ أـمـامـ التـحـديـاتـ وـالـصـعـوبـاتـ الـتـيـ تـواـجـهـ بـنـاءـ كـيـانـهـمـ العـلـوـيـ.

وعلى هذا واصل الإمام الحسن عليه السلام مسيرة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثمّ الإمام الحسين عليه السلام سار على ذلك بحيث تكسرت على يديه آخر فصول الزـيفـ الـأـمـوـيـ وأـرـكـانـهـ من خـلـالـ نـهـضـتـهـ الـمـبارـكـةـ.

إذاً المسـأـلةـ مـتـرـابـطـةـ وـمـكـمـلـةـ لـبعـضـهاـ الآـخـرـ ضـمـنـ مـشـرـوـعـ وـاحـدـ (الـإـمـامـ عـلـيـ وـالـإـمـامـ الـحـسـنـ وـالـإـمـامـ الـحـسـنـ عـلـيـهـمـ الـعـلـيـةـ) تـحـقـقـتـ عـلـىـ أـيـدـيـهـمـ الـأـهـدـافـ المرـجـوـةـ منـ حـيـثـ:

- إـسـقـاطـ مـشـرـوـعـ إـعادـةـ الـمـشـرـوـعـ الـجـاهـلـيـ وـالـأـمـوـيـ الـمـتـسـتـرـ بـالـإـسـلـامـ وـتـعـرـيـتـهـ.

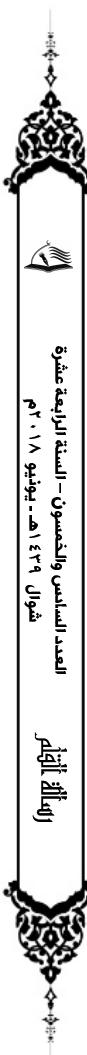
- تـرـسيـخـ الـإـسـلـامـ الـعـلـوـيـ النـقـيـ ليـشـعـ نـورـهـ فيـ الـأـمـمـ، بـحـيـثـ أـصـبـحـتـ الـأـمـمـ تـقـيـزـ بـوـعـيـ الـطـرـيقـيـنـ، وـتـسـعـيـ جـاهـدـهـ منـ أـجـلـ أـنـ يـعـمـ نـورـ الـإـسـلـامـ الـحـمـدـيـ الـأـصـيلـ وـنـمـوذـجـ الـحـكـمـ الـعـلـوـيـ.

أساليب المسالمة والمواجهة

وتنوعت أساليبهم عليهم السلام في الحفاظ على هذين الركنين الأساسيين (أصالة الإسلام ورعاية مصالح الأمة)، فقد مارس أمير المؤمنين عليه السلام في البدء (أسلوب الصبر والمسالمة) بحسب ما دعت له الظروف والأوضاع آنذاك، وكان هذا الأسلوب حينها هو الأقرب لمصلحة الإسلام ولوضع المسلمين، فهو يقول عليه السلام: «لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا على خاصة»^(٣).

من خلال سنوات الصبر والمسالمة تمكن الإمام عليه السلام من إعطاء صورة واضحة للإسلام في أصالته بعد ما تم إبعاده عن موقع قيادة الأمة وإدارتها، فأخذ الإمام علي عليه السلام يغذي روح الإيمان الصادق لدى أصحابه الخُلُص ممن عرروا الإمامة وتشربوا من معينها الصافي، كما سعى لإصلاح ما أمكن إصلاحه من تجاوزات وانحرافات طرأت على مسيرة الإسلام والأمة من قبل من الولاة، كما ركز كثيراً على حفظ المشروع في الإمامة والخلافة على ضوء ما أوصى به النبي الأكرم عليه وآله وسلامه.

بعدها تولى الإمام عليه السلام أمور المسلمين وجاءت الأمة حينها تصر على الإمام عليه السلام لتسلم الخلافة، بل إنهم أصرّوا وألحوا فقبل الإمام عليه السلام بعد أن امتنع في البدء، فبدء في مشروعه في تقديم النموذج الصالح للحكم، وكانت له مواقفه الحاسمة أمام جبهة النّقاق السياسي (المتسترة بالإسلام) والتي تمثلت في ثلاث فئات هم (فئة المتحجرين الخوارج - فئة المترفين أصحاب المطامع - فئة الحكام المفسدين من آل أمية) وبعد مناشدات عديدة للقوم، وبعد يأس من النّصّح وأخذ قراره من موقع الحاكم الشرعي (بالمواجهة وال الحرب).



كذلك مواقف الإمام الحسن عليه السلام ليست بداعاً ولا شذوذًا كما يصوره البعض، بل هي نفس موقف جده وأبيه عليهم السلام، اللذان مارسا كلاً الأسلوبين (أسلوب المسالمة والمواجهة) بحسب ما دعت إليه الظروف والأوضاع آنذاك، وهنا يحدّثنا التاريخ أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان له الدور الفاعل في معارك أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت له صولات وجولات بطولية في المروء يقتسم الميادين وسوح القتال بكلٍّ بسالة وشجاعة وإقدام، وله الروح الوثابة المضحية كما كان أبوه عليه السلام، كما شارك في حرب الجمل مع أبيه عليه السلام في الصّفوف الأمامية، ويعبأ الجيش للقتال كما في معركة صفين التي كانت في مواجهة معاوية لعنة الله عليه الباكي، يقاتل قتال الأبطال المضحّين الطالبين للشهادة، حتى أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام طلب من أصحابه أن يعنوه وأخاه عليه السلام من القتال كي لا ينقطع نسل الرسول عليه السلام.

الإمام الحسن عليه السلام .. في مواجهة الفتنة

لما استلم الإمام الحسن عليه السلام الإمامة بعد شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وتولى الخلافة وجاءت الناس تباعيده وكان كلّما قصدته جماعة من الناس لتباعيده شرط عليها في البيعة السمع والطاعة، ويحاربون من حارب ويسالمو من سالم، وهو شرط مهم.

كما عمل الإمام عليه السلام على تجهيز الجيش بكلٍّ ما يحتاج من عتاد ومستلزمات لقتال معاوية لعنة الله عليه المتمرد على الخلافة الشرعية، والذي أراد السلطة له، ليمزق كيان المسلمين ووحدتهم..

هنا ناشد الإمام الحسن عليه السلام القوم وحرّضهم مراراً على القتال والمواجهة، ولكن للأسف وجد الإمام عليه السلام منهم طلب الراحة والدّعة عن

المواجهة والقتال، خصوصاً من الجيش الذي يمثل عماد حركة الإمام علي عليه السلام وجهاده، حيث كان الأعمّ الأغلب من المسلمين آنذاك ينظر للإمام الحسن عليه السلام على أنه خليفة كسائر الخلفاء الذين حكموا، وليس بما هو إمام مفترض الطاعة، إضافة لذلك كان المجتمع الكوفي متنوّع المشارب والأطياف، منهم الخوارج ومنهم أصحاب المطامع ومنهم من يجهل موقع الإمامة وغيرهم من المنهزمين، كما كان للأمويين حضورهم المشبوه بين صفوف ذلك المجتمع الممزق والمنهزم، سواء عبر بث الشائعات أو إغراء القيادات بالأموال وغيرها، وهذا لا يعني عدم وجود الصّفوة المخلصة المرتبطة بالإمام علي عليه السلام وإن كانت قليلة بالقياس لجموع ذاك المجتمع.

ذات يوم خرج الإمام الحسن عليه السلام فاعتلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه

ثم قال:

«أَمّا بعْد: فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجَهَادَ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَسَمَّاهُ كُرْهًا ، ثُمَّ قَالَ لِأَهْلِ الْجَهَادِ: اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، فَلَسْتُمْ أَيْهَا النَّاسُ نَائِلِينَ مَا تَحْبُّونَ إِلَّا بِالصَّابَرِ عَلَىٰ مَا تَكْرِهُونَ، إِنَّهُ بِلِغْنِي أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْلَغَهُ أَنَا كُنَّا عَزِيزًا عَلَىٰ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ فَتَحَرَّكَ لِذَلِكَ، اخْرَجُوا رَحْمَكُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَعْسُكَرَكُمْ فِي النَّخْبَةِ حَتَّىٰ نَظَرُ وَتَنْظَرُونَ، وَنَرِى وَتَرُونَ»،
 ولما أنهى عليه السلام خطابه وجم الحاضرون، وأخرست ألسنتهم، واصفرت لوانهم كأنهم قد سيقوا إلى الموت، فلم يجب الإمام أحداً منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام، وحبّهم للسلام، وإيثارهم للعافية، وكان هذا التخاذل في بداية الدّعوة إلى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو إلى التشاؤم واليأس من صلاحهم^(٤).

الخيارات المتاحة أمام الإمام الحسن عليه السلام

بعد أن عمد معاوية لعن الله من خلال خطوات عديدة دسّ من خلتها مجموعة من الدسائس والمؤامرات والحيل والاغتيالات من أجل تزويق القاعدة الشعبية للمجتمع الكوفيّ، كما أرسل العيون والعملاء بالأموال وشراء الضمائر والذمم وعبر بث الشائعات والفووضى، خلق جوًّا من التّقاعس والخذلان بين صفوف الجيش أدّى إلى خيانات عديدة من قبل بعض قيادات الجيش، هنا عاش الإمام الحسن عليه السلام محنّة عظيمة من قبل ذلك المجتمع.

هنا وجد الإمام عليه السلام نفسه أمام واقع مفتك ومهزوم:

- إما أن يواصل خياره العسكريّ والمواجهة مع قلة الناصر وخذلان الجيش ..
- أو يختار التضحية والشهادة ..

وكلا الخيارات وإن كانا مطلوبين للإمام عليه السلام لكن السؤال عن مدى تجاوب ذاك المجتمع؟ وهل يتتحقق بما الأهداف المرجوة؟ أمّا مع الظروف والأوضاع -التي ذكرناها- فستكون النتائج عكسية و النتيجة حتمية بالهزيمة والانكسار للجيش، بل ضياع جهود الشهادة المؤثرة بحيث لا تعطي أثرها المطلوب والمؤثر، خصوصاً في ظلّ واقع ممزق يعيش الوعي الهازي والإرادة المشلولة، و هذا يفرق عن شهادة الإمام الحسين عليه السلام في ظرفها ومسبباتها حيث كان لها الأثر البالغ والمؤثر إلى يومنا هذا، في زمان الإمام الحسين عليه السلام كانت الأزمة أزمة إرادة لا وعي، أمّا في زمان الإمام الحسن عليه السلام فكانت أزمة شكّ وانخفاض وعي و إرادة منهزمة، كما أنّ الإمام

الحسين عليه السلام في ثورته المباركة انطلق من موقع المعارض لا الحاكم فهو أقرب للمظلومية في نظر الناس، بخلاف الإمام الحسن عليه السلام فالناس ربما تدين الإمام عليه السلام.

- هنا أصبح خيار الهدنة (وقف الحرب مؤقتاً) واقعاً حتمياً والدخول في الصلح هو الخيار المتاح، فقد أشاع معاوية لعن الله وأتباعه بين الناس أنَّ الإمام الحسن عليه السلام يطلب الصلح، أراد بذلك أن يثير الفوضى والبلبلة في صفوف جيش الإمام عليه السلام، هنا الإمام عليه السلام انتهز الفرصة ليكشف زيف معاوية لعن الله وألعيبيه، فقبل بالصلح وفق شروطه عليه السلام، وكان معاوية لعن الله يريد من الصلح إخراج الإمام عليه السلام، والإمام الحسن عليه السلام لما دخل الصلح لم يتخلّ عن موقع الإمامة كما يحلو للبعض، بل سلم السلطة التنفيذية بشرط سنأتي على ذكر بنود الصلح لاحقاً - وهنا مسألة هامة لا بد أن نلتفت إليها وهي أنَّ صلح الإمام الحسن عليه السلام لم يكن صلح موادعة وضعف، بل صلح عزة ومن موقع القوة، كما كان النبي الأكرم عليه وآله في صلح الحديبية وأمير المؤمنين عليه السلام في بعض فترات حياته عليه السلام حينما صالحوا، إنما كان موقف العزة الذي حتم وفق الظروف السائدة والمصلحة الشرعية حينما تزاحم بين (المهم والأهم) يقدم الأهم على المهم، وهنا رأى الإمام عليه السلام أنَّ حقن الدماء في تلك الفترة أهم، كما تشير بعض كلماته وليس ما يدعوه البعض من تهم وافتراء من أنَّ الإمام الحسن عليه السلام آثر الحياة والراحة والدعة!!.

الإمام الحسن عليه السلام .. والمواجهة السياسية

بعدما فرض الإمام الحسن عليه السلام شروطه في الصلح مع معاوية لعن الله، انتقل بذلك من المواجهة العسكرية إلى المواجهة السياسية من خلال الصلح،

والّتي هيّأت الظّروف لثورة الإمام الحسين علّيّه المباركة، والإمام علّيّه يعلم بأنّ هذه الشّروط الّتي وضعها لن تصمد مع مرور الوقت، بل أنّ معاویة لعنه الله وسيُنقلب عليها، حينها ستتّكشف الحقيقة أمام الرأي العام ويظهر زيف معاویة لعنه الله وغدره.

وقد اشتملت (معاهدة الصّالح) على خمسة بنود أساسية هي:

١- السّلطة مقيدة ومشروطة

الأول: أن يستلم الأمر (الخلافة) معاویة لعنه الله وي العمل وفق كتاب الله وسنته

٢- التّنازل عن السّلطة التنفيذية مؤقتاً على أن تعود الخلافة إلى أصحابها

الثّاني: أن يكون الأمر بعد للإمام الحسن علّيّه ومن بعده للإمام الحسين علّيّه وليس له أن يعهد ذلك لأحد.

٣- وقف الإعلام المسيء والمغرض والسماح بذكر فضائل علي علّيّه

الثالث: أن يرفع سب أمير المؤمنين علي علّيّه من على المنابر وقنوت الصّلوات وألا يذكر علياً إلا خيراً.

٤- تعزيز الجانب الاقتصادي والمالي

الرّابع: استثناء ما في بيت مال الكوفة وهو خمسة ملايين درهم وتكون بحوزة الإمام الحسن علّيّه، وأن يفضل بنى هاشم في العطاء والصلات على

بني أمية، وأن يفرق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين عليهما السلام يوم الجمل وصفين مليون درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار أبجرد.

٥. تأمين الجانب الاجتماعي والأمني خصوصاً للشيعة

الخامس: الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم وينهم، وأن يأمن الأسود والأحمر، وأن يتحمل معاوية لعنة الله ما صدر من هفواتهم، وألا يتبع أحداً بما مضى، وألا يأخذ أهل العراق بإحنته وحقد، وعلى أمان أصحاب علي عليهما السلام حيث كانوا، وألا ينال أحداً من شيعة علي عليهما السلام بعكروه، وأن أصحاب علي عليهما السلام وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، ألا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقه، وعلى ألا يبغى على الحسن بن علي ولا أخيه الحسين عليهما السلام ولا أحد من أهل بيته الرسول سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

فكتب معاوية لعنة الله جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة والأيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام^(٥).

نقض العهد

سار معاوية لعنة الله حتى نزل بالتخيلة (موقع قرب الكوفة)، وكان ذلك يوم الجمعة فصلّى بالناس ضحى النهار، فخطبهم وقال في خطبته: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتجوّوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأنّي أمرتكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون. ألا وإنّي كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجعلتها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له^(٦).

في الختام.. نقاط مضيئة:

١- قاعدة هامة: فهم مواقف الأئمة الأطهار علیهم السیاسیة والجهادیة، لا بد أن يقوم على أساس مصلحة الإسلام العليا ومصالح الأمة ووحدتها وبالخصوص أتباع مدرستهم الخالص.

وأما الأساليب الجهادية المختلفة فتتنوع بحسب ما تقليله الظروف الزمانية والذهنية العامة في زمانهم، ضمن موازنة ثنائية دقيقة بين (المبدئية والواقعية) وهذا ما يحتاج العاملون الالتفات إليه في مسيرتهم العملية.

٢- تجليات القيادة السياسية عند الإمام الحسن علیه السلام، فهو علیه إضافة لمناقبه الأخلاقية العالية برزت مجموعة صفات أساسية يحتاجها العاملون المخلصون لقضايا الأمة وهم يرثون بمحن اجتماعية صعبة وهي: (الرؤى الحكيمية والثاقبة، الموقف الصابر والشجاع، الحلم وسعة الصدر، الالتزام بالعهود والمواثيق، التضحية في سبيل المبدأ الإلهي).

٣- المكاسب السياسية التي حققها الإمام علیه السلام من خلال الصلح:

(فضح الاعيب الظيفي الأموي (المتنسر بالإسلام) - الحفاظ على عزة الإسلام وأصالته - حماية أتباعه الخالص - تهيئة الظروف والأنصار لثورة الإمام الحسين علیه السلام).

٤- مفهوم السياسية عند الإمام الحسن علیه السلام:

سأل بعض الناس الإمام الحسن علیه السلام عن رأيه في السياسة، فقال علیه ^(٧):

هي أن تراعي حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات.

- فأماماً حقوق الله، فأداء ما طلب، والاجتناب عمّا نهى.

٥ - إضاءات فكرية:

- وأمّا حقوق الأحياء، فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أمّتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمّته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا حادَ عن الطّريق السّويِّ.

- وأمّا حقوق الأموات، فهي أن تذكر خيراتهم، وتتغاضى عن مساوئهم، فإنَّ لهم ربًّا يحاسبهم.

- المفكر الشّهيد الشّيخ مرتضى مطهري قدّس سرّه يقول: لو سُئلنا هل الإسلام دين صلح أم دين حرب؟ فبماذا نجيب؟ فإذا رجعنا إلى القرآن نرى تشريع الحرب كما نرى تشريع الصلح فالآيات التي تدعو للحرب مع الكفار والمشركين كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وغيرها من الآيات كما أن هناك آيات في الصلح كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٨)، وفي آية أخرى: ﴿وَالصَّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٩)، إذن الإسلام دين أيهما؟ الإسلام لا يجعل الصلح قاعدة في كل الظروف كما أنه لا يقبل الحرب دائماً بل هما تابعان للظروف والأهداف والمسلمون سواء كانوا في زمن الرّسول ﷺ أو في زمن أمير المؤمنين علّي عليهما السلام أو في زمن الإمام الحسن علّييهما السلام أو الأئمّة الآخرين علّيهم السلام أو في زماننا ففي كل زمان وعلى أي حال يجب أن يكون سعيهم لتحقيق الهدف وهدفهم الإسلام وحقوق المسلمين يجب أن يأخذوا الظروف والأوضاع بعين الاعتبار، فإن كانوا بالقتال يمكنهم تحقيق الهدف في شكل أفضل فعليهم سلوك هذا الطّريق وإذا رأوا أحياناً أن الهدف يمكن تحقيقه بالصلح بشكل أفضل فعليهم اختيار هذا السّبيل^(١٠).

– السيد القائد الخامنئي عليه السلام: ”لا يخفى أن المصالح تختلف أهمية كما أن مصاديق الجهاد تختلف كذلك، ومن المعلوم عدم إمكان التحديد بالنسبة إلى مراتب الأهمية سواء في المصالح أو في عمليات الجهاد في سبيل الله، وإنما الأمر في ذلك أي: في تشخيص أهمية المصلحة الداعية إلى الهدنة في كل مورد أو أهمية عملية الجهاد المفروض في ذلك المورد، وكذا مراتب الأهمية كلها بيد من إليه أمر الجهاد وبناء على ذلك، أي على فرض وجود مراتب للمصلحة وأن المناط في الانتماء إلى المهادنة في كل مرحلة هو كون المصلحة فيها أهم من العملية الجهادية التي هي موضوع تلك المرحلة، فربما وصلت أهمية الصلح والهدوء مرتبة يحكم معها بوجوبه وعدم جواز التخلف عنه“⁽¹¹⁾.

الهوامش:

- (١) الخصال، الصدق، ص ٢٦٣.
- (٢) المستدرک للحاکم، ج ٣، ص ١٢٢.
- (٣) نهج البلاغة، الخطبة الرابعة والسبعين.
- (٤) أعيان الشیعہ، ج ٤، ص ١٩.
- (٥) صلح الإمام الحسن عليه السلام، الشیخ راضی آل یاسین، ص ٢٥٩ - ٢٦١.
- (٦) الإرشاد، الشیخ المفید، ج ٢، ص ١٤.
- (٧) حیاة الإمام الحسن عليه السلام، الشیخ باقر القرشی، ج ١، ص ١٤٢.
- (٨) سورة الأنفال: ٦١.
- (٩) سورة النساء: ١٢٨.
- (١٠) حیاة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، الشهید مرتضی مطھری قدس سره.

(١١) كتاب الهدنة، الإمام الخامنئي. ويمكن الاستفادة من دراسات قيمة في فهم صلح الإمام الحسن عليه السلام للشيخ راضي آل ياسين، السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله، الشهيد السيد محمد باقر الصدر رض، الشهيد مرتضى مطهرى رض، السيد محمد جواد فضل الله.



التّسامح نهج الحياة

الشّيخ محمد علي الخاتم

الملخص:

بيّن الكاتب في هذه المقالة أهميّة التّسامح في الحياة وتجسيده كسلوك في حياة الأفراد بما يعود على المجتمع بالسعادة في حياة المجتمعات، وأنّ سبب عدد من الابتلاءات هو عدم التّسامح، ثمّ وضح معنى التّسامح وما قد يتواهم أنّه داخل في التّسامح والحال أنّه خارج عنه، ثمّ عطف كلامه بذكر التّسامح في الدين الإسلاميّ بالاستعارة بالقرآن الكريم وروايات أهل البيت ع.

إذا أردت إدراكاً معنى التّسامح فليس لك إلا أن تتممّن في معنى الرحمة والحلم.

والتسامح قيمة من القيم المهمّ التركيز عليها في المجتمع كيما يعيش حالة التّواؤم والالتام فيما بين أفراده، فكثيرة تلك الأفعال في المجتمع المحتاج في حلّها والتعامل معها بأجلّ صور التّسامح فلا يتدرّر المجتمع في فكره وسلوكيه.

وإذا ما فُهم التّسامح وطُبق في الحياة فإنّ ذلك يعني إلغاء الكثير من المشاكل الحاصلة بين الأفراد بل بين المجتمعات والدول، فلن تجد إلا أن يصل

الحق إلى أهله بأمنٍ ورضا من الجميع، ولن يكون عندئذ للحروب والنزاعات والأزمات إلا ذكر في التاريخ.

في هذا البحث نسلط الضوء على هذه القيمة والخلق الرفيع على ضوء الرؤية الإسلامية، وتطبيق الإمام الحسن البصري عليهما السلام لها خلال حياته المباركة، مستفيدين من بعض الأحداث التي جرت في حياته وبعض كلماته حيث إن هذه الصفة تجلت في حياته وبرزت، وهذا لا يعني عدم وجودها عند صاحب الرحمة ومنبع التسامح النبي الأعظم عليهما السلام والأئمة الطاهرون، إلا أن الظروف التي عاشها الإمام الحسن عليهما السلام برزت فيها تحديات عديدة ساهمت في إبراز هذا الأمر، كالكلم الهائل من الدعاء والشائعات التي أطلقت على الأمير والإمام الحسن عليهما السلام بحيث تحولت إلى حالة استفزازية المقصود فيها الإمام وأصحابه، مما أدى إلى وجود حالة التشنّج في المجتمع الخيط بالإمام، مما يجعل بعض الأتباع يعيّب أو قد يعنّف الإمام بشدة اللهجة في الخطاب مع الإمام عليهما السلام^(١) وكان الحلم والتسامح هو سيد الموقف في كل مرة.

ونحن إذ نطرق بحث التسامح لا يعني أثنا في صد تشقيف المجتمع الإسلامي لهذه القيمة لأنها غائبة عنه! بل هذه القيمة موجودة في أبسط بدويّيات المجتمع المسلم في مقدار كبير فيه، لكن لكي يحصل العلم بتتجذرها قرآنًاً وروائيًّاً ويلتفت إلى بعض الجوانب الخفية فيه، ونقف على أن مصدر التوترات ليس انعدام التسامح بل هي أطماع المنحرفين تفرض نفسها على الأئمة، فتفسد باسم الإسلام وما هي إلا ضمن مشروع بعيد المدى، يرمي إلى تشويه الإسلام وزلزلته في نفوس المسلمين، وصرف غير المسلمين من اعتنائه أو اعتباره مرجعية فكريّة يرجعون إليه فيها.

وقد ثبت من اطّلع أنّ حالات التّكفير والتّجرِيم على الهويّة والقتل ما هي إلا نوع من أنواع المروّب التي تشنّها دول على أخرى في عالمنا الإسلامي فتستخدم هذه كأدوات تتخلّى عنها إذا ما تحقّق الغرض منها، وللأسف الشّدّيد أنّ هذا العنوان البراق يستخدم أحياناً لخلط بعض المفاهيم وتجريم الإسلام بصورة غير مباشرة.

معنى التّسامح:

هي مشتقة من "مادة (سمح)" تدل على سلامة وسهولة. والمسامحة: المساهلة، وسمح بكتّاب يسمح سُمُحاً وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق على ما أريد منه^(٢) ومنه يقال فلان صاحب سماحة، أي أنه صاحب عطاء وجود وسهل في التعامل معه وسهل في أموره، وهذا الصنف من الناس -المتسامح- مذكور في الروايات -كما سيُوضح خلال البحث- كما عن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ في الرواية المعتبرة عن آبائه قال: «قال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِمَنْ يَحْرِمُ عَلَيْهِ النَّارَ غَدَّاً، قَالُوا: بَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ». قال: الْهَيْنَ الْقَرِيبُ الَّذِينَ السَّهْلُ»^(٣) ولا شك في أن التسامح يتضمن في واقعه مزيجاً من الأخلاق الرفيعة التي تؤهل المتسامح أن يغضّ الطرف عن أخطاء الآخرين، ويتجاوز عن إساءاتهم مع تقديره بطريقة الرد المناسب فيما إذا تطلب الموقف الإجزاء على سوء الفعل، وهو مع هذا لا يخرج عن حالة التسامح فلا يسعه إلّا أن يرد على الإساءة بالإحسان ولو بأخف صور الانتقام والعقاب، وما الحلم إلّا صورة من صورة التسامح حيث عبر الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ عنه بآثره: «كظم الغيط وملك النفس»^(٤) عندما سُئل عن معنى الحلم، فالتسامح لا بدّ من حضوره في مثل موقف إثارة النفس وإغضابها بارتكاب السلوكيات غير

المرضية، فيحتاج إلى ملك النفس والتحكم فيها كي يحسن التصرف المناسب مع الموقف، ولا يخفى أنّ الغضب يدمر إذا ما ترك بلا توجيه وتفريغ بالصورة الصّحيحة^(٥).

ولا يقف مفهوم التّسامح عند التجاوز عن أخطاء الآخرين أو معالجتها بأخفّ الوسائل التي يراعي فيها كرامة المسيء، بل يتعدّى ذلك فيما إذا أضفنا التّسامح إلى الدين (التسامح الديني) فيعني قبول الطرف الآخر وعدم إلقاءه من دائرة الحياة، فمن لم يختبر دين الإسلام فإنّ الإسلام يكفل له حقوقه ويرعاها حتى لو كان في ظلّ الدولة الإسلامية شريطة أن لا يتعدّى على الإسلام وأهله أي أن يبادر الإحسان بالإحسان، وكذا إذا أضفنا التّسامح إلى السياسة (التسامح السياسي) فيعني احترام الآراء الأخرى والأحزاب المختلفة، وأن يكون الجميع له حقّ المشاركة في القرار حتى لو كان هذا البعض أقلّية، وهذا النّحو من التّسامح يبرز كلّما نشب نزاع بين سلطة وشعب أو شعوب مختلفة أو أحزاب كذلك بغية التخلّص من ذلك النّزاع.

والتسامح ليس مجرد أقوال بعيدة عن الإيمان به واقعاً، فمن يدعّي أنه إنسان متسامح وفي قلبه حقد ونار تغلي على المسيء فإنّ هذا لا يجامع التّسامح بحال. وكذا لا يكون المتسامح متسامحاً في حال ضعفه وإذا تزايدت قوّته انقلب حاله إلى عدم التّسامح! بل القويّ هو المطلوب منه أن تبرز فيه هذه السّمة.

والتسامح يحمل معنى القبول للأخر وإعطائه حقّه في العيش الكريم مهما كان لونه وعرقه ودينه وانتماوه، فلا إقصاء ولا إلغاء.

تنبيه:

قد تستخدمن مفردة التّسامح وما معناها في الاتفاقيات الدوليّة في ما يتعلّق بقبول رأي الآخر وإلغاء التّمييز ضدّ المرأة وإبادة الجنس البشري ومناهضة التّعذيب، وحقوق اللاجئين، وفيما يتعلّق بكلّ أشكال التّعصب والتّمييز القائم على أساس الدين أو المعتقد^(٦) وما إلى ذلك... ولا يخفى أنّ هذا الاستخدام جاء كردّ فعل على تسلّط الكنيسة آنذاك، وتسلّط أصحاب الأطماء من التجار والأقطاعيين ورؤساء الدول الذين لا يعيرون أيّ اعتبار للقيم الأخلاقية والدينية ما دامت لا تخدم مصالحهم، فترويج هذه المفردة من قبلهم أو من قبل من أطاح بهم لا يخلو من التّهمة في نية هؤلاء المروّجين لها لأنّهم -منذ أن أطلقوا شعار التّسامح في اتفاقياتهم وحتى يومنا هذا- يخالفون كلّ ما فيه من احترام الإنسان وحقوقه، ولا زالوا يتسلّطون على الشّعوب المستضعفة والأقلّيات ويسيّاهمون بصورة أساسية في نشر الإرهاب بكلّ صورة^(٧).

كما أنّ انتشار هذه المفردة في كلماتهم وبعض الاتفاقيات العالميّة إنّ انتهاء الحرب العالميّة الثانية قد يوحى أسبقيّتهم على الإسلام في ذلك، والحقّ أنّ التّسامح موجود في الفقه الإسلاميّ منذ إرسال النبي عليه السلام بهذه الرّسالة الحاقّة.

خلطُ:

* ولا ينبغي أن يفهم من التّسامح أنّه انبطاح للمخطىء وتسليميه الأمور كما يفعل ما يشاء. ولا يفهم من التّسامح أن نغضّ الطرف عن التاريخ السيء الذي قد يوجد البعض، فالّتوبه شيء والصفح عنه شيء وإلغاء

تاریخه -الذی أدى إلى أن تتجذر في خلقه بعض الصّفات السّيّئة- فیتعامل معه بلا حذر بحجّة التّسامح شيء! وهذا لا يعني إبقاء التّاريخ وحفظ الزّلات وإظهارها متى ما وجد خلاف بين الأشخاص فهذا مما فيه ذم شديد في الروايات^(٨).

* ولا ينبغي أن يفهم من التّسامح أنه إتاحة الفرصة لكل أحد أن يفعل ما يشاء وقت ما يشاء كيف ما يشاء ما لم يستند على أمور عقلائيّة.. وعلى هذا فالتسامح يعني احترام تديّن الآخرين الذين ينتسبون إلى ديانات سماویّة -وهذا لا يعني صحة اعتقادهم- ويケفل لهم ممارسة ما يتواافق مع ديانتهم وفق ضوابط وأطر لا تُخرج ظاهر الدولة الإسلاميّة عن ذلك. وفي نفس الوقت عدم السّماح لأصحاب الممارسات التي لا تمت إلى دين أو عقل بأيّ صلة بمارستها فضلاً عن نشرها...، فالتسامح لا يعني الفوضى في الحياة! إذ إنّ في دعوى التّسامح بمعنى "قبول الرأي الآخر، وإن تناقض مع رأي الجماعة، خصوصاً وأنّه حاجة ماسّة وليس ترفاً فكريّاً، فنقضه هو الالتسامح أي التّعصب ورفض الآخر"^(٩) لأنّ هذا يفسح المجال للهرج والمرج كما لا يخفى، فيكون رأي الجاهل -في ما يتحدث فيه- ورأي العالم كلاهما محترم بحجّة التّسامح! فهذا وأمثاله لوازم فاسدة مثل هذا الأمر. ولا شكّ في أنّ إسكات الجاهل لا يعتبر استبداداً في الرأي أو مصادرة للرأي الآخر، نعم صاحب الرأي المعتمد على أسس عقلائيّة من الممكن أن يطرح رأيه باحترام على طاولة النقاش ما لم يتتصادم مع بدويّيات العقل والشرع الإسلاميّ.

* ومن الخطأ جدًا أن يقال بأنّ الديانات تعلن التسامح مبدأً أساسياً إلا أنّ الحروب قائمة على مرّ التاريخ! فإنّ في هذا تجنبًا على الديانات بما هي ديانات وتحميلها ما يفعله الناس -حتى من لا ينتمون إليها- من أخطاء وافتعال للحروب وسلب حقوق الآخرين.

* من الخطأ أن نجعل مبدأ التسامح قائماً على ما يقال من (أنّ قوله خطأ يتحمل الصواب، وقولي صواب يتحمل الخطأ) فلازم هذا هو نسبية المعرفة وهذه مما لا يمكن التسليم بها^(١٠).

من الخطأ توصيف التسامح على أنه الوجه الآخر للحرية، فما دام مصطلح الحرية غير محدد، وله المعنى السلبي في الغالب من أن يمارس الشخص ما يشاء وقت ما يشاء كيف ما يشاء شريطة أن لا يؤذи الآخرين -بنظره على أقل تقدير- وهذا خلط بين إذ إن التسامح له بعد آخر مختلف عن الحرية المدعاة، مضافاً إلى جعل المحورية في الحياة هي الإنسان وليس الله! والتسامح يجعل أساس التعاطي مع الآخرين هو ما يريده الله وكذا مقدار الصفح عنهم والتجاوز عن أخطائهم لا بدّ من أن يكون مبنياً على ما يريد الله لا ما يريد الإنسان.

وأضف إلى ما ذكر -من أن إطلاق العنوان لتوصيف التسامح بأنه الوجه الآخر للحرية- أنّ هذا يعني الفوضى حيث لا توجد ضوابط لهذا التسامح أو الحرية، فهناك من لا يعتمد التسامح أو يتجاوز المحدود ولو ببث الأفكار المنحرفة في المجتمع، فهل يترك هكذا بدعاوى التسامح! لا شكّ بأنّ المروجين لهذا المبدأ من غير المسلمين فإنّهم عملياً يجعلون الضوابط الصارمة إلا أنّهم فكريّاً لا ينظرون إلى حالة التسامح بهذا الحدّ.

فرق بين التسامح واللامبالاة:

عندما يكون الفرد في موقع القوّة ويتجاوز عن إساءات الآخر أو أخطائه التي لا تتعدي نفس الفرد فهذا من أبرز مظاهر التسامح، لكن:

-عندما يكون الفرد في حالة قوّة ويتجاوز عن إساءات الآخرين تجاه غيره بحجّة التسامح فهذه لا مبالاة بل قد يكون إعانته له على فعله.

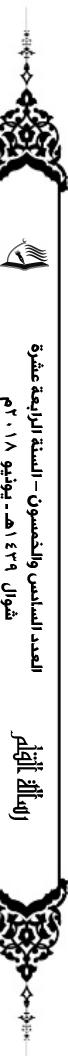
-وعندما يكون الفرد ضعيفاً ويتجاوز عن الإساءات تجاه الآخرين أو التي تتعلق به ظلماً بحجّة التسامح فهذا لا مبالاة^(١) بل هو تعاون مع الوحش والظلمة بسذاجة أو تلقى على أمل النجاة - على هلاك النفس وإهلاك الغير.

-وعندما يتخلى الفرد عن معتقداته أو يتهاون في أمرها كي ينخرط مع الآخرين في سلوكياتهم بلا قيود بحجّة التسامح فهذا لا مبالاة.

التسامح في الإسلام:

لا يخفى على منصف مقدار ما في الإسلام من حالة التسامح وقبول الآخر، بل التضحية بالنفس في سبيل إنقاذ الآخر، وكفالة حقوق الآخرين ليس في حال حياتهم فحسب بل حتى في حال مماتهم فلهم حقوق لا تضيع. ولتتضّح الصورة ما عليك إلا أن تشاهد كتب الخمس والزكوة والغضب والدّيّات والإجارة وغيرها ليتضّح عندك مقدار ما للنظام المالي في الإسلام من دقة في توزيع الأموال والحقوق لجميع الناس بلا ظلم.

وانظر في كتاب القضاء وإحياء الموات، والرّق والنّكاح وأمثالها لتعرف مقدار ما أولى الدين إلى حقوق البشر من أهميّة واعتبار.



وانظر في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكتاب الجهاد؛
لتعرف كيف يتعامل مع الرأي الآخر ومقدار الحساسية في شأن الأرواح
والدماء، بل حتى المشاعر المتشلّة في كسر الإنسان وتحقيره ولو أمّا فرد
واحد.

ويتعدّى التسامح في الإسلام جانب الحقوق ليصل إلى دائرة الاعتقاد فلا
يصدر اعتقدات الآخرين، ولا يكرههم على ترك معتقداتهم بل يسمح لهم
باليعيش بين المسلمين في الدولة الإسلامية وهم ما للمسلمين وعليهم ما على
المسلمين شريطة الالتزام ببعض العهود^(١٢).

أولاً: التسامح في القرآن

ورد في القرآن آيات عديدة تشير إلى هذا المبدأ المهم ولعلّ من أهمّ
هذه الآيات -ونكتفي بها في هذا البحث- هي قوله تعالى: «**خُذِ الْعَفْوَ**
وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَغْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»^(١٣)، فهذه الآية فيها طلب منه تعالى
إلى النبي ﷺ وكلّ من يقوم مقامه من القادة والمبلغين بأن يأخذوا
بالعفو الذي هو يعني التسامح والصفح عن المخطئين والاستسهال في
الأمور واللين، وبعد هذا التسامح يطلب منه أن يأمر بالمعروف فيدعوا
الناس إلى الحقّ ولا يخفى شيئاً، وأماماً أولئك الجهلة وأصحاب الانحطاط
الفكريّ ومن لا يتخلّقون بالأخلاق الكريمة فلكي يصل إلى معالجة
جهل هذه الفئة فإنّ الأسلوب الأمثل هو الإعراض عنهم^(١٤)، وقد ورد
في الخبر عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية جاء جبرائيل إلى
النبي ﷺ وقال في تفسير العفو: «**تَعْفُو عَمَّنْ ظلمَكَ، وَتَصْلُّ مِنْ قَطْعَكَ،**
وَتَعْطِي مِنْ حَرْمَكَ»^(١٥).

وهناك آيات أخرى في هذا المجال فمثلاً قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِئَلَّا هُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِيلَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾^(١٦)، و﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١٧)، و﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١٨) والقرآن مليء بنظائر هذه الآيات.

ثانياً: التسامح في الروايات

وهنا نسلط الضوء على حياة الإمام الحسن الرازي عليه السلام وكيف كانت هذه الصفة بارزة في حياته بذكر عدد من المواقف وكيفية التعامل معها وهذه المواقف لم تقتصر على الاستفزازات في الحالات الفردية، وهذا نموذج من هذه الاستفزازات:

١- ما ورد من أن أحد غلمانه كسر رجل شاة كان الإمام عليه السلام يilkها، فقال لغلامه: «من فعل هذا بها؟» قال الغلام: أنا. قال الإمام: «لم ذلك؟» قال الغلام: لأجلب لك الهم والغم. فتبسم، وقال له: «لأسررك»، فأعتقه وأجزل له في العطاء^(١٩).

٢- ما روی في قصة الشامي الذي تعامل مع الإمام بغلظة وسوء خلق وقابله الإمام برحابة صدر وصفح عن هذ السوء، حتى لاطفه فحار الشامي وخجل من فعله إلى أن بكى وقال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته و كنت وأبوك أبغض خلق الله إلى والآن أنت أحب خلق الله إلى.. وصار معتقداً لمحبتهم^(٢٠).

ما ورد على لسان بعض أصحاب الإمام وغيرهم من عبارات مثل: "أما والله لو ددت أنك مت في ذلك اليوم ومتنا معك"^(٢١) فلم يرد عليه الإمام ولم

يوضح له الأمر إلا بعد أن احتلى به فقال له موضحاً: «يا حجر! قد سمعت كلامك في مجلس معاوية وليس كلّ إنسان يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كرأيك وإنّي لم أفعل ما فعلت إلا إبقاء عليكم والله تعالى كلّ يوم هو في شأن»، وأخرجتنا من العدل إلى الجور^(٢٢)، «السلام عليك يا مذلّ المؤمنين»^(٢٣)، و«يا بن رسول الله أذللت رقابنا، وجعلتنا عشر الشيعة عبيداً، ما بقي معك رجل». قال: «ومم ذلك؟» قال: بتسليمه الأمّر لهذا الطاغية^(٢٤). وغيرها

ولك أن تقف مستفهماً عن سبب ردّ الفعل من الإمام في تسامحه، ليتبّعْضَهُ أن تسامح الإمام نابع من شدّة الحكمة التي بلغها، ويكشف عن ضرورة أن يكون التسامح سيد الموقف، وذلك عندما تبرز الصورة الكلية للحدث فإنّ التسامح يقدّر نوع ومستوى التسامح ولذا قيل: «إنّ مما يساعد على اتخاذ الموقف الحليم فهم الطرف المقابل ومعرفة الطرف النفسي، والفكري الذي يحيط به، فإذا فهمت أنه مضلّ، أو معيناً وأنّه هو الآخر ضحية لعدو واحد، كنت أقدر على السيطرة على الموقف وتحويله لصالحك لا لصالح عدو كما»^(٢٥).

خاتمة:

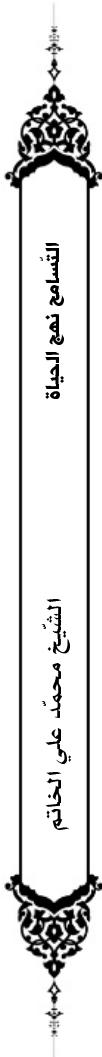
لكي يصل الواحد منا إلى المستوى الرّاقِي من التسامح ويطبق هذه القيمة الرّاقِية تطبيقاً صحيحاً ودقيقاً فإنه في حاجة ماسّة من إلى رفع مستوى الفهم والإدراك للأشياء حوله فقد ورد "بوفرة العقل يتوفّر العلم" فالمدرك لما حوله يتلّك قدرة على تفهم سلبيّات الغير أفراداً كانوا أو جماعات.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

- (١) من قبيل العبارات المعروفة مثل: «أخرجتنا من العدل إلى الجور، يا مذل المؤمنين، يا عار المؤمنين، أذلت رقابنا، لوددت أنك مت في ذلك اليوم ومتنا معك».
- (٢) اطلع عليه بتاريخ ٤/٤/٢٠١٨م <https://dxrar.net/akhlaq/673>
- (٣) الأمالي، الصّدوق، ص ٢٦٢، المجلس الثاني والخمسون، ح ٥.
- (٤) تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، ابن شعبة الحراّني، ص ٢٢٥. ووردت نفس الرواية وأمثالها عن الإمام الحسن المجتبى عٰلِيٰهِ الْكَاظِمِيُّهُ وغيره من الأئمة عٰلِيٰهِ الْكَاظِمِيُّهُ بنفس التص مما يعني وجود التأكيد الدائم في الإسلام على مثل هذا المبدأ.
- (٥) ورد في مستدرك الوسائل، للميرزا النوري، ج ١٢، ص ١١، عن أمير المؤمنين عٰلِيٰهِ الْكَاظِمِيُّهُ: «الغضب شر إن أطلقته دمر».
- (٦) في مفهوم التسامح وإشكالات، أ. عبد الحسين شعبان، ص ٣ - ٤.
- (٧) يكفي أن تعود للتّاريّخ القريب لتعرّف المراد، فراجع مجازر البوسنة والهرسك والشيشان ومجازر فلسطين، ومن قبلها ما فعله هتلر قُبيل الحرب العالمية الثانية وغيرها، وكذا ما حصل في سجون غوانتنامو وغيرها فهذه إدارتها لا تعرف الإسلام ولا الدين! والأمثلة على ذلك كثيرة ليس المقام حصرها.
- (٨) كما ورد في الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٣٥٨، باب الرواية على مؤمن، ح ١. عن الإمام الصادق عٰلِيٰهِ الْكَاظِمِيُّهُ: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروعه ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولائه إلى ولادة الشيطان، فلا يقبله الشيطان» وغيرها من الروايات.
- (٩) في مفهوم التسامح وإشكالات، أ. عبد الحسين شعبان، ص ٢.
- (١٠) للمزيد من الاطلاع على هذا الأمر انظر: فلسفتنا، السيد محمد باقر الصدر، ص ١٢٥.





(١١) والأمثلة على ذلك كثيرة، يكفي الإشارة إلى أطفال فلسطين ومقدار المعاناة التي يعيشونها من قتل وتشريد وسجن برأي الجميع، وبطاعنا البعض بضرورة الانفتاح مع الصهابية بحجّة التسامح والتعايش.

(١٢) ومنها عند التبشير إلى معتقداتهم -مع كفالة حقّهم في ممارسة عبادتهم بما ثبت عندهم- والالتزام بقوانيين الدولة الإسلامية فلا يمارسون حلالاً عندهم جهاراً وهو حرام في الإسلام، وهكذا.

(١٣) سورة الأعراف: ١٩٩.

(١٤) تفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم، ج ٤، ص ٦٠٧ في تفسير الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(١٥) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٧٢، ص ٢٤٤.

(١٦) سورة آل عمران: ١٥٩.

(١٧) سورة الفرقان: ٦٣.

(١٨) سورة النحل: ١٢٥.

(١٩) حياة الإمام الحسن عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشي، ج ١، ص ٢١٤. نقلًا عن:
<http://www.erfan.ir/arabic/87932.html>

(٢٠) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٣٤٤.

(٢١) وردت على لسان حجر بن عدي. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٩٧.

(٢٢) الأخبار الطوال، ابن قتيبة الدينوري، ص ٢٢٠.

(٢٣) مقاتل الطالبيين، أبي الفرج الأصفهاني، ص ٤٤.

(٢٤) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج ٢، ص ١٢.

(٢٥) اطلع عليه بتاريخ <https://www.saffar.xrg/?act=artc&id=702> ٢٠١٨-٤-٦.

إشكالية التهافت بين موقف

الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام

الشيخ حسن علي طلاق

الملخص:

عمد الكاتب في هذه المقالة إلى علاج إشكالية وهي: هل أن بين موقف الحسينين عليهما السلام تهافت واضطراب؟ فال الأول منها صالح والآخر قد واجه، وكلاهما قد استشهد نتيجة هذا التعاطي مع البيت الأموي، ومن هنا قد أكثر الكتاب نقداً وتحليلاً باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم بين مخالف ومؤالف؛ لتداول هذه الإشكالية، وقد وُظفت المناهج التاريخية لدراستها بشكل كبير.

والباحث هنا يستعرض أهم تلك المناهج ومدى صلاحيتها لعلاج جذر المشكلة والوقوف على أهم الأسباب الداعية للصلح والأخرى الموجبة للمواجهة. ومن ثم يقدم أحد تلك المناهج ويرجحه على الأخرى لتمكنه من إيجاد جواب يتناسب مع حجم هذه الإشكالية وحل دعوى التصادم والتهافت بين الموقفين، مع لفت النظر إلى أن تلك المناهج الأخرى تؤدي دورها الإيجابي وتعين المنهج المختار في جانب من جوانبه وهو المنهج (الشمولي التحليلي) أو ما يطلق عليه (بالمنهج الترابطي) الذي ارتأه الكاتب كحلٌّ مثل هذه الإشكاليات.

مقدمة:

مرّ التاريخ الإسلامي بمنعطفات كثيرة بعد رحيل رسول الله ﷺ. ومن أهم تلك المنعطفات التي ألت بظلاها على واقع الأمة هو صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية لعنة الله، وحرب الإمام الحسين عليه السلام مع يزيد.

وشكّل كل من صلح الإمام الحسن عليه السلام وحرب الإمام الحسين عليه السلام حركة تصحيحية لواقع الأمة وما اعتبرها من انحراف استهدفتها في كيانها وعقيدتها.

ولكن مع الأسف الشديد، ابتليت حركة كلٍ من الإمام الحسن والحسين عليهما السلام بجموعة من الإثارات بعيدة كل البعد عن الموضوعية والإنصاف. وأشد ما كان، هو ما أبْتلى به الإمام الحسن عليه السلام من تحريف لتاريخه المجاهدي، بل يتمادى في تشويه نفسيته وشخصيته المباركة.

والكلام يقع في بيان إشكالية التهافت التي نسبها البعض ل موقف الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام؛ وذلك ببيان ذكر الطرق المختلفة لمعالجة هذه الإشكالية، والوقوف على المنهج الصحيح لقراءة تاريخ الأئمة وتفسير حركتهم، انتهاءً بذكر الأسباب التي دعت الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية لعنة الله، وموقف الإمام الحسين عليه السلام من صلح الإمام الحسن عليه السلام، وهل رفض الإمام الحسين عليه السلام صلح الإمام الحسن عليه السلام كما صوره البعض أم لا.

إشكال التهافت:

أليس في موقف كلٍ من الإمام الحسن والحسين عليهما السلام نوع من أنواع التناقض وعدم التوافق في كلا المنهجين، فأحدهما صالح البيت الأموي

والآخر حارب، فما الداعي إلى هذا الاختلاف في التعامل؟

فهل هناك تهافت فعلاً، أم أن المشروع واحد والمنهجية مختلفة لاختلاف عنصر الوقت والظروف الموضوعية التي حتمت على كل من الإمامين عليهما السلام اتخاذ موقف مغاير؟

والوقوف أمام معالجة هذه الإشكالية قد يكون بثلاثة طرق:

الطريق الأول: يتم عبر إثبات إمامية كل من الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وذلك عبر الروايات المتواترة، والأدلة العقلية في هذا المقام، وإثبات عصمتهم عليهما السلام، وبذلك يتضح سلامه موقف كل من الإمام الحسن والحسين عليهما السلام.

وهذا الطريق وإن كان طريقاً ناجعاً ومثمراً في بيان صوابية موقف كل من الإمام الحسن عليهما السلام والإمام الحسين عليهما السلام، إلا أنه لا يتكفل بدراسة العناصر المؤثرة في اتخاذ موقف كل من الإمامين، ولا يقف على الظروف والملابسات الموضوعية التي أدت للاختلاف في الموقف.

الطريق الثاني: وهذا الطريق يعتمد اعتماداً كاملاً على دراسة موقف كل من الإمام الحسن والحسين عليهما السلام دراسة موضوعية بغض النظر عن ذواتهم ومقاماتهم.

وهذا الطريق بعيد كل البعد عن الموضوعية، لأن شخصيات أهل البيت عليهما السلام لم تكن شخصيات عادية، وإنما كانوا عدلاً القرآن بنص حديث الشقلين، وقد أمرنا النبي عليهما السلام بالتمسك بهم والأخذ بجزتهم. ثانياً: إن القائد هو أحد أهم العناصر المهمة لدراسة أي واقعة لما له من مدخلية في تحديد المنطلقات وسلامتها.

الطريق الثالث: وهو الطريق الذي سنتبعه في هذه المقالة، وهو الدراسة التي تقوم على أساس وتحليلٍ موضوعي من غير استبعاد لما يحتملُ الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام من دور وشخصية في كيان الأمة الإسلامية.

وهذا الطريق، هو الطريق القادر على حلّ هذا النوع من الإشكاليات التي تدعي التهافت في موقف الأئمة عليهم السلام، لما يشكله من دراسة شاملة مترابطة لمشروع الأئمة عليهم السلام.

والكلام حول هذه الإشكالية يقع في ثلات نقاط:

النقطة الأولى: منهج دراسة وقراءة حياة الأئمة عليهم السلام، بما هو موقف الصحيح لقراءة ودراسة حياة الأئمة عليهم السلام؟

النقطة الثانية: ما هي أهداف الأئمة عليهم السلام؟

النقطة الثالثة: أسباب الصلح واختلاف أسلوب الإمام الحسن عن الإمام الحسين عليهما السلام.

النقطة الرابعة: هل كان موقف الإمام الحسن عليه السلام مخالفًا لموقف الإمام الحسن عليه السلام كما يصوّره بعض من كتب في التاريخ أم لا؟

النقطة الأولى: المناهج التاريخية:

تعددت المناهج لدراسة سيرة الأئمة عليهم السلام، ونستطيع أن نستقرّ لها كالتالي:

المنهج (التجزئي السردي):

يستعرض هذا المنهج سيرتهم من ناحية تواریخ الولادة والوفاة،

ومواقفهم وكلماتهم وفضائلهم، وهذا نلحظه في كثير من الكتب التي أَلْفَت
وفق هذا المنهج.

ولا شكّ أن هذا المنهج يشكّل حلقة أولى من حلقات دراسة حياة
الأئمة، وله مجموعة من المصادص:

- ١- يُقدّم لنا بطاقة تعريفية عن الأئمة، وهذا لا توفره المناهج الأخرى، وهذا مطلوب لإثبات تشخيص الإمامة على مستوى المصدق، فمن هو الإمام، وما هو اسمه، وأين ولد، ومتى توفي. ولو لا هذا المنهج، لأنكر الكثيرون وجود الأئمة كما حدث في إنكارهم لوجود الإمام المهدي عليه السلام.
- ٢- يُقدّم لنا القدوة الحسنة في مجال التطبيق العملي، فيرسم للأئمة منهجاً في التعامل مع الأمور العبادية والسلوكية الأخلاقية والاجتماعية.

٣- يُبيّن لنا خصائص الأئمة وفضائلهم النفسية وكراماتهم التي لها الأثر الكبير في إشعال جذوة حبهم في النفوس والاقتداء بهم.

٤- يشكّل مرحلةً أوليةً من مراحل الدراسة الكلية، فإن كثيراً من مواقفهم وأخلاقهم وسماتهم لها مدخلية في فهم أهدافهم وحركتهم.

وهذا المنهج وإن كان مطلوباً ومفيداً، إلا أنه لا يقدّم لنا تحليلاً واضحاً لمواقفهم عليهم السلام. إضافة لعدم قدرته على دراسة حياة الأئمة كمشروع واحد.

المنهج (التجزيئي التحليلي):

ويقوم هذا المنهج على دراسة حياة كل إمام بشكل مستقل بعيداً عن القاسم المشترك فيما بينهم، فيدرس حياة كل إمام، ويحلّل مواقفه وأهدافه التي انطلق منها في كل حادثة، بعيداً عن النظر لحياة الأئمة الآخرين عليهم السلام.

وهذا المنهج أيضاً مطلوب بشكل كبير؛ لأنَّه يجعلنا نحيط بعوائق كل إمام وظروفه الزمانية والمكانية، ويجعل الدراسة أكثر استقصاء ودقةً.

ولكن هذا المنهج قاصر عن النظر لحياة الأئمة عليهم السلام كمشروع متكمال، تتكامل فيه الجهود للوصول للأهداف الأساسية التي كان الأئمة عليهم السلام يصبون إليها. ولكن تتبَّع ضرورة هذا المنهج من أنه يشكّل حلقة أخرى من حلقات المنهج المتكمال.

المنهج (الشمولي التحليلي) أو ما يطلق عليه بـ (المنهج الترابطي):

وهو أن يُنظر لحركة الأئمة خلال عمرهم المبارك، كمشروع متكمال، تعددت سُبُلُه وأدواته واتَّحدت أهدافه وغاياته.

فندرس حياة كل إمام، لكن ندرسه كجزء من مشروع متكمال، بدأت معالمه في حياة أمير المؤمنين عليه السلام إلى حياة صاحب العصر والزمان عليه السلام.

وهذا المنهج يُقدِّم لنا:

تفسيرًا شاملًاً لعوائق جميع الأئمة عليهم السلام وفهمًاً مترابطًاً، نستطيع من خلاله حلّ هذه الإشكالات التي تدعُّى وجود تهافت في موقف الأئمة عليهم السلام.

فنعرف لماذا حارب الحسين عليه السلام، ولماذا صالح الحسن عليه السلام، ولماذا اخْذَ الإمام السجاد عليه السلام أسلوب الدعاء في مواجهة المشروع الأموي لتمييع العالم الإسلامي بالفجور والغنا، ولماذا اخْذَ الإمام الصادق عليه السلام أسلوب العلم وتخرِّيج الفقهاء والعلماء، ولماذا اخْذَ الإمام الكاظم عليه السلام أسلوب المواجهة مع هارون، ولماذا قبل الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد. هذا المنهج كفيل ببيان حياة الأئمة عليهم السلام كمشروع متكمال، أراد منه الأئمة عليهم السلام أهدافاً استراتيجيةً

بعيدة المدى، ولكن اختلفوا في الأسلوب بلحاظ اختلاف الزمان والمكان والظروف الموضوعية.

والبحث عن وجود دور مشترك للأئمة عليهم السلام ليس نابعاً من افتراضات نفترضها لنبرر مواقف الأئمة التاريخية، وإنما هو مما تفرضه أصل مسألة الإمامية التي جعلها الله تعالى حصنًا حصيناً للأمة، وامتداداً طبيعياً لمسألة الرسالة والنبوة^(١). فإن الإمامة أُنيطت بها مسؤولية قيادة الأمة فكريّاً وسلوكياً واجتماعياً وقرآنياً وإن أبعدوا عن الخلافة السياسية التي كانت حقاً لهم ومن وظائفهم.

وإناطة هذه المسؤولية الحساسة تستدعي أن يسير الأئمة عليهم السلام وفق برنامج ثابت الخطى، تتبدل فيه المواقف بتبدل التحديات للحفاظ على الهدف الأساسي الأسماى وهو حفظ الشريعة والدين.

و قبل الدخول في معرفة أسباب وظروف صلح الإمام الحسن عليه السلام، لا بدّ من معرفة أهداف الأئمة عليهم السلام، لما لها من مدخلية في تحديد مواقفهم واختلاف مناهجهم.

النقطة الثانية: أهداف الأئمة:

إن أهم هدف حرص الأئمة عليهم السلام أن يبذلوا بإزاءه الغالي والنفيس هو:

١- الحفاظ على الرسالة الإسلامية ومصالح الأمة، وتحصينها ضدّ الانحراف عن مبادئها وقيمها، وحفظ الإسلام على المستوى النظري سليماً من أي تحرير.

٢- صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الإلهي وتكريم الإنسان.

لذلك؛ من فسر مواقف الأئمة بالتناقض والتهافت، وجعل محورية حركة الأئمة عليهما السلام منوطبة بمسألة الخلافة قد أخطأ خطأً منهاجيًّا واضحًا، وذلك: أنَّ الأئمة عليهما السلام اعتبروا الحكومة أدَّاءً لبناء المجتمع على أسسه الدينية، ولن يستهدفًا وغايةً، فلم تكن الحكومة في حدٍّ نفسها هدفًا مقصودًا، وإنما وسيلة لتحقيق الهدف الأكبر وحقٌّ سخت عليه نفوس قوم.

وهذا ما نتلقّسه من كلمات أمير المؤمنين عليهما السلام في نظره لمسألة الخلافة:

الكلمة الأولى: قالها عليهما السلام عندما زُوِّيت الخلافة عنه:

- «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللهُ لَا سُلِّمَنَّ مَا سَلِّمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَمَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ حَاصَّةُ التَّهَاشَأَ لِأَجْرٍ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَرُهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ رُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»^(٢).

الكلمة الثانية: قالها عليهما السلام عندما وصلت الخلافة إليه إلقاءً للحجّة:

- «دَعُونِي وَالْتَّمِسُوا غَيْرِي فَإِنَا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَبُوتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ»^(٣).

الكلمة الثالثة: قالها عليهما السلام بعد أن وصلت إليه الخلافة:

- «أَمَا وَالَّذِي فَاقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارِرُوا عَلَى كِظَةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَا لَقِيتُ حَبْيَاهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأسِ أَوَّلِهَا وَلَا لَفَيْتُ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْدَةِ عَنْزٍ»^(٤).

- وقال لابن عباس بذري قارٍ وهو يُحصِّفُ نَعْلَهُ: «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟»

فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا، فَقَالَ عَلِيًّا: «وَاللَّهِ لَهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَاتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»^(٥).

فلم يكن مشروع الأئمة علیهم السلام هو الحصول على الخلافة الظاهرية، وإنما كان مشروعهم الذي بذلوا فيه أنفسهم الشريفة هو حفظ الدين وتقويم الواقع في هذه الأمة.

النقطة الثالثة: أسباب الصلح وال الحرب:

نتعرّض فيها للظروف التي أدّت إلى صلح الإمام الحسن عليه السلام مع البيت الأموي ونستعرض فترة الستة شهور، التي حكم فيها الإمام الحسن عليه السلام وما رافقها من أحداث أليمة، والظروف التي أحاطت بها.

السبب الأول: عدم وجود الناصر:

وهذا ما عبر عنه الإمام الحسن عليه السلام في مواقف مختلفة، منها ما ورد في هذه الرواية المؤلمة:

- عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال حدثني رجلٌ منا قال: "أتَيْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلَيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَذْلَلْتَ رَقَابَنَا وَجَعَلْنَا مَعْشَرَ الشِّيعَةِ عَبِيدًا مَا بَقَى مَعَكَ رَجُلٌ" فَقَالَ "وَمِمَّ ذَاكَ" قَالَ: "قُلْتُ بَتَسْلِيمِكَ الْأَمْرَ لِهَذَا الطَّاغِيَةِ" قَالَ: «وَاللَّهِ مَا سَلَمْتُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ أَنْصَارًا وَلَوْ وَجَدْتُ أَنْصَارًا لَقَاتَلْتُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَلَكِنِّي عَرَفْتُ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَبَلَوْتُهُمْ وَلَا يَصْلُحُ لِي مِنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِدًا إِلَّا هُمْ وَفَاءَ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ فِي قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ إِلَيْهِمْ لُخْتَلِفُونَ وَيَقُولُونَ لَنَا إِنَّ قُلُوبَهُمْ مَعَنَا وَإِنَّ سُيُوفَهُمْ لَمْ شَهُورَةٌ عَلَيْنَا»^(٦).

والامر وإن كان قد جرى في حركة الحسين عليه السلام، فلم يجد ناصراً ينصره في يوم عاشوراء، إلا أن الإمام الحسن عليه السلام قد تولى إدارة معركة غير متكافئة، ابتلى فيها بجيش سادت فيه حالات الغدر والخيانة، وكان الإمام عليه السلام معرضاً؛ لأن يغتال من قبل أحد المندسين، فتذهب جهوده أدراج الرياح، ولا تؤتي النهاية ثمارها المرجوة.

السبب الثاني: الحفاظ على نفوس شيعته:

فإن الدخول في مثل هذه المعركة غير المتكافئة من ناحية العدد وغير المؤدية للشمار المطلوبة، كان يستدعي من الإمام عليه السلام أن يفكّر في نفوس تلك القلة القليلة التي إن سُفكَت دماؤها، فإن ذلك الدم سيكون بارداً أمام تحقيق الهدف الذي كان يرجوه.

وننقل الرواية كاملة لما فيها من أمور مهمة:

- روى الشيخ الصدوق قدس سره في (عمل الشرائع) بسنته عن أبي سعيد رض الذي يسأل الإمام الحسن عليه السلام عن السبب الذي دفعه إلى الصلح مع معاوية مع أنه عليه السلام يعلم أنه على الحق وأن معاوية ضال وظالم، فأجابه الإمام عليه السلام: «يا أبا سعيد أَنْتُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَلَى خُلُقِهِ وَإِمَامًا عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ قُلْتُ: بَلَّ قَالَ أَكَسْتُ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِي وَلَا خَيْرٌ لِلْحَسَنِ وَالْحَسَنُ إِمَامٌ قَاماً أَوْ قَعَدَا قُلْتُ بَلَّ - قَالَ فَأَنَا إِنْ إِمَامٌ لَوْ قُمْتُ وَأَنَا إِمَامٌ إِذْ لَوْ قَعَدْتُ يَا أَبَا سَعِيدٍ عَلَّهُ مُصَالَّحٌ لِمُعَاوِيَةِ عَلَّهُ مُصَالَّحٌ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَنِي ضَمْرَةَ وَبَنِي أَسْبَعَ وَلِأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الْحُدَيْرَةِ أُولَئِكَ كُفَّارٌ بِالْتَّنْزِيلِ وَمُعَاوِيَةُ وَأَصْحَابُهُ كُفَّارٌ بِالْتَّأْوِيلِ يَا أَبَا سَعِيدٍ إِذَا كُنْتُ إِمَامًا مِنْ قَبْلِ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَمْ يَحِبْ أَنْ يُسَفَّهَ رَأِيِّي فِيهَا أَتَيْتُهُ مِنْ مُهَادَنَةٍ أَوْ تُحَارَبَةٍ وَإِنْ كَانَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيهَا أَتَيْتُهُ مُلْتَبِسًا أَلَا تَرَى الْخَضْرُ عَلَيْهِ لَمَّا حَرَقَ السَّفِينَةَ

وَقَتَلَ الْغُلَامَ وَأَقَامَ الْجِدَارَ سَخِطَ مُوسَى عَلَيْهِ فِعْلَهُ لِإِشْتِبَاهٍ وَجْهِ الْحِكْمَةِ عَلَيْهِ حَتَّى
أَخْبَرَهُ فَرَضِيَ هَكَذَا أَنَا سَخِطْتُمْ عَلَيَّ بِجَهْلِكُمْ بِوَجْهِ الْحِكْمَةِ فِيهِ وَلَوْلَا مَا أَتَيْتُ لَمَا تُرِكَ
مِنْ شِيعَتِنَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا قُتِلَ»^(٧)

السبب الثالث: عدم تكشف معالم المشروع الأموي:

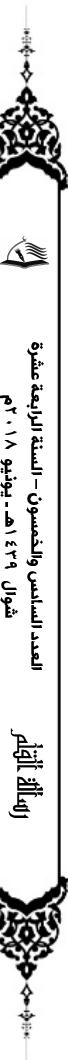
فإنّ بني أمية كانت تخطط لمشروع خطير، وهو تحويل مسألة الخلافة السياسية إلى ملكية وراثية، يحتلّها الفجار والفساق، وذلك قول أبو سفيان لعنة الله: "يا بني أمية! تلقّفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنة ولا نار".^(٨)

وهذا الأمر لم يكن واضحًا في زمان معاوية، لأن معاوية كان يتظاهر بالإسلام، وأحاط نفسه بجموعة من النفعيين الذي سطروا له الأقلام والروايات. فكان الأمر يحيطه شيء من الضبابية.

لكن في زمن يزيد، تساقطت جميع الأقنعة واتّضحت معالم المشروع بشكل واضح، فتوّلى ولاية المسلمين شاب فاسق، قتل الحسين علّيّه السلام، وأباح المدينة ثلاثة أيام، ورمى الكعبة بالمنجنيق.

ولذلك؛ كان هدف الإمام الحسن علّيّه السلام هو كشف الانحراف، وكان على الحسين علّيّه السلام محاربة ذلك الانحراف.

هدف الأئمة علّيّهم السلام كان بيان هذا الانحراف الذي حصل على مستوى الإمامية والخلافة، لإعادة البوصلة إلى مسارها الصحيح، لأنّ المقاييس كانت قد انقلبت.



النقطة الرابعة: موقف الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ من صلح الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ :

ادعى بعض المؤرخين من أبناء العامة أن الحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ كان رافضاً لصلح الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ، وأنه كان كارهاً لما قد صدر من صلح من قبل الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ.

ونقف على موقف الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ في زمانين:

الزمان الأول: موقفه في أيام حياة الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ:

وكان موقفه موقف المطيع للإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ والمؤيد لخطواته المباركة، وذلك بعده أدلة:

الأول: ما نقل من رفضه لبيعة بعض أهل الكوفة، من جاؤوا لرفض موقف الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ.

الثاني: ما ورد عن أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ حول وجود إمامين وكون أحدهما ناطقاً والآخر صامتاً، نأخذ موضع الشاهد من الرواية:

- حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق قال أخبرنا أحمد بن محمد
الهمداني قال: حدثنا علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه عن هشام
بن سالم قال: قلت للصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ فهل يكون إمامان في وقت واحد؟
قال عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «لا إلا أن يكون أحدهما صامتاً مأموراً لصاحبه والآخر ناطقاً إماماً
لصاحبه فاما أن يكونا إمامين ناطقين في وقت واحد فلما»^(٩).

الثالث: كون الحسين أحد أطراف هذا المشروع المتكمّل:
فالحسين عَلَيْهِ الْكَلَمُ أحد أطراف المشروع المتكمّل الذي أراد أهل البيت عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ

النهوض به، وهو حفظ الدين وإحياء الشرعية وبناء المجتمع الصالح، وغياب سمات هذا المشروع بعيد جدًا عن أحد أركان هذا المشروع وهو الإمام الحسين علّيَّ.

الزمان الثاني: موقف الإمام الحسين علّيَّ بعد استشهاد الإمام الحسن علّيَّ

تُوفي الإمام الحسن علّيَّ في سنة الخمسين للهجرة، ومات معاوية في السنة الستين للهجرة. وبقي الحسين علّيَّ على معاهدة الصلح عشر سنوات كاملة، وقد أكثر أصحابه من دعوته للنهوض ضدّ معاوية، ولكنه لم ينهض إلا بعد موت معاوية.

وهذا يكشف لنا عن أمور:

- ١- أنَّ الحسين علّيَّ مع الحفاظ على أصل عصمه، لو قام بوقف مغاير لما قام به الإمام الحسن علّيَّ، لعدَّ تهافتاً وتضارباً بين موقف كلٍّ من الإمامين، إلا أننا نرى هذا النوع من التوافق المنسجم.
- ٢- أنَّ الظروف الموضوعية هي التي اقتضت أن يصلح الحسن علّيَّ ويحارب الحسين علّيَّ، ولو تidelَ الزمان، لأخذ الحسين علّيَّ أيضًا موقف الصلح وحارب الحسن علّيَّ يزيد لعنة الله. فالظرف الموضوعي هو الذي حدَّد التكليف ومنهج التحرك للائمة علّيَّ، ولكن بموت معاوية انتهت مرحلة المصالحة، وتكتشَّفت معالم المشروع الأموي، فبدأت بذلك مرحلة المواجهة.

هل كان الإمام الحسين عليه السلام كارهاً للصلح؟

نقل البلاذري كلمة عن الحسين عليه السلام، وجّهها البعض في رفض الحسين عليه السلام لوقف الصلح من قبل الإمام الحسن عليه السلام: "قد كان صلحٌ وكانت بيعةٌ كنتُ لها كارهاً، فانتظروا ما دام هذا الرجل حيًّا، فإن يهلك نظرنا ونظرتم... ليكن كلّ امرئ منكم حلسًا من أحلام بيته، ما دام هذا الرجل حيًّا، فإن يهلك وأنتم أحياء، رجونا أن يخير الله لنا ويؤتينا رُشدنا".^(١٠)

وبعيدًا عن سند هذه الرواية، فإننا نتوقف عند عدّة أمور فيها:

الأمر الأول: قوله: "كان صلح وكانت بيعة"؛ لا يبيّن رفض الحسين عليه السلام لما قام به الإمام الحسن عليه السلام.

الأمر الثاني: قوله "قد كنت لها كارهاً"؛ لا تدلّ على تخطئة الإمام الحسن عليه السلام؛ لأن الإنسان قد يأتي بالفعل وهو كاره له، والحسن عليه السلام مُكرهاً، كما فعل الحسين عليه السلام.

وهذا ما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في حديثه لأبي سعيد: «عِلْمٌ مصالحتي لمعاوية عِلْمٌ مصالحة رسول الله عليه السلام لبني ضمرة وبني أشجع، والأهل مكّة حين انصرف من الحديبية»^(١١)، وهذا شاهد على كراهية الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية، وإنما فعل ذلك مكرهاً، كما صالح النبي عليه السلام في الحديبية وهو كاره للصلح، ولكن حفظاً للمصلحة.

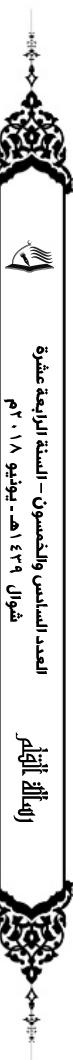
الخاتمة:

من هنا؛ يبرز هذا الإشكال، وهو ادعاء وجود التهافت بين موقف الإمام الحسن والإمام الحسين عليه السلام هزيلاً، بُنيَ في الحقيقة الواقع على قراءة ضعيفة

لأهداف الأئمة عليهم السلام ومنهجهم. وإن موقف كلٌّ من الإمام الحسن عليه السلام
والإمام الحسين عليه السلام كان موقعاً منسجماً مع الأهداف والغايات الشريفة التي
بذلَّ الأئمة عليهم السلام أنفسهم الشريفة في سبيلها.

الهوامش:

- (١) الصدر، محمد باقر، أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الأمة، ص ١٠٨.
- (٢) نهج البلاغة الخطبة ٧٤.
- (٣) نهج البلاغة الخطبة ٩٢.
- (٤) نهج البلاغة، الخطبة ٣.
- (٥) نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.
- (٦) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٤٧.
- (٧) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، علل الشرائع، ج ١، ص ٢١١.
- (٨) الطبرى، محمد بن جرير، تاريخ الطبرى ج ٥، ص ٦٢٢ حادث سنة ٢٨٤ هـ.
- (٩) ابن بابوية، محمد بن علي، كمال الدين وقام النعمة، ج ٢، ص ٤١٦.
- (١٠) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٤٩.
- (١١) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، علل الشرائع، ج ١، ص ٢١١.



القيادة والتّشخيص الأصلح

الحسن المجتبى عَلَيْهِ الْمَسْكُوٰتُ نموذجاً

الشيخ منصور إبراهيم الجبيلي

الملخص:

تناول الكاتب في هذه المقالة أهمية تحديد المصلحة المرتبطة بالمجتمع والأمة من قبل القائد، وأنها وظيفة المعصوم أو نائبه؛ لخطورة المسألة، ومن جانب آخر أشار إلى أهمية الطاعة والانقياد للقائد، وذكر نماذج من حياة الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في طاعتهما وانقيادهما، ثم ختم مقالته بذكر النكبات والأسباب لتسليم الحسن عَلَيْهِ الْمَسْكُوٰتُ لأبيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْمَسْكُوٰتُ وتسليم الحسين لأخيه الحسن عَلَيْهِ الْمَسْكُوٰتُ.

من العناصر التي تكون المجتمع وتجمع شتاته وتجعله منظماً هو وجود القيادة الحكيمة، التي بها تقوم المجتمعات على قدميها وتنهض مشاريعها ولا تضيع حقوقها ولا تكون فريسة للطّواغيت؛ إذ إنّ الطّواغيت متى ما وجدوا مجتمعًا مشتتاً ليس لهم قيادة واعية وحكيمة انقضوا عليه بطريقة وأخرى. ومن أصعب الأمور التي تتّخذها القيادة هي مسألة التشخيص إذا كان الأمر يتعلّق بصلحة أو مفسدة ترجع لكلّ المجتمع وتسليم الناس بذلك، وتكون أصعب من ذلك لو كان متعلّق التشخيص هي أعراض ودماء الناس،

فتحتاج إلى معصوم أو من هو قريب من المعصوم كالفقهاء، فإذا شُخص المعصوم قرار الحرب أو السَّلم فإنَّه عالم بما هو أصلح فلا ينافسه أحد أو يعترض عليه؛ لأنَّه منصوب من قبل الله، وأحسب أنَّ كثيراً من الويالات والمصائب التي عاشتها وتعيشها الأُمَّة بسبب عدم اتِّباع القيادة وتشخيصها، وحينما نسلِّط الضوء على حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام نجد ذلك جلياً، حيث إنَّه لم يعترض على أبيه وكذلك سيد الشهداء عليه السلام لم يعترض على تشخيص أخيه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

أتعرّض في هذا البحث إلى:

موقف الإمام الحسن المجتبى عليه السلام من تشخيص أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وكيف تعامل معه، وموقف من كان حول الإمام عليه السلام، مع إشارة إلى موقفه وتشخيصه أيام غصب الخليفة.

تشخيص الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وموقف الحسين الشهيد عليه السلام وموقف من كان حوله.

إشارة إلى السر في سكوت وتسليم الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام وانقياد الإمام الحسين الشهيد عليه السلام لأخيه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

١- موقف الحسن المجتبى عليه السلام من تشخيص أبيه أمير المؤمنين عليه السلام:

عاش الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في حياة أبيه... وكان مطيناً ومسلماً لأوامر أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يرى أباه إماماً وقدوة واجب الطاعة، مع

أَنَّهُ عَلَيْهِ مَعْصُومٌ كَأَبِيهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ عَلَيْهِ يَتَلَقَّى أَوْامِرَ أَبِيهِ عَلَيْهِ تَلَقَّى الْعَبْدُ أَوْامِرَ سَيِّدِهِ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ فَدَائِيًّا وَجَنْدِيًّا وَسِيفًا فِي يَدِ أَبِيهِ عَلَيْهِ، بَلْ عَيْنَهُ الَّتِي يَبْصُرُ بِهَا.

نماذج انقياد الحسن المجتبى عَلَيْهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ

لم يرفض المشاركة في كل معارك أبيه عَلَيْهِ مع الناكثين والقاسطين والمارقين، وهنا نشير إلى بعض نماذج من حياة الحسن عَلَيْهِ مع أبيه عَلَيْهِ في خضوعه وانقياده له والتسلیم له:

الموقف الأول: عدم خروجه مع معارك الخلفاء أو ما تسمى بالفتورات؛ لأنّها لم تكن بإذن إمام الزّمان والقيادة، بل لم تكن لصلاحة الإسلام العليا؛ لأنّ من كان على رأس السلطة آنذاك يريد أن يشبع رغباته وأهوائه، ويجمع الأموال والغنائم من طرق الحق أو من غيره، وليس من القرابة في شيء، ولكي لا يكون اتهاماً جزافاً هناك شواهد كثيرة على هذا، منها ما نقله صاحب المستدرک: من "أنّ زِياداً بَعْثَ الْحَكْمَ بْنَ عُمَرَ الْغَفارِيَّ عَلَى خَرَاسَانَ، فَأَصَابُوا غَنَائِمَ كَثِيرَةً فَكَتَبَ إِلَيْهِ زِيادٍ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَتَبَ أَنْ يَصْطَفِي لِهِ الْبَيْضَاءَ وَالصَّفَرَاءَ، وَلَا يَقْسِمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ذَهَبًا وَلَا فَضْةً، فَرَفَضَ الْحَكْمُ ذَلِكَ، وَقَسَّمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ مِنْ قِيَدِهِ وَحْبَسَهُ فَمَاتَ فِي قِيَودِهِ، وَدُفِنَ فِيهَا، وَقَالَ: إِنِّي مَخَاصِمٌ^(١). وَمِنْهَا أَنَّهُ بَدَأَ التَّعْذِيبَ عَلَى أَخْذِ الْجَزِيَّةِ فِي زَمْنِ الثَّانِيِّ، بَلْ أَوْجَبُوهَا حَتَّى عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الدَّرْمَةِ.

وفي قبال ذلك نرى بعضاً من يتسمون بالصحابة ممّن هم مع كلّ ناعق، فهم يتبعون هؤلاء في كلّ شيء؛ وذلك لعدم المعرفة بالقيادة الربانية

والحقيقية، فهم يرون هذه القيادة الصّورية التي لا ترى إلّا مصالحها، ومثل هؤلاء في كل زمان، الأشخاص تتغير والفكر يتكرر.

نلاحظ أنّ إمامنا الحسن المجتبى عليه السلام على الرغم من أنّ المعارك ضدّ الكفار وأنّها قد ترجع -ظاهراً- بغنائم وفوائد على المسلمين، إلا أنّ القيادة لم تأذن فلم يخرج معهم، لأنّ القيادة لم ترَ وتشخّص المصلحة في الخروج، ولو ظهر بعد بعض أنّه توجد فوائد ظاهريّة، إلا أنّ طاعة القيادة أهمّ من ذلك؛ فهي ترى ما لا يراه غيرها ولو على المدى البعيد.

الموقف الثاني: حينما أرسل أمير المؤمنين عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام مع عمّار بن ياسر إلى الكوفة -بعد أن لم يستجب وعائد أبو موسى الأشعري في تخليه عن منصب ولاية الكوفة- وتولّية قرضاة بن كعب كان نصّ الرسالة: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ كُنْتُ أَرْى أَنْ بُعْدَكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزَّلَكَ لَكَ مِنْهُ نَصِيبًا، سَيَمْنَعُكَ مِنْ رَدِّ أَمْرِي، وَقَدْ بَعَثْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلَيٍّ وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرَ يَسْتَنْفِرَانِ النَّاسَ، وَبَعَثْتُ قَرَضَةَ بْنَ كَعْبٍ وَالْيَأْمَى عَلَى الْمَصْرِ، فَاعْتَزَلَ عَمَّلَنَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، فَإِنِّي قَدْ أَمْرُهُ أَنْ يُبَابِذَكَ، فَإِنْ نَابَذْتَهُ فَظَفَرَ بِكَ أَنْ يُقْطِعَكَ آرَابًا»^(٢).

لما أن وصل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إلى الكوفة التفت الناس حوله وانقادوا إليه، ثم أُعلن عن عزل أبي موسى وتنصيب قرضاة بن كعب، رفض أبو موسى، ثم دار بينه وبين الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وعمّار حوار، إلى أن قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «يا أبا موسى، والله ما أردنا إلا الإصلاح، وليس مثل أمير المؤمنين عليه السلام يخاف على شيء»^(٣).

إن ذيل هذه الرسالة له عدة مثاليل منها ما هو محل بحثنا، فإنه حينما يكون الشخص لا يخاف منه على شيء؛ ليس إلا لأنّه قائد معصوم وله

تشخيصه الصّحيح ولا ينظر إلى مصالحه الشّخصيّة أو المخزبيّة بل ينظر إلى مصلحة الدين والأمة، وهذه الخصوصيّة تكون لمن هو مطلع على كلّ صغيرة وكبيرة في الدين؛ كي يشخص ما هو الصالح له وما هو ليس كذلك، وهذا ما يحتاج إلى معصوم أو من اطّلاع واف بتفاصيل الشريعة من نائب خاصّ أو عامّ وليس غيرهم؛ لأنّ من لا اطّلاع له بكلّ تفاصيل المسائل الشرعيّة يخفى عليه كثير من المصالح التي ينبغي مراعاتها، ومن هنا ذكر الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ أَنَّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ لا يخاف منه على شيء، وقد يفهم أنّ هذه القضية -ما ذكر في ذيل الرسالة- ليست خارجية لأشخاص معينين، بل هي حقيقة ومثال لأيّ معصوم آخر أو نائب له بحقّ، وهذا ما يجرّنا إلى ضرورة اختيار قيادة المعصوم عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ عن غيره والفقيه عن غيره، وذلك لسبب مهمّ وهو التشخيص الأصلح.

الموقف الثالث: في معركة صفين، بعد مهزلة التحكيم ورفع المصحف لم يحدّتنا التاريخ أنّ الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ اعترض على أبيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ، ولكن في المقابل نرى من اعترض على الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ أو ناقشه، وهذا يعكس حجم عدم المعرفة بالإمام المعصوم مفترض الطاعة، والذي كان من المفترض عليهم أن يطیعوه في كلّ شيء؛ لأنّ طاعته من طاعة الله «مَنْ أَطَاعَكُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاكُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ»^(٤) والرّاد عليهم كالرّاد على الله.

الموقف الرابع: عند قتل أبيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ، لِمَّا أَنْ عَلِمَ الْأَمِيرُ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ أنه مفارق هذه الدنيا أخذ يوصي ابنه الحسن المجتبى عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ بوصاياه،

واستخلفه من بعده كي لا تضلّ هذه الأئمّة وتسقط في مستنقع الجهل والأمويّ، ولا خلاف بين الشّيعة على خلافة الحسن المجتبى علّيّه أَمْرُ المؤمنين علّيّه، وبعد أن دفع إليه مواريث النّبوة والإمامية، فأوصاه وكان في ضمن وصيّته أَنَّه قال له: «يَا بُنَيَّ أَنْتَ وَلِيُّ الْأَمْرِ وَوَلِيُّ الدَّمِ فَإِنْ عَفَوتَ فَلَكَ وَإِنْ قَتَلتَ فَضْرُبَتْهُ مَكَانَ ضَرْبَتْهُ وَلَا تَأْثِمْ»^(٥).

وهنا يوجد مقتضٍ لأن ينتقم الإمام الحسن المجتبى علّيّه من ابن ملجم، لأنّ دماء الأمير علّيّه لا يعدلها قتل رجل ب الرجل - لو قايسنا - كما قد يتتصور، وهنا تحضرني قصة وهي أنّ أحد المسؤولين في العراق عن قتل وخلاص البشرية من الطاغية المجرم صدام عنده، قال في مقابل ما فعله صدام عنده ما مضمونه: هل قتل هذا المجرم وإعدامه يرجع لنا السيد الصدر قيش!!، وهنا كذلك فإنّ قتل هذا المجرم لن يرجع شيئاً من الخسارة الكبيرة التي خسرتها الأئمّة، ولكن حسابهم عند رب العالمين الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وهذا أحد الأوجوبة على مسألة التخليد في النار.

وكيف كان فإنّ الإمام الحسن المجتبى علّيّه بأخلاقه وبالتزامه وتسليميه وانقياده لكلام أبيه أمير المؤمنين علّيّه نفذ كلام أبيه وضربه ضربة بضربة ولم يمثل بأحدٍ كما يدعّي بعض المغرضين.

ولا يكاد ينقضي عجبي من بعض من يسمّون أنفسهم بالكتاب أو الباحثين، فإنّهم يريدون أن يلصقوا بالإمام الحسن المجتبى علّيّه أو الحسين علّيّه أو أيّ إمام أيّ تهمة وأيّ منقصة، وأحدس - بسبب تكرار ذلك في توارييخ الأئمّة - أنّهم عن قصد يريدون أن يثبتوا أنّ الأئمّة علّيّهم غير معصومين كغيرهم، أو أنّهم ينسبون منقصة أو مذمّة ومثلبة ثابتة

لсадتهم يثبتونها للأئمة المعصومين عليهم السلام؛ مما يبرر اتباعهم لقادة الضلال ومن أضل خلقاً كثيراً، وأن الأئمة عليهم السلام ليسوا بأحسن حالاً من سادتهم، ولكن هيبات فشس نع نعلم قنبر أفضل من سادتهم أهل الضلال، ويا بني الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ومن هذه المواقف الثلاثة نستنتج أن تشخيص القيادة هو التشخيص الأصلح للأئمة، نعم فرق بين المعصوم وغيره وهذا من الأمور الواضحة، ولكن نسأل عن النكبة التي كان المعصوم فيها أصلح -وسيأتي ذلك لاحقاً- وهي معرفته بكل صغيرة وكبيرة في الدين، لأن ما يرتبط بصير الأئمة من حرب وسلم بالنتيجة هو حكم من الأحكام الشرعية وليس قصة أو شِعراً، وهنا المعصوم هو أعرف من غيره، والرجوع على غيره، والفقيه على غيره وهكذا، ومن سخف القول أن يجعل تشخيص أمّة بيد أي واحد من الناس، فهو لعب بالنار.

٢- موقف الإمام الحسين الشهيد عليه السلام من تشخيص ونظر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام:

من المواقف المهمة في حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام موقف الصلح، فأماماً موقف السبط الشهيد عليه السلام من الصلح الذي أجراه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام اقضاً لمصلحة الأئمة الإسلامية، فإنه وإن كان مع معاوية لعنة الله عليه الذي طالما حارب الإسلام وقتل ما قتل من الصحابة والتلابين، إلا أنه نجد الإمام الحسين عليه السلام لم يعترض على ذلك أبداً مع أنه يعلم كما يعلم أخوه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن خبث وغدر معاوية لعنة الله عليه، ولكن رعاية مصلحة الأئمة الإسلامية وحقناً للدماء، بل ربما لو لولا هذا الصلح لما افتضح معاوية لعنة الله عليه

وانكشف زيفه أمام الناس، وقد قام بهذا الصلح متأسياً بجده حينما صالح قريشاً، فمن هذا الصلح ظهر بشكل أكثر وضوحاً حرص الإمام الحسن عليه على الإسلام والأمة وظهر في المقابل زيف معاوية لعنه الله وحرصه على الملك وشغفه بالسلطة والكرسي، فبعد أن صالح معاوية لعنه الله الحسن المجتبى عليه جاء إلى أهل الكوفة ناكثاً للعهد والصلح -كما هي عادة الطواغيت- وخطب فيهم: "إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتجحروا ولا لتزكوا، إنكم لنفعلون ذلك إنما قاتلتكم لأنتم عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون" ^(٦).

فنلاحظ أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان مطيناً ومسلماً لما يفعله أخوه؛ لأنَّه يعلم أنَّ طاعة أخيه من طاعة النبي عليه السلام التي هي من طاعة الله ﴿فُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٧).

وقفة مع الروايات التي يُدعى أنها صدرت وأنها تفيد اعتراض الإمام الحسن عليه السلام على الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

الأولى: أنه أرسل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إلى وجه أصحابه فدعاهم، ثم قال: «يا أهل العراق! ما أصنع بجماعتكم معي، وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأنَّ أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية، أما والله! ما هذا بمنكر منكم؛ لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين، فلئن أمضى الحكومة وقبل منكم اختلافتم، ثم دعاكم إلى قتال معاوية ثانية فتوانتم، ثم صار إلى ما صار إليه من كرامة الله إيمان، ثم إنكم بایعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذت بيتمكم وخرجت في وجهي هذا، والله يعلم ما نويت فيه، فكان منكم إلى ما كان، يا أهل العراق! فحسبي منكم لا تغروني في ديني فإني مسلم هذا الأمر إلى معاوية».

قال: فقال له أخوه الحسين عليهما السلام: يا أخي! أعيذك بالله من هذا! فقال الحسن عليهما السلام: «والله! لأفعلن وألسلمن هذا الأمر إلى معاوية».

وفي رواية: قال الحسين عليهما السلام: «نشدتك الله أن تصدق أحدوة معاوية، وتكذب أحدوة علي»^(٨).

الثانية: عن ابن عساكر: «أنبأنا عبد الله بن بكر بن حبيب السهمي، أنبأنا حاتم بن أبي صغيرة، عن عمرو بن دينار: أن معاوية كان يعلم أن الحسن المجتبى عليهما السلام كان أكره الناس للفتنة، فلما توفي عليهما السلام بعث إلى الحسن عليهما السلام فأصلح الذي بينه وبينه سرًّا، وأعطاه معاوية لله عهداً إن حدث به حدث والحسن عليهما السلام حيًّا ليسمِّنه وليجعلنَّ هذا الأمر إليه، فلما توثق منه الحسن عليهما السلام قال ابن جعفر: والله! إني لجالس عند الحسن عليهما السلام إذ أخذت لأقوم بجذب ثوبي، وقال: يا هناه! اجلس، فجلست فقال: إني رأيت رأياً وإنِّي أحبُّ أن تتابعني عليه. قال: قلت: وما هو؟ قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلُّي بين معاوية لله وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسفكت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعَت السبل، وعطلت الفروج يعني الشغور. فقال ابن جعفر: جزاك الله عن أمّة محمد عليهما السلام خيراً فأنا معك على هذا الحديث. فقال الحسن عليهما السلام: ادعْ لي الحسين عليهما السلام. فبعث إلى الحسين عليهما السلام فأناه، فقال: أي أخي! إني قد رأيت رأياً وإنِّي أحبُّ أن تتابعني عليه. قال: ما هو؟ قال: فقصَّ عليه الذي قال لابن جعفر. قال الحسين عليهما السلام: أعيذك بالله أن تكذب عليه في قبره، وتصدق معاوية لله. فقال الحسن عليهما السلام: والله! ما أردت أمراً قط إلا خالفتني إلى غيره، والله! لقد همت أن أقذفك في بيته فأطينه عليك حتى أقضِي أمري. قال: فلما رأى الحسين عليهما السلام غضبه قال: أنت أكبر ولد على عليهما السلام، وأنت خليفته، وأمرنا لأمرك تبعُّ فافعل ما بدا لك فقام الحسن عليهما السلام فقال: يا أيها

الناس! إنّي كنت أكره الناس لأول هذا الحديث، وأنا أصلحت آخره لذى حق أديت إليه حقه أحق به مني، أو حق جدت به لصلاح أمّة محمد ﷺ وإن الله قد ولّاك يا معاویة لفتنـا هذا الحديث لخیر يعلمه عندك، أو لشـر يعلمه فيك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ثم نزل^(٩) وأمثال هذه الروايات.

في مقام الجواب:

أولاً: الرواية عامّية لا اعتبار لها.

ثانياً: لو سلّمنا جدلاً فإنّ فيها ما يدلّ على أن الإمام الحسن المجتبى علـيـهـالـسـلـيـلةـ كان كارهاً، ولم يكن راضياً بما يقع.

ثالثاً: بالنسبة إلى عبارة: (أعيذك) فهي تدلّ على الدّعاء والشّفـقـ والـحـذرـ والاستعاـدةـ، ليس إلاـ.

رابعاً: قد يفهم من سياق الرواية تقيّة الحسـنـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ، وإظهـارـ الحـسـنـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ الـلتـزـامـ والـانـقـيـادـ لـمـعاـوـيـةـ لـعـنـالـلـهـ، وـالتـقـيـةـ صـاحـبـهاـ يـعـرـفـهاـ وـأـدـرـىـ بـهـاـ.

خامساً: نلاحظ في الرواية الأولى أنّه لم يصدر اعتراض ورفض من قبل الإمام الحسن علـيـهـالـسـلـيـلةـ على ما قام به الإمام الحسن عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ مما يدلّ على قام المـوـاءـمـةـ بـيـنـهـمـاـ.

سادساً: قول الحـسـنـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ: «أنت أـكـبـرـ ولـدـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ...»، بهذه العبارة فقط نستدلّ على انـقـيـادـ الإـمـامـ الحـسـنـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ إـلـىـ الإـمـامـ الحـسـنـ عـلـيـهـالـسـلـيـلةـ وـعـلـمـهـ بـماـ يـحـدـثـ وـوـجـوبـ طـاعـةـ الإـمـامـ، ولـعـلـ منـ اـخـتـلـقـ الرـوـاـيـةـ لـمـ يـلـتـفـتـ إـلـىـ هـذـهـ العـبـارـةـ الـتـيـ تـنـقـضـ الغـرـضـ الـذـيـ مـنـ أـجـلـهـ اـخـتـلـقـ مـثـلـ هـذـهـ الرـوـاـيـةـ.

سابعاً: يحتمل أنّ مثل هذه الروايات من اختلاقات العباسيين وأعوانهم؛ إذ إنّ أحفاد الإمام الحسن عليه السلام حاربوهم ولقوا منهم ما لقوا، فلذلك جاؤوا بمثل هذه الروايات ليحطّوا من مكانة الإمام الحسن عليه السلام، وبالتالي يكون أحفاده من المنبوذين من قبل الناس، وهناك غرض آخر لطالما عمل عليه طواغيت بني أمية، وهو إظهار أئمّة أهل البيت عليهما السلام أنّهم كأيّ أحد من الناس، فكما أنّ الناس يخطؤون فكذلك هم، لكي يبعدوا الناس عن مصدر النور الإلهيّ ومصابيح الدّجى، عن طريق اختلاق روايات ما أنزل الله بها من سلطان، وطمس روايات في فضائل أهل بيته العصمة والطهارة عليهما السلام، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره.

يوماً بعد يوم تكشف أكاذيبهم واختلاقهم للأحاديث، وينكشف من هم المجرمون الذين طاردوا أهل البيت عليهما السلام تحت كل حجر ومدر، وشرّدوهم وقتلوهم وهم يحسبون أنّهم بذلك يخمدون هذا النور الإلهيّ.

٣- سرّ سكوت وتسليم الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن أبيه أمير المؤمنين عليهما السلام وسكت الإمام الحسين عليهما السلام عن أخيه الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام:

في الحقيقة يرجع السرّ في ذلك إلى أمور منها:

الأول: معرفة الله، فإنّ من يعرف الله حقّ معرفته يكون مسلّماً وطائعاً لإمام زمانه، ولكي نقرب الصورة لعلاقة بحثنا بمعرفة الله نذكر مثالاً: لو أنّ عبداً من العبيد كان عنده مولى، وكان هذا المولى يأمره بأوامر، فتارة يعرف العبد مولاًه ويعرف ما يرضيه وما يسخطه فإنه بذلك يأمن معصيته وغضبه وبالتالي يحصل رضاه، والعكس من ذلك بالعكس فلو لم يعرف ذلك فإنه

يكون عرضاً لغضب مولاه ومعصيته، وقد يعلق المولى رضاه برضى غيره، كما لو قال لعبد: آمرك أن تطيع فلاناً أو إطاعة فلان من طاعتي، فلو عصى المولى هذا الغير فإنه يلام من العقلاء بل يكون مستحقاً لعقاب المولى؛ لأنّه عرفه ولم يعرف حدود معصيته أو عصاه مع معرفته، فلا بدّ للعبد من معرفة مولاه وما يرضيه وما يسخطه؛ كي لا يقع في معصيته، وهنا في مسألتنا نظير ذلك -مع الفرق بين المولى الحقيقى والمولى العرفي- فإنّ الذي يعرف الله ويعرف ما يرضيه ويسخطه فإنه يتّقي بذلك مصيته، فالباري علّق طاعته على طاعة أهل البيت علیهم السلام، وأنّه من أطاعهم فقد أطاعه وامتثل أمره «مَنْ أَطَاعَكُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاكُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْعَضَ اللَّهَ»^(١٠)، وهناك كثير من النصوص بهذا المضمون، بل إنّ من يريد التوجّه إلى الله يبدأ بهم «مَنْ أَرَادَ اللَّهَ بَدَأَ بِكُمْ وَمَنْ وَحَدَهُ قِيلَ عَنْكُمْ وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ»^(١١)، فهم الباب الذي منه يؤتى، وكذلك من أبغضهم فقد أبغض الله، فمن لم يطعهم ويسلّم إليهم وينقاد فهو غير طائع الله وليس عارفاً لله؛ لأنّه من يعرف الله حقّ معرفته يعرف أولياءه الذين طاعتهم من طاعة الله ومعصيتهم من معصية الله والراد عليهم كالرّاد على الله «...وَالرَّادُ عَلَيْنَا كَالرَّادُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى حَدِّ الشَّرِكِ...»^(١٢)، وهذا مما لا يخفى على المعصوم ونوابه بل هم من علمنا ذلك، ومن هنا ندرك أحد أسرار تسليم وطاعة وانقياد الإمام الحسن المجتبى علیه السلام لأمير المؤمنين علیه السلام أو انقياد الحسين علیه السلام للحسن علیه السلام، لأنّهم يرون طاعة المعصوم من طاعة الله ومخالفته مخالفة الله، فلا يقدمون على معصية الخالق، ولو أنّ أحداً رأى أنّ المصلحة بحسب الظاهر خلاف ما يذهب إليه المعصوم -كما لو حملنا فعل من طعن الحسن علیه السلام في فحذه أو خاطبه بـ(يا مذل المؤمنين)- فإنّ اللازم عليه أن يصمت ويسسلم لما

ذهب إليه المعصوم، ولا يقول قائل بأنه هل يوجد أحد فوق المساءلة؟ فإنه يقال له: نعم، كما أن الله لا يسأل كذلك من جعل الله طاعتهم من طاعته ومخالفتهم من مخالفته^(١٣)، وأماماً من باع آخرته بدنياه أو لعدم معرفته أو لمعرفته الناقصة، فإنه يعتريض على المعصوم أو أنه يريد أن يحاسبه، فإن هذا ليس عارفاً بالله حقّ معرفته، فلو كان عارفاً به وبما يرضيه لما خالف أولياءه واعتريض عليهم.

نعم لأحد أن يسأل المعصوم ولكن بأدب وخلق لا تعنتاً، لا أنه يرفع الصوت وكأنه أصغر أطفاله أو أحد عبيده فإن هذا ليس من الأدب في شيء، فإذا أراد خطابه أو سؤاله عليه أن يختار الكلمات المؤدبة.

هناك نموذج سيء في السؤال والتعامل مع المعصوم يذكره القرآن، كما في من نزلت في حقه آية: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(١٤)، فقد نقل صاحب تفسير البرهان^{رحمه الله}: لِمَ نصب رسول الله ﷺ عليناً عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ يوم غدير خم، وقال: «من كنت مولاه فعليه مولاه»، شاع ذلك في البلاد، فقدم على النبي ﷺ النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصوم والصلوة والزكوة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام، فقلت: من كنت مولاه فعليه مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من الله؟ فقال: «بلى والله الذي لا إله إلا هو، إن هذا من الله»، فولى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرمي الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(١٥) هذا نموذج من التماذج السيئة في التعامل مع المعصوم والسؤال بغير أدب.

وليس على المعصوم أن يجيب عن كلّ ما يُسأل فهو متى ما رأى المصلحة في الجواب أجاب وإلا لم يجب، وإلى هذا المعنى تشير إليه بعض الروايات، ففي الكافي الشّريف، نقل عن عَلَيْهِ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَلَى الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْفَرْضِ مَا لَيْسَ عَلَى شِيعَتِهِمْ وَعَلَى شِيعَتِنَا مَا لَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحَمْدُ أَنْ يَسْأَلُونَا قَالَ: ﴿فَسَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْأَلُونَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا الْجُوابُ إِنْ شِئْنَا أَجْبَنَا وَإِنْ شِئْنَا أَمْسَكَنَا»^(١٦).

الثاني: معرفة المعصوم، وهي أن يكون الإنسان معتقداً أنَّ المعصوم مفترض الطَّاعة، والدُّعوة إلى محاسبة المعصوم هي في الحقيقة جهل بمقام المعصوم، وهذا يدلُّ بالدلالة التَّضمنيَّة أنَّ من يدعو إلى ذلك عنده خلل في اعتقاده، فالقرآن قبل الروايات الشرفية تشير إلى هذا الأمر العقليٌّ وهو التسليم والانقياد للمعصوم باعتباره انتقاماً للخالق الذي له حق الطاعة وكلَّ ما يعتبره **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مَمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**^(١٧)، والذي نعتقد في المعصوم أنَّ مقامه فوق باقي البشر وتحت الخالق، وعصمته تقتضي أن لا يعصي الله أن لا يحكم ويشخص ولا يبدي نظره إلا بالأصلح، وأمّا غيرهم فليسوا بمعصومين وعرضة للخطأ، ومن هنا ينبغي بل يجب عقلاً أن يسلم غير المعصوم للعصوم مفترض الطَّاعة، فلا يصح أن يعترض غير المعصوم على المعصوم؛ لأنَّ غير المعصوم عرضة للخطأ فكيف يعترض على المعصوم، فضلاً عن محاسبة المعصوم فإنَّ فيها جرأة عليه، لأنَّ غير المعصوم يجانب الصواب وفقد الشيء لا يهبه لغيره كما يقال، فهو يحتاج أن يسأل ويحاسب نفسه: **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾**^(١٨)، فمن يذهب

إلى جواز مسألة المعصوم أو محاسبة المعصوم، لا بدّ من مراجعة عقيدته في المعصوم.

وهذا الأمر واضح عندنا، فلم يخفَ على الإمام الحسن عليه السلام مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام مع أخيه الحسن عليه السلام، فهم موضع الرّسالة، فنلاحظ أنَّ الحسن عليه السلام لم يعترض على أبيه فقط ليس فقط لأنَّه أبوه، بل لأجل مقام العصمة الّتي يعرفها حقَّ المعرفة، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام مع أخيه الحسن عليه السلام، ولو فرض أنَّ الحسن عليه السلام مكان أبيه لعمل مثلما عمل أخوه بلا زيادة ونقصان وكذلك الحسين عليه السلام مع أخيه، لأنَّ أدوارهم تتعدد وهدفهم واحد.

وبعد هذا يتضح لنا عدم صحة القول بأنَّ الحسن عليه السلام كان معتراضاً على أبيه أو أنَّ الحسين عليه السلام كان معتراضاً على أخيه، فهذا ليس معقولاً بعد فرض العصمة وأنَّ هدفهم واحد، ولكنَّ المقتضيات الخارجية تختلف وبالتالي تختلف أساليبهم وأدوارهم، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أنَّ ألقابهم المعروفة هي بحسب ما اشتهر عند الناس أو اقتضى لهذه الصفة أن تبرز، فكلُّهم مجتبون وشهداء ووو.

الثالث: الرّجوع إلى أهل الخبرة، فإنَّه من المسلم عقلياً في كلٍّ تخصص رجوع الجاهل إلى العالم، فتتجدد الطّبیب يُرجع إليه في الأمور الطّبیّة بحسب تخصصه، والميكانيكي يُرجع إليه فيما يختص بأمور السيارات، والمتخصص في الكهرباء يُرجع إليه في شؤون الكهرباء، وهكذا يُرجع إلى أهل التّخصص في كلٍّ مجال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ حَبِّي﴾^(١٩)، والأمور الدينية من مسائل أحكام ليس بداعاً عنها، فيرجع فيها إلى أهل التّخصص وهم المعصومون ومن

بعدهم نوابهم، بل إنّ المعصوم هو لكلّ الأمور الدّينيّة والأخرويّة، فمسألة الدّماء والأعراض والفروج تحتاج في الرّجوع فيها إلى المعصوم أو نوابه، لأنّها مسألة مهمّة وخطيرة ومن تخصّص المعصوم ونوابه، فهم يشخصون هذه الأمور الخطيرة.

ولا يقال بأنّ السياسة هي ليست من وظيفة المعصوم أو نوابه وأنّها وظيفة غيرهم، وشغل المعصوم ونوابه هو الدّين والمسائل الشرعيّة، بل السياسة من صميم الدّين، فالدّين منظومة متكاملة جاء لينتشر الناس وينقذهم من الظلم والظلمات ويأخذ بيده الإنسان إلى كماله المنشود، وهذه المنظومة تشمل السياسة وغيرها بلا استثناء، ولنا أن نسأل ما هو الدليل على أن وظيفة الإمام أو نائبه فقط مقصورة على المسائل الشرعية؟ ومن الذي يحدد وظيفة الإمام أو نائبه؟ فالمعصوم ونوابه هم من يشخصون الأصلح للناس لا غيرهم، ومن أخبر من الموصومين في أمور الدنيا والآخرة؟، وهنا يعتصر القلب ألمًا لصدور بعض هذا الكلام من بعض المؤمنين الملتزمين، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مستوى الوعي وال بصيرة.

الأمر الرابع: الضّرر المحتمل، فمن يتّبع المعصوم يأمن الضّرر في الدنيا والآخرة، لأنّ اتّباع غير المعصوم وغير نائبه احتمال الخطأ في اتّباعه كبير، وبالتالي العقل يحكم بالاتّباع والانقياد للمعصوم.

الأمر الخامس: وهو ربّما أهمّ أمر وهو مسألة براءة الذّمة والتعذير، فلو سلّمت الأمر إلى المعصوم أو نائبه أكون معذوراً أمام الله يوم القيمة، لأنّه هو من أمرني باتّباع المعصوم أو نائبه.

إشكالٌ وردٌ

قد يقول قائل بأن كل ما ذكر مسلم في حق المعصوم ولكنه غير مسلم في غير المعصوم، فإنه حاله كحالنا فكما أنه يشخص فنحن نشخص، فليس بأفضل حالاً منا، فنقول:

أولاً: نعم، المعصوم يفرق عن غيره وهذا بلا إشكال، ولكن طاعة نائب الإمام من طاعة المعصوم والرّاد عليه كالرّاد على المعصوم ففي حديث طويل عن الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ من ضمنه: «... قَالَ يُنْظَرُ إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ قَدْ رَوَى حَدِيشَةَ وَعَرَفَ حَلَالَنَا وَحَرَامَنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا فَلِيَرْضُوا بِهِ حَكْمًا فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِمًا فَإِذَا حَكَمَ بِحُكْمٍ وَلَمْ يَقْبِلْهُ مِنْهُ فَإِنَّمَا بِحُكْمِ اللَّهِ اسْتَحْفَفَ وَعَلَيْنَا رَدُّ وَالرَّادُ عَلَيْنَا كَالرَّادُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى حَدِيشَةِ الشَّرِيكِ بِاللَّهِ...»^(٢٠).

ثانياً: الحرب والسلام أليس من الأحكام الشرعية، باعتبار أن فيها سفك دماء وهتك أعراض وفروج أو حفظها، وهذه من الأمور المحرمة التي أولى الشارع لها أهمية قصوى، إذاً فهي من الأمور التي هي من شأن الشارع أن يشخص فيها، وهنا نسأل من هو أقرب إلى الحكم الشرعي وإلى تشخيص الملائكة والمصلحة؟ هل المرجع أم غير المرجع؟ الفقيه أم غير الفقيه؟، بلا شك ولاريبي يحكم الشخص المنصف باتباع المعصوم أو المرجع أو الفقيه دون غيره، فهم المطلعون على الملائكة والأهم والمصالح والمقاصد، فرأي المعصوم هو الصواب ورأي غيره مرجعاً أو فقيهاً أقرب للصواب.

لا نقول قاطعين بأن رأي المرجع أو الفقيه هو الرأي المطابق للواقع، وهنا نشير إشارة إلى بعض من يتغىّب لمرجع أو فقيه ولا يقبل أن تقول عنه أنه يخاطأ، فهو يثبت له العصمة من غير أن يشعر أو يشعر، ولكن نقول رأيه

أقرب إلى الواقع، نعم قد يخفى عليه شيء لأنّه بشر ولكن من البعيد أن يخفى عليه أمر يدركه الشخص العادي من الناس.

ثالثاً: ما يبرأ الذمة هو اتباع المعصوم أو نائبه، حتّى لو كان تشخيصه مخالفًا للواقع بنظري، وأمامًا غيره فليس معلومًا أنه يبرئ الذمة، فمن خالف صلح الحسن عليه السلام ورأى أنّ الحرب أصلح لوضع تشخيصه في جيشه وليرضى.

رابعاً: اتباع كلّ تشخيص نفسه يلزم منه الهرج والمرج؛ إذ لكلّ تشخيص فهذا يريد الحرب وهذا يريد السلم والأمة تضيع بين هذه التشخيصات، فلا مناص من الرّجوع والتّسليم إلى رأي المعصوم أو نائبه دون غيرهم.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

- (١) مستدرك الحاكم للنيسابوري، ج ٣، ص ٤٤٢-٤٤٣.
- (٢) مکاتيب الأئمة عليهم السلام لأحمدی میانجی علی، ج ١، ص ٦٦، کتابه عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري.
- (٣) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج ١٤، ص ٢٠.
- (٤) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق عليه السلام، ج ٢، ص ٦١٧، مقطع الزّيارة الجامعية.
- (٥) الكافي (الطبعة - الإسلامية)، ج ١، ص ٢٩٩، باب الإشارة والنّص على الحسن بن علي عليه السلام.
- (٦) بحار الأنوار للعلامة المجلسي عليه السلام (ط-بيروت)، ج ٤٤، ص ٥٣، باب ١٩ كيفية مصالحة الحسن بن علي عليه السلام معاوية لغة الله وما جرى بينهما قبل ذلك.



- (٧) سورة آل عمران: ٣٢.
- (٨) الفصول المهمة في معرفة الأئمة علیهم السلام لابن صباغ، ج ٢، ص ٧٢٣.
- (٩) تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ١٣، ص ٢٦٧، الحديث: ١١٨٧٩.
- (١٠) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق علیه السلام، ج ٢، ٦١٧، الزیارة الجامعية.
- (١١) نفس المصدر، ص ٦١٥، الزیارة الجامعية.
- (١٢) بحار الأنوار للعلامة الجلسي علیه السلام، (ط-بيروت)، ج ١٠١، ص ٢٦٢، باب ١ أصناف القضاة وحال قضاة الجور والترافع إليهم.
- (١٣) وهذا موجود حتى في الدول المعاصرة اليوم، ما يسمى بـ(الذات المصنونة) أي لا يحاسب باعتبار أنه لا يخطأ.
- (١٤) سورة المعارج: ١.
- (١٥) البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم البحرياني علیه السلام، ج ٥، ص ٤٨٥ / [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ إلى ٥].
- (١٦) الكافي للكلباني علیه السلام (ط-الإسلامية)، ج ١، ص ٢١٢، باب أن أهل الذكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة علیهم السلام.
- (١٧) سورة النساء: ٦٥.
- (١٨) سورة يونس: ٣٥.
- (١٩) سورة فاطر: ١٤.
- (٢٠) بحار الأنوار للعلامة الجلسي علیه السلام (ط-بيروت)، ج ١٠١، ص ٢٦٢، باب ١ أصناف القضاة وحال قضاة الجور والترافع إليهم.

مَثَلُ الكلمة الطيبة والكلمة

الخبيثة في سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

الشيخ إبراهيم عبدالنبي زين الدين

الملخص:

في هذه المقالة بحث الكاتب مفردتي الكلمة الطيبة والخبيثة في القرآن الكريم الواردة في سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سبيل الوصول إلى بعض الدروس وال عبر منها ويرجع الأولى إلى التوحيد حيث يتجلّى في إعمال الخيرات، بينما ترجع الثانية إلى كل ما كان نقضاً للتوحيد.

ثم تعرّض إلى التفریق بين عناوین ثلاثة وهي: التفسیر والتأویل والجري والانبطاق.

الحمد لله والصلوة على رسول الله محمد وعلى آله الطاهرين وللعنة الدائم على أعدائهم إلى يوم الدين.

تعتبر البحوث القرآنية والتفسيرية من أوضح مصاديق التأمل والتدارس في كتاب الله، فهي تحقق أكثر من مكسب للإنسان في آن واحد فبها تتحقق استحباب التأمل والتدبر في كلام الله المجيد، وبها تستذوق بعضاً

من بلاغة لغتنا العربية، وبها تتعرف على جملة من المعارف الإلهية التي بها قوام حياة الأفراد والمجتمعات.

كما أن القرآن الكريم باعتباره كتاب هداية للبشرية كل البشرية فإنّ الاعتراف من مائه الأصفى لا ينقص منه شيئاً بل كلّما تحلىت النفس الإنسانية بكمالاته توسيع القابلية للمزيد منها، وهذا من أسرار هذا الكتاب المعجزة، ومن هنا ندرك ما ورد في حقه من الكتاب الناطق وهم أهل بيت العصمة والطهارة عليهما السلام من أن للقرآن بطنًا وللبيطن بطن وللبطن بطون!

هذا المقال معقود للوقوف على تحليل صورة من صور القرآن الكريم لنسائهم منها بعضاً من دروسها وعبرها لتقوّم حياتنا ونظرتنا للأمور، والصورة هي مثال الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة في سورة إبراهيم عليهما السلام.

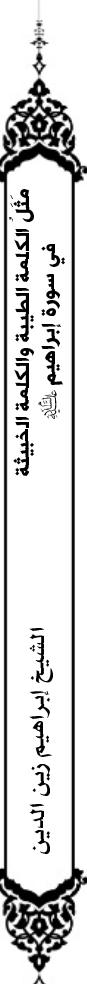
الصورة الأولى: مثال الكلمة الطيبة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّكَلْمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرُبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١).

تحليل الصورة:

شّبه الله سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في كونها تتميز بالاستقرار الشبات والرسوخ ودوم الفوائد منها.

وهنا أركان التشبيه كالتالي:



المُشَبَّهُ: كُلْمَة طَيِّبَة.

المُشَبَّهُ بِهِ: الشَّجَرَة الطَّيِّبَة.

وَجْهُ الشَّبَهِ: أَصْلُهَا صَابَتْ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ وَتَؤْتَى أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ.

أَدَاءُ التَّشَبِيهِ: الْكَافُ. فَهَذَا التَّشَبِيهُ مِنَ التَّشَبِيهِ التَّامِ الْمُسْتَجْمِعُ لِجَمِيعِ
الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ.

الْمَعْنَى الْمُحَصَّلُ: إِنَّ مَثَلَ الْكُلْمَةِ الطَّيِّبَةِ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ وَالَّتِي تَمْتَازُ بَعْدَ
خَصَائِصٍ:

١ - كُونُهَا طَيِّبَةً: وَالطَّيِّبُ هُوَ نُوعٌ مِّنْ أَنْوَاعِ الْمُسْكِ وَالرَّوَاحِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ
بِهَا أَهْلُ النَّظَافَةِ وَالْحُسْنِ، فَهِيَ لَيْسَ مِنَ الْأَشْجَارِ غَيْرِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي وَإِنْ كَانَتْ
مَفْيِدَةٌ إِلَّا أَنَّهَا مَا لَا يَجْذُبُ إِلَيْهَا وَهُوَ سُوءٌ رِّيحُهَا.

كُونُهَا طَيِّبَةً، وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَمْوَارًا:

أَحَدُهَا: كُونُهَا طَيِّبَةُ الْمَنْظَرِ وَالصُّورَةِ وَالشَّكْلِ.

ثَانِيُهَا: كُونُهَا طَيِّبَةُ الرَّائِحةِ.

ثَالِثُهَا: كُونُهَا طَيِّبَةُ الشَّمْرَةِ؛ أَيْ أَنَّ حَصَادَهَا مِنَ الْفَوَاكِهِ يَكُونُ لِذِيَّذًا
مُسْتَطَابًاً.

رَابِعُهَا: كُونُهَا طَيِّبَة بِجَسْبِ الْمَنْفَعَةِ أَيْ أَنَّهَا كَمَا يُسْتَلَذُّ بِأَكْلِهَا فَكَذَلِكَ
يَعْظِمُ الْاِنْتِفَاعُ بِهَا، وَيَجِبُ حَمْلُ قُولَهُ: شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ، عَلَى مَجْمَوْعِ هَذِهِ الْوِجُوهِ
”لَاَنَّ بِاجْتِمَاعِهَا يَحْصُلُ كَمَالُ الطَّيِّبِ“^(٢).

٢ - أَصْلُهَا ثَابِتٌ: أَيْ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ تَمْتَازُ بِكُونِ جَذُورِهَا ضَارِبَةٍ فِي

الأرض ومتدة فيها، ما يعني شدّة رسوخها وثباتها في الأرض ولا يمكن أن تؤثر عليها العوامل الطبيعية مثل الرياح والسيول في اقتلاعها بسهولة.

٣- فرعها في السماء: وهذا يعني علوًّاً تساميًّاً هذه الشجرة بحيث تكون فروعها وغضونها منطلقة في السماء فهي عالية الفروع، وهذا يعني فيما يعنيه فهو السريع والطبيعي كما أنَّ استفادتها من مصدر غذائها وهو الشمس يكون بشكل أكبر وأوسع وأسرع، وهذا ما يؤثر في عملية البناء الضوئي في النباتات.

أي أنَّ أثراًًا واسعاًًا وشاملاً يصل إلى أقصى الأرض.

٤- تؤتي أكلها كلَّ حين: فهذه الشجرة الطيبة تمتاز بكونها كريمة على أصحابها فتعطيهم الثمرات بشكل دائم ومستمر.

وقفات تحليلية في جمالية الأسلوب:

١- أول ما يواجهنا في الآية الكريمة وفي هذا التشبيه هو استخدام ﴿أَلْمَتَرَ﴾ والذي يتضمن شدّاً للاقتناب وتشويقاً إلى معرفة شيء قد مضى وتحققاً ببركة الفعل الماضي.

٢- كما أنَّ استخدام فعل الرؤية في الخطاب ﴿تَرَى﴾ باعتبار أنَّ النفس الإنسانية أكثر تفاعلاً مع ما تراه بالعين الباصرة فضلاً عمّا تراه بالرؤيا القلبية والذي يكون اعتقاداً لدى النفس ما يعني نحوَ رسوخ لهذا المعنى.

٣- نجد أنَّ الله ﷺ قد نسب ضرب المثل إلى ذاته المقدسة ﴿ضرب اللهُ مثلاً﴾ ونسبة المثل إلى ساحة قدس الله يعطيه مزيد اهتمام للتأمل فيه وفي



مراداته وغاياته؛ إذ النسبة إلى الله تعالى تضفي على المنسوب مهابةً وحسناً وجمالاً وجلاً من جمال وجلال الله تبارك وتعالى.

٤- ضرب المثل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة على جهة التشبيه المقلوب فالمتشبّه به هنا أدنى من المشبّه لأنّ الشجرة مهما كانت من أحسن الشجر وأجمله وأنظره ومن أعنده وأنثره إلا أنه لا يمكن بأيّ حال أن يكون مثل كلمة التوحيد التي تقتل رأس المعارف الدينية، بل "شرف الكلمة الطيبة على الشجرة الطيبة هو شرف عالم المعقول على عالم المادة".^(٣)

٥- إنّ الاستفادة من أداة التشبيه (الكاف) تعني الاشتراك والتشابه في بعض الأمور لا مطلقاً، فهنا يريد الإشارة إلى كون العلاقة بين الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة مشتركة من بعض المحييات فقط من قبيل رسوخ الأصل وعلو الفروع وطيب ما يجتني منها، وليس في مقام تنزيل الكلمة الطيبة منزلة الشجرة الطيبة من كلّ الوجوه إذ أين الشجرة الطيبة -مهما علا شأنها- من حقيقة الكلمة الطيبة سواء حملناها على كلمة التوحيد والإيان أم على المؤمن.

٦- لماذا عبر القرآن هنا بـ «فرعها» ولم يعبر بفروعها مع أنّ الشجرة عادة ما تكون مكونة من فروع وليس من فرع واحد؟ قد يقال باحتمال أنّ التعبير بالفرع بدل الفروع للدلالة على كون كلّ فروع هذه الشجرة على شكل واحد وطول واحد ونسق واحد؛ بحيث يُخيّل للناظر إليها كون كلّ فروعها كفرع واحد متكرر وهذا عبر عنها بالفرع بدل الفروع، وفي ذلك مزيد جماليّة في هذه الشجرة وكمال في شكلها ومنظرها بحيث إنّها لا تتواجد في الخارج عادة بهذه الدقة الهندسية الخلاقة.

٧- لماذا عَبَّرَت الآية بفعل الإتيان **﴿تُؤْتِي﴾** ولم تقل تعطى؟ وما الفرق بين الإتيان والإعطاء؟

٨- الحين في اللغة قطعة من الزمان قال الشاعر:

تنادرهما الراقون من سوء سُهْما

طلقةه حيناً وحيناً تراجع

إلا أنَّ للمفسرين كلام طويل فذهب بعض إلى كون الحين مدة سنة، وبعض قال هو ستة أشهر وقيل ثانية أشهر وقيل شهراً، و"قال الزجاج: جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أنَّ الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت، والمراد من قوله: **﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾** أنه ينتفع بها في كلِّ وقت وفي كلِّ ساعة ليلاً أو نهاراً أو شتاءً أو صيفاً^(٤)".

٩- قوله: **﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾** هنا تركيز مقصود على المبدأ الأول وعلة العلل لجميع العالم المادي وغيرها، وهو واجب الوجود جل جلاله، فلا يصل أي مخلوق إلى كماله إلا بإذنه سبحانه، وفي ذلك دعوة صريحة من الحق تبارك وتعالى إلى التسليم إليه والخضوع بين يديه إذ لا يمكن فعل صغيرة ولا كبيرة إلا بإذنه.

١٠- كما أنَّ المفسرين اختلفوا فيما هو المقصود من الكلمة الطيبة، فتعددت أقوالهم وعدُّ العلامة الطباطبائي في ميزانه ثانية أقوال في تحديد المراد من الكلمة الطيبة وهي: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: الإيان، وقيل: القرآن، وقيل: مطلق التسبيح والتنزيه، وقيل: الثناء على الله مطلقاً.

التأويل والتطبيقات:

ورد في تفسير علي بن إبراهيم القمي: حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن أبي جعفر الأحول عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال سأله عن قول الله ﴿مَثَلًا كَمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية، قال: «الشجرة رسول الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ أصلها نسبه ثابت فيبني هاشم وفرع الشجرة علي بن أبي طالب عَلَيْهِ الْكَفَافُ وغضن الشجرة فاطمة عَلَيْهِ الْكَفَافُ وثمرتها الأئمة من ولد علي وفاطمة عَلَيْهِ الْكَفَافُ وشيعتهم ورقها وإن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة وإن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة. قلت أرأيت قوله: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبِّهَا﴾ قال: «يعني بذلك ما يفتون به الأئمة شيعتهم في كل حج وعمرة من الحال والحرام، ثم ضرب الله لأعداء محمد مثلاً فقال ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتشت من فوق الأرض ما لها من قرار».

جاء في تفسير الصافي أنه ورد في تفسير العياشي عن الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ: هذا مثل ضربه الله لأهل بيت نبيه عَلَيْهِ الْكَفَافُ ولمن عادهم. وفي الكافي عنه عَلَيْهِ الْكَفَافُ: أنه سئل عن الشجرة في هذه الآية فقال: «رسول الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ أصلها وأمير

وقيق: كلّ كلمة حسنة، وقيل: جميع الطاعات، وقيل: المؤمن.

والحق أنه يمكن الجمع بينها بالقول: إن المراد بالكلمة الطيبة هو الاعتقاد الحق بالله وتوحيده جل وعلا ومنه تتفرع كل الكلمات والخيرات والحسنات، وما يرجح هذا القول هو الاستعانة في تحديد المراد من الكلمة الطيبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَضَعُدُ الْكَيْمَ الظَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْعَعُهُ﴾^(٥) حيث يذكر المفسرون إن المقصود من الكلم الطيب هو عقيدة التوحيد، وهذا هو عين ما استقر به صاحب الميزان أعلى الله مقامه^(٦).

المؤمنين عليهم السلام فرعها والأئمة ذريتها أغصانها وعلم الأئمة ثمرتها وشيعتهم المؤمنون ورقها، قال: والله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها وأن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها». وفي الإكمال: «والحسن والحسين ثمرها والتسعه من ولد الحسين عليهم السلام أغصانها. وزاد: **﴿تُؤْتِي أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ﴾** ما يخرج من علم الإمام إليكم في كل سنة من كُلِّ فِيْجٍ عَمِيقٍ»⁽⁷⁾.

عن محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات عن يعقوب بن يزيد، عن الحسن بن محبوب، عن الأحول، عن سلام بن المستنير، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: **﴿كَشَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾** **﴿تُؤْتِي أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ يَإِذْنِ رَبِّهَا﴾**، فقال: «الشجرة رسول الله عليه السلام، نسبة ثابت فيبني هاشم، وفرع الشجرة على عليه السلام، وعنصر الشجرة فاطمة عليها السلام وأغصانها الأئمة، وورقها الشيعة، وإن الرجل منهم ليموت فتسقط منها ورقة، وإن المولود منهم ليولد فتورق ورقة».

قال: قلت له: جعلت فداك، قوله تعالى: **﴿تُؤْتِي أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ يَإِذْنِ رَبِّهَا﴾**? قال: «هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام في كُلِّ سنة إلى شيعته»⁽⁸⁾.

جاء في وصية الرسول الأكرم لأبي ذر: «يا أبا ذر إن الله عليه السلام عند لسان كُلِّ قائل فليتق الله امرؤ وليعلم ما يقول، ... يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة»⁽⁹⁾.

فنجد أنّ الرسول نزل الكلمة الطيبة منزلة الصدقات.

ذكر المولى المازندراني في شرحه على الكافي لكتابه (لا إله إلا الله الكبير المتعال) أي العظيم لا بالكم والمقدار، بل بالرتبة والرّفعة، لأنّ ذاته المقدّسة مبدأ كلّ موجود، ومنتهى كلّ مقصود، المتعال عن التشابه بالخلق.

"هذه الكلمة الطيبة أشرف كلمة وحَدَ بها الخالق عزّ اسمه وهي منطبقـة على جميع مراتب التوحيد، وقد سمـيت فاتحة الإسلام".^(١٠)

وحضر الأمير ذات يوم جماعة من الشيعة فوعظـهم وحدـرـهم وهم ساهون لا هون فأغاظـه ذلك فأطرق مليـاً ثمـ رفع رأسـه إليـهم فقال «إنـ كلامـي لـو وـقـع طـرفـ منهـ في قـلـبـ أحدـكمـ لـصـارـ مـيـتاـ أـلاـ ياـ أـشـباحـ بلاـ أـروـاحـ وـذـبـابـ بلاـ مـصـبـاحـ كـأـنـكـمـ حـشـبـ مـسـنـدـةـ وـأـصـنـامـ مـرـيـدـةـ أـلاـ تـأـخـذـونـ الـذـهـبـ مـنـ الـحـجـرـ أـلاـ تـقـبـسـونـ الـضـيـاءـ مـنـ النـورـ الـأـزـهـرـ أـلاـ تـأـخـذـونـ الـلـؤـلـؤـ مـنـ الـبـحـرـ خـذـواـ الـكـلـمـةـ الـطـيـبـةـ مـنـ قـالـهاـ وإنـ لمـ يـعـمـلـ بـهاـ فإنـ اللهـ يـقـولـ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾^(١١).

تعليق: هذه الروايات وغيرها تبيـن لنا حـقـيقـةـ جـلـيـةـ مـفـادـهاـ أنـ الكلـمـةـ الطـيـبـةـ مـبـدـأـهاـ وـاحـدـ وـهـوـ التـوـحـيدـ وـيـظـهـرـ وـيـتـجـلـيـ فيـ كـثـيرـ منـ أـعـمـالـ الـخـيـرـ وـالـبـرـ وـالـصـلـاحـ.

الصورة الثانية: مثال للكلمة الخبيثة

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿وَمَثُلُّ كَلِمَةٍ حَبِيَّةٍ كَشَجَرَةٍ حَبِيَّةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(١٢).

تحليل الصورة:

هـذا التـمـثـيلـ يـعـثـلـ الصـورـةـ المـخـالـفةـ تـامـاـ لـلـصـورـةـ المـتـقدـمةـ، فـالـكـلـمـةـ الـخـبـيـثـةـ كـالـشـجـرـةـ الـخـبـيـثـةـ عـكـسـ الـكـلـمـةـ الـطـيـبـةـ الـتـيـ هيـ كـالـشـجـرـةـ الـطـيـبـةـ فـالـصـورـةـ مـرـكـبةـ مـنـ صـورـتـيـنـ فـيـ هـذـاـ التـمـثـيلـ صـورـةـ مـقـابـلـ صـورـةـ.

فهنا أركان التشبيه كالتالي:

المتشبّه: الكلمة الخبيثة.

المتشبّه به: الشجرة الخبيثة.

أداة التشبيه: الكاف.

وجه الشبه: اجتثت من فوق الأرض وما لها من قرار (عدم الثبات والرسوخ).

ضرب القرآن مثلاً للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي لا فائدة ترجى منها:

١ - كونها خبيثة: فهي غير زاكية.

٢ - اجتثت من فوق الأرض: بمعنى استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجنة كلّها، و”تجثّ أي تقلع، يقال: اجتثه اجتناثاً وجثّه جثاً، ومنه الجثّة، والاجتثاث الاستصال للشيء واقتلاعه من أصله، وقال انس بن مالك ومجاحد: الشجرة الممثل بها هي شجرة الحنظل^(١٣). إذ ليس فيها حلاوة ولا منفعة ولا رائحة طيبة، بل تضرّ من تناولها.

٣ - مالها من قرار: أي لا استقرار لها وكان هذه الصفة مكمّلة لسابقتها؛ فتقتعلها الرياح والسيول والأمطار بكل سهولة إذ لا أصل ولا أساس قوي لها بعكس الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وقوى.

وهذه الكلمة الخبيثة هي ”كلمة الكفر والشرك، عن ابن عباس وغيره، وقيل: هو كلّ كلام في معصية الله تعالى، عن أبي علي“^(١٤). فتكون الصورة أنّ

الكفر والشرك وما لا يرضاه الله ييّثّل الخبث والسوء وييتاز بعدم الاستقرار والزوال كحال الشجرة الخبيثة التي تقتلع من مكانها اقتلاعاً.

وقفات تحليلية في جمالية الأسلوب:

١- التعبير عن الشجرة والكلمة بالخبثة فيه دلالة على العموم ببركة تنكيرها فهي شاملة فهي خبيثة المعدن والجوهر وخبثة الشكل والنظر وخبثة الشمر والنتائج، وفي هذا كمال التنفير عنها وضرورة اجتنابها ل بشاعتها وقبحها.

٢- قوله **﴿اجتثت﴾** تعبير يحمل معنى عميق حيث إنّ الاجتثاث للشيء بمعنى عدم إبقاء شيء منه بل زواله بتمامه فكذلك الكفر والشرك والباطل فما له إلى التلاشي والاجتثاث الكامل، وفي هذا بعث للأمل في نفوس أهل الإيمان بأنّهم منتصرون على الباطل مهما كثُر ضجيجه ورعشه.

٣- التعبير عن الشجرة الخبيثة أنها اجتثت **﴿من فوق الأرض﴾** ولم يقل اجتثت من الأرض وفي هذه دلالة على عدم الرسوخ التام بحيث لم تضرب لها أصولاً وإنّما هي مرمية على ظاهر الأرض وهذا أدعي في الزوال وعدم الثبوت والاستقرار، فكذلك الباطل ليس فيه قابلية الاستمرار والبقاء، وخاصة إذا أخذ أهل الحق بأسباب قوّتهم كما أمرهم الله تعالى في كتابه وعلى لسان أوليائه **عليهم السلام**.

٤- نلاحظ أنّ هذه الشجرة لم يتطرق فيها إلى الفروع كما قال في الشجرة الطيبة **﴿فرعها في السماء﴾** ولعلّ النكتة وراء ذلك أنّ الكفر لا يصعد منه شيء إلى السماء فكلّ عمله لهذه الحياة الدنيا ولا يرى أفقاً وراءها.

٥- كما أثنا نلاحظ أنّ الصورة لم تتعرض إلى بيان أكلها بعكس الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، ولم يقل إنّ ثرها مرّ مثلاً بل ترك الذهن يستنتاج ذلك، لهذا كان تقديم ضرب المثل الأول الذي يذكر فيه الفرع والأكُل أفضل في بيان ما بعده في المثل الثاني عن طريق الصورة العكسية، فما ذكر في الأول يفهم في الثاني ولو كان محدوداً لكونه مكتشوفاً بالمقابلة^(١٥).

٦- تعبيره بالفعل الماضي من الاجتناث **﴿اجتُثت﴾** ولم يقل **﴿تحجَّث﴾** بصيغة المضارع، والإتيان بصيغة الماضي فيه دلالة على حسم الفعل وانتهائه وبسرعة مواجهة الباطل واقتلاعه، كما أنّ جيء الفعل مبنياً للمجهول يشي بضعف الشجرة الخبيثة ومثلها الكفر والشرك والباطل إذ لا أهمية لفاعل الاجتناث وكأنّ الفاعل ليس مهمّاً فبمجرد حصول المواجهة له يزول سوء من أهل الحق أو من غيرهم، وهذا ما يدلّ على شدة ضعف الباطل وخوائه.

٧- لقد اختلف المفسرون كذلك في المقصود من الكلمة الخبيثة ما هي؟ إلا أنّه بالتأمل في الصورة الأولى والنتيجة المتحصلة من معنى الكلمة الطيبة ندرك أنّ الكلمة الخبيثة هي ما تقابلها، فيكون معنى الكلمة الخبيثة هو ما يقابل كلمة التوحيد وهو الكفر والشرك والذي يتفرّع عنه كلّ خصلة سيئة مذمومة، وهذا أوفق كذلك إلى سياق آيات السورة التي تتحدث كما قلنا عن حركة المصلحين والدعاة إلى الله على امتداد التاريخ حيث إنّ عنصر التوحيد والبراءة من الكفر والشرك عامل مشترك بين جميع الأنبياء والدعاة إلى الله سبحانه.

التأويل والتطبيق:

قال الطبرسي في تفسيره: روى أبو الجارود، عن أبي جعفر ع: «أنَّ هذا مثل بنى أمية»^(١٦).

عن عبد الرحمن بن سالم الأشل، عن أبيه، عن أبي عبد الله ع: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّكَلْمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً» الآياتان، قال: «هذا مثل ضربه الله لأهل بيته، ولمن عادهم هو مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»^(١٧).

تعليق: هذا النحو من الروايات جاءت لتسلط الضوء على أبرز المصاديق التي توجب على الأمة التنفُّر عنها واجتنابها، فيتضح أنها ليست محصورة في تلك المصاديق بل تشمل مصاديق اليوم من يشتراك معها في الخصائص.

الوقفات المفاهيمية:

١- إننا نقف من هذا التشبيه على حقيقة أوليّة بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير، لا وهي أنَّ موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول، يقوده رسول الله الكرام، داعين بحقيقة واحدة، مجاهرين بدعوة واحدة، سائرين على منهج واحد، كلّهم يدعون إلى الوهية واحدة، وربوبية واحدة، وكلّهم لا يدعون مع الله أحداً، ولا يتوكّل على أحد غيره، ولا يلتجأ إلى ملجاً سواه، ولا يعرف له سندًا إلا إيه^(١٨).

٢- ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في هذه الآية إعلان صريح عن الغرض من وراء ضرب هذا المثل في القرآن ألا وهو التذكير للناس. وهنا رب سائل يسأل: تذكير للناس بماذا؟

أقول في مقام الجواب: هو تذكير للناس بالمعنى الأساسي الذي من أجله تسلسلت آيات سورة إبراهيم لبيانه وتوضيحه، وضررت المثال لترسيخه، وهو أن طريق سعادة البشر يكمن في التحقق بكلمة التوحيد والتنعم بكل برkatها ولوازمها الطيبة، كما أن منشأ تعاسة البشرية وانحرافها عن الأهداف المرتكزة في فطرتها يتمثل بالابتعاد عن التوحيد والكفر بالله والشرك به، فتعالوا أيها الناس وتذكروا هذه الحقيقة الثابتة والتي تنسى في زحمة انشغالات الناس بعالهم المادي وتلبية حاجاتهم الجسدية، وهذا هو طريق هدايتكم وفلاحكم وصلاحكم وحسن خاتمتكم والفوز العظيم والنجاة من العذاب الأليم.

٣- ينبغي للناس أن يواجهوا الكلمات في مداريلها الفكرية والشعرية والعملية، وفي تأثيرها علىوعي الشخصية الإنسانية للفكر، وعلى حركة الساحة في الواقع، وعلى عمق النتائج في الحياة، فلا يتوقفوا أمام الأجراء الخيالية أو الضبابية أو السحرية التي تستهوي مشاعرهم بشكل سريع، ولكنها تذوب في دخان الغرائز والشهوات، لأن قيمة الكلمة هي في عميقها وامتدادها وفعاليتها في خط الخير^(١٩).

الفرق بين التفسير والتأويل والجري والانتباط

سؤال مهم يطرح نفسه في المقام حاصله هو كيف نتعاطى مع الروايات التفسيرية التطبيقية والتي تؤول الآيات القرآنية كالتي مررت معنا في تفسير الآيات محل البحث؟

للجواب على هذا السؤال المحوري في طبيعة الدراسات القرآنية لا بد

من أن نقف على تحديد كلّ مصطلح، وهنا عندنا ثلاثة عناوين (التفسير، التأويل، الجري والانطباق) فماذا تعني؟ وما هي العلاقة بين هذه العناوين؟ وما هو الرابط بينها؟

التفسير:

هو كشف مراد الله تبارك وتعالى من ألفاظ كتابه العزيز^(٢٠). فهو تبيان للمعنى الاستعمالي والمراد الجدي لألفاظ القرآن، معتمداً على قواعد اللغة العربية ونمط المخاورات العقلائية، فهو إذاً علم يتعامل مع الظاهر وليس الباطن والخفايا، فهو يتناول القرآن بوصفه كلاماً لله سبحانه فيخرج مثل علم التجويد الذي يتناول القرآن بوصفه مقروءاً، ويخرج علم الرسم القرآني لتناوله القرآن كذلك لكن بوصفه حروفاً تُكتب.

كما أنَّ هذا العلم -وهو التفسير- مناهج متعددة، واحد منها محظوظ ويحرم التعامل معه وبه وهو التفسير بالرأي؛ حيث ورد النهي الصريح عنه من قبل المعصومين عليهما السلام والوعيد بنار جهنم، ويقصد بالتفسير بالرأي هو "قيام المفسر بالتفسير من دون مراعاة القرآن العقلية والنقلية، أو تحمل المفسر رأيه الشخصي على القرآن، أو عدم توفر الشرائط الازمة لدى المفسر"^(٢١). بينما تجوز باقي المناهج التفسيرية وهي: تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالروايات، التفسير العقلي، التفسير العلمي، التفسير الإشاري، وأفضل المناهج هو المنهج الكامل والمجامع لكلَّ هذه المناهج في عمل تفسيري واحد.

ويفرق محمد علي الرضائي الأصفهاني بين المنهج التفسيري والذي عبر عنه: "هو الاستفادة من الوسائل والمصادر الخاصة في تفسير القرآن"



الجمعية العلمية
المحمدية - بيروت - ١٧٦٣
العدد السادس والعشرون - ١٤٣٦ هـ
موقع

بيان
العلم



١٢٠

والاتجاه التفسيري والذي يعني "تأثير الاعتقادات الدينية، الكلامية"^(٢٢)، وبعبارة أخرى أنّ الاتجاه هو ذهنية المفسّر ومتبنّياته، فنرى الاتجاهات متعددة كذلك فمن المفسرين ذو اهتمام أدبي وبعض كلامي فلسطي وبعض أخلاقي وهكذا.

التأويل:

أمّا التأويل فقد عرّفه الشهيد السيد محمد باقر الصدر بقوله: "تفسير معنى اللفظ والبحث عن استيعاب ما يُؤول إليه المفهوم العام، ويتجسد به من صورة ومصداق"^(٢٣).

الجري والانطباق:

هو إسقاط وتطبيق مفاد آية من الآيات القرآنية نزلت في شأن ما على شأن آخر لم يقع في عصر النص إلا أنه واجد للخصوصيات التي اقتضت نزول الآية في ذلك الشأن.

ويجري الكلام عينه في إسراء الآيات النازلة على أمّةٍ من الأمم على أمّةٍ أخرى إذا كانت واجدةً للخصوصيات التي نزل لأجلها ما نزل على الأمم السابقة^(٢٤).

فالرابط بين هذه المفاهيم الثلاثة هو التكامل في بيان مرادات القرآن باعتباره كتاب هداية للبشر كلّهم، فأولاًً نفهم الألفاظ ثم ندرك المعاني ونتعرف على المصاديق ومن ثم نتعمق في فهم خصوصيات كلّ مسألة والتي من أجلها نزل القرآن ونجريها في زماننا فيصلح بذلك حالنا وحاضرنا، ونكون من اهتدى بالقرآن قولهً وفعلاً لا قولهً فقط، ومن هنا نجد مثل



الإمام الخميني في الآداب المعنوية للصلوة يعقد فصلاً في التطبيق، ويعتبره من أهم الآداب المهمة لقراءة القرآن، ويشرح كيفية التطبيق بقوله: "وكيفيته أنه حينما يتذكر في كل آية من الآيات الشريفة يطبق مفادها على حاله ويرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق ويسفي أمراضه به".^(٢٥)

وهنا تجد الإشارة إلى المصحح للجري والتطبيق للآيات القرآنية ألا وهو نفس كون القرآن كتاب هداية، وكما تقدم معنا في أول السورة ﴿الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ يَأْذِنُ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فهدف القرآن هو هداية الناس وتبصيرهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور في كل عصر وفي كل مكان، وهذا ما يقتضي بنفسه ضرورة الجري والانطباق، ومن هنا أكد أهل بيته العصمة والطهارة عليهما السلام على هذه الحقيقة، فمثلاً ما ورد في تفسير العياشي بإسناده عن أبي جعفر ع عليهما السلام أنه قال:

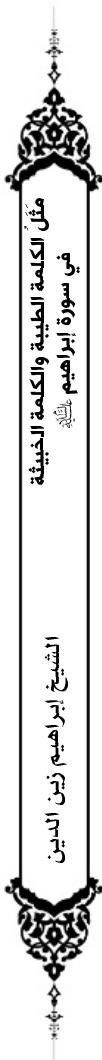
«القرآن نزل أثلاثاً: ثلث فينا وفي أحبابنا وثلث في أعدائنا وعدو من كان قبلنا وثلث سنتة ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض ولكل قوم آية يتلوها هم منها من خير أو شر».^(٢٦)

الهامش:

(١) سورة إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

(٢) الفخر الرازي، محمد، (ت: ٦٠٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج ٧، ص ١٠١، الطبعة الأولى دار الفكر - بيروت.





- (٣) من بحث للماجستير بعنوان "جماليات المثل في القرآن الكريم... دراسة أسلوبية" للطالب عيسات قدور سعد من جامعة وهران بالجزائر والمناقشة عام ٢٠١٥، ص ٣٠٦.
- (بنصرف)
- (٤) الفخر الرازي، محمد، (ت: ٦٠٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج ٧، ص ١٠٥، ط . الأولى دار الفكر - بيروت.
- (٥) سورة فاطر: ١٠
- (٦) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٤٦، ط. الأولى ٢٠١٠، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- (٧) الفيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى، تفسير الصافي، ج ٥، مكتبة الصدر - إيران - طهران، ط: ٢، ١٤١٥ هـ.
- (٨) البحرياني، سيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣١٩، ط. الثانية مؤسسة الأعلمي - بيروت ٢٠٠٦.
- (٩) الطبرسي، حسن بن فضل، مكارم الأخلاق - قم، ط: ٤، ١٤١٢ ق / ١٣٧٠ ش.
- (١٠) شرح الكافي، الأصول والروضة (للمولى صالح المازندراني)، ج ١، ص ١٤.
- (١١) ابن شعبه الحرّاني، حسن بن علي، تحف العقول - قم، ط: ٢، ١٤٠٤ / ١٣٦٣ ق.
- (١٢) سورة إبراهيم: ٢٦.
- (١٣) الطوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٢٩٣ دار إحياء التراث العربي - لبنان - بيروت، ط: ١.
- (١٤) الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٧٥، ط. الثانية ٢٠٠٥ من مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- (١٥) جماليات المثل في القرآن الكريم، ص ٣١٧ - ٣١٨.
- (١٦) مجمع البيان، ج ٦، ص ٧٥.
- (١٧) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٣٢١.

- (١٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٠٠، الطبعة العاشرة ١٩٨١ م - دار الشروق - القاهرة.
- (١٩) فضل الله، محمد حسين، من وحي القرآن، ج١٣، ص١٠٧، دار الملّاك - لبنان - بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ.
- (٢٠) اللنكراني، محمد الفاضل، مدخل التفسير، الناشر مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ط. الثالثة ١٤١٨ هـ.
- (٢١) الرضايي الأصفهاني، محمد علي، دروس في المنهاج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، الناشر مركز المصطفى العالمي للنشر والترجمة، ط. الثانية ١٤٣١ هـ. ص٢٤٧.
- (٢٢) الرضايي الأصفهاني، محمد علي، دروس في المنهاج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، الناشر مركز المصطفى العالمي للنشر والترجمة، ط. الثانية ١٤٣١ هـ. ص١٨ - ١٩.
- (٢٣) الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، الناشر مجمع الفكر الإسلامي، ط. التاسعة ١٤٣٣ هـ. ص٢٣١. هذا البحث كتبه الشهيد الصدر ونقله تلميذه الشهيد الحكيم في كتابه.
- (٢٤) صنور، محمد، شؤون قرآنية، ج١، ص١١ - ١٢، الناشر منشورات رشيد، الطبعة الأولى ١٤٣١ هجرية. (بتصريف).
- (٢٥) الخميني، روح الله الموسوي، الآداب المعنوية للصلوة، ص٣٥٣، الناشر مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٢٨ هـ.
- (٢٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي (ط-الإسلامية) - طهران، ط٤، ١٤٠٧ ق.

ال التربية الإلهية بين المحن والمنحة

الشيخ عماد علي الشعلة

الملخص:

يتطرق الكاتب في هذا المقال إلى التربية الإلهية التي تكون تارة عن طريق المحن، وتارة أخرى عن طريق المنحة وذكر المعاني المختلفة لها، والحقائق المرتبطة بالابلاء والامتحان، وأن المحن هي نوع من المنح من الله تعالى، ويقسم الكاتب الابلاء بلحاظ الفعل الإلهي إلى أنواع، ويفصل فيها المبتلى والداعف والسبب والطرق والأساليب، ثم يتطرق إلى فوائد المحن في الدنيا والآخرة، والمراحل التي يقطعها الإنسان المبتلى في طريق الشفاء من آثارها، وما يساهم في العلاج من هذه الآثار.

مقدمة:

مع كدح المرء عبر مسيرة الحياة سيشعر بالسعادة (غير المشروطة) التي تتحقق حين يدرك أن الألم والبأساء والضراء جزء طبيعي من الإجراء الإبداعي، فيجد أشياءً يسعد بها ويكون شاكراً من أجلها مع أن حياته ليست كاملة من كل النواحي.

معاني مفردات العنوان:

١- معنى التربية

توجد تعاريف عدّة في اللغة العربية لمفردة (التربية)، ونذكر منها الرأي الذي تبنّاه العديد من فقهاء أهل اللغة: يقول ابن سيده في معنى الربّ: "أصله في الاشتقاد من التَّرْبِية، وهي التَّنْشِئة، وقيل للملك ربّ لأنّه يملك تَنْشِيَةَ الْمَرْبُوب... ومنه ربّان السفينة لأنّه ينشئ تدبيرها ويقوم عليها...".

واعتبر بعض فقهاء اللغة أنّ أصل مفردة ربّ هي: إصلاح الشيء والقيام عليه^(٢).

لذلك نستطيع نسبة التربية لله تعالى فنقول: التربية الإلهية.

مرادفات التربية في القرآن الكريم والنصوص الدينية:

يعتبر القرآن الكريم وسنة الموصومين عليهما المطرودين المصدرين الأساسين اللذين يستمدّ منها المنهاج التربويّ الأفضل في العملية التربوية. وهناك مرادفات وردت في النصوص القرآنية والروائية لها علاقة بالعملية التربوية، ونذكرها بإيجاز:

١- التزكية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرِيكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣).

والتزكية: أن يفعل الإنسان كلّ ما يُصبح به هو أو غيره زكيًا طاهراً صالحاً^(٤).

٢- التطهير: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُظَهِّرُهُمْ وَتُرْزِّقُهُمْ بِهَا﴾^(٥).

والطهارة في اللغة: بمعنى النقاء وزوال الدنس^(٦).

٣-الهداية: قوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٧).

وعن النبي ﷺ: «وَاللَّهُ أَلَّا يُهْدِي بِهَاكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حِمْرِ النَّعْمٍ»^(٨).

والهداية في اللغة: بمعنى الإرشاد، والدلالة على طريق الرشد، والإيصال إلى المطلوب^(٩).

٤-التهذيب: عن الإمام علي عليه السلام: «الاستغلال بهذب النفس أصلح»^(١٠).

٥-التأديب: عن الإمام علي عليه السلام: «سبب تزكية الأخلاق حسن الأدب»^(١١).

عن رسول الله ﷺ: «أَدَبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»^(١٢).

والتربيـة الـإلهـيـة -كما جاءـتـ فيـ القرآنـ الـكـرـيمـ - صالحـةـ للـتطـبـيقـ بـالـنـسـبةـ إلىـ جـمـيعـ أـفـرـادـ النـوـعـ الـإـنـسـانـيـ، سـوـاءـ الـأـبـيـاءـ مـنـهـمـ أوـ النـاسـ الـعـادـيـونـ.

عن الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنَينَ أَدْبًا حَسَنَا، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ﴾»^{(١٣) ، (١٤)}.

عن الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ الْبَلَاءَ لِلظَّالِمِ أَدْبٌ، وَلِلْمُؤْمِنِ امْتِحَانٌ، وَلِلْأَبْيَاءِ دَرَجَةٌ، وَلِلْأُولَيَاءِ كَرَامَةٌ»^(١٥).

عن الإمام الحسين عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَا تَسْتَدِرْ جُنْيِ بِالْإِحْسَانِ، وَلَا تُؤَدِّبْنِي بِالْبَلَاءِ»^(١٦).

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي، لا تُؤَدِّبْنِي بِعُقوَبَتِكَ، وَلَا تَمْكِنْنِي فِي حِيلَتِكَ»^(١٧).

عن الإمام العسكري عليه السلام: «رَبِّيَا كَانَتِ الْغَيْرُ نَوْعاً مِنْ أَدْبِ اللَّهِ عَجَلَّ»^(١٨).

٢- معنى التربية الإلهية

هي التربية الشاملة لجميع جوانب الشخصية الإنسانية (البعد المعنوي أو الإياني بعية الأبعاد العقلية، والاجتماعية، والعاطفية، والأخلاقية) والتي تنسجم مع الفطرة البشرية (تلبي حاجات الإنسان الذي ينزع نحو الرُّقي والكمال فطرياً) وتحقق السعادة الأبدية (تケفل له السعادة السرمدية أيضاً من خلال شدّه إلى بارئ الوجود، وهدايته نحوه).

هي أسمى أنواع التربية وأكثرها عطاً للإنسان والتي تهدف إلى النمو الروحي، والتهذيب النفسي، وتنمية السلوك، وتعويذ النفس على العادات الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والمثل الكريمة^(١٩).

٣- معنى المحنـة

مرادفات المحنـة في القرآن الكريم^(٢٠)

المَحْنَةُ: البلاءُ والبلية، المصيبة، الشدّة، الخبرة، الاختبار، الامتحان

المَحْنَ: العطية

المَحْنَةُ: ما يُمْتَحَنُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ بَلِيهَّ أَوْ مُصِيبَةٍ.

المَحْنَةُ: ما يُمْتَحَنُ الْإِنْسَانُ بِهِ مِنْ بَلِيهَّ، تجربة شديدة مؤلمة، وخاصة تلك التي تختبر الشخصية أو القدرة على التحمل.

المَحْنَةُ: اختبار وتحصيل نتيجة بالدأب والجد في العمل.

الافتتان: يلاحظ فيه إيجاد اختلال واضطراب حتى يتحصل المطلوب والنتيجة.



الابتلاء: من البلو بمعنى التحول والتقلب واختياره.

آثاره ولوارمه: التصفية - التخلص - النظر - التذليل - الشرح - التهذيب - التوسيعة.

الشدّة: ما يقابل الرخاوة

المصيبة: أي ما جرت على الصحة والحق (الإصابة).

المصيبة: شدة العذاب ووقوعه على ما هو حقه وفي شأن المورد.

التمحيص: التخلص مع الإبقاء والتشبيت.

من مصاديقه: تنقية الشيء وإيقاؤه - تطهير الشيء من الدنس وتشبيته.

التمحيص: الابتلاء - الاختبار.

آثاره ولوارمه: الانجلاء - الانكشاف - التحول - التخلص.

ضدّه: الحق.

٤-معنى المنحة

مرادفات المنحة في القرآن الكريم^(٢١):

البسط: هو الامتداد في توسيع، ويقابلة القدر والقبض.

المدّ: هو بسط من خارج في جهة أو في جميع الجهات. وبهذين القيدين
قتاز المادة عن مفهوم البسط، فإنّ البسط امتداد في نفس الشيء مع التسوية.

والمادة تستعمل في الأمور الماديّة والمعنوية.

الإنفاق والنفقة: الإعطاء.

الإنفاق: إجراء شيء وجعله في جريان حتى ينقضي وينفذ، وهذا معنى مطلق، إلا أنه ينصرف عرفاً إلى مفهوم الإعطاء الملحوظ فيه نسبة الفعل إلى الفاعل وصدره منه.

نعم: هو طيب عيش وحسن حال. وهذا في قبال المؤس وهو مطلق شدة ومضيقه.

الإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير.

الإحسان: فهو يعني جعل شيء ذا حسن أو جعله حسناً.

الرزق: هو إنعام مخصوص بقتضى حال الطرف ومطابق احتياجه لتANDOM به حياته، ويكون بالإدرار وبالجريان اللازم. وهذه القيود هي الفارقة بينه وبين مفاهيم الإحسان والإنعام والإعطاء والحظ والنصيب والإنفاق.

فإن الإحسان: مطلق الإتيان بالحسنة بأي نوع من العمل. وقيد إدامته الحياة والإدار غير ملحوظ في الإنعام والإنفاق والإعطاء، إلا أن الإنعام لازم أن يكون في الحسنات، وهو من النعمة ويوجب الشكر عليها. والإعطاء أعم من حسنة وغيرها ولا يلزم خروج العطية عن ملك المعطى. وهذا بخلاف الإنفاق فإن النفقة تخرج عن ملك المنفق وتلاحظ فيه جهة حاجة الطرف ولا يلزم أن يكون في حسنة. والنصيب: ما يتعمّن وينصب لينال الطرف محبوباً أو مكروهاً وهذا بخلاف الحظ: فاته مما يحظه الله للعبد من الخير.

والنصيب والحظ يجوز فيما القطع بخلاف الرزق فيدوم ويدر.

شَمْ إِنَّ الرَّزْقَ الْحَقِيقِيْ: هُوَ الْعَطَاءُ الْجَارِيُّ وَلَا يَكُونُ إِلَّا حَلَالًا، بِخَلَافِ
الغَذَاءِ وَالنَّصِيبِ وَالْعَطَاءِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ فِي الْحَالَلِ وَفِي الْحَرَامِ.

وَالرَّزْقُ إِمَّا فِي الْمَادِيَاتِ كَمَا فِي - ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ...
﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ...، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمَراتِ﴾.

وَإِمَّا فِي الْمَعْنَوَيَاتِ كَمَا فِي - ﴿أَوْ مَا تُوا لَيْرُزُقْنَاهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ...، بَلْ
أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ...، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أَوْ فِيمَا يَعْمَمُ مِنْهُمَا كَمَا فِي - ﴿وَمَا مِنْ ذَابِبٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
...﴾، - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ - فَانِ رِزْقُ كُلِّ بَحْسِبِهِ.

وَالرَّزْقُ هُوَ الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ بَعْدَ التَّكْوِينِ وَالْإِيجَادِ، وَهُوَ إِدَامَةُ الْحَيَاةِ
وَتَكْمِيلُ الذُّوَاتِ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ. فَاللَّهُ تَعَالَى أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ جَسْمَانِيًّا أَوْ
رُوْحَانِيًّا شَمْ أَعْطَى كَلَّا مِنْهَا بِحَسْبِ اقْتِضَاءِ فَطْرَتِهِ رِزْقًا لَهُ، وَذَلِكُ هُوَ الْهَدَايَا
التَّكْوِينِيَّةُ إِلَى كَمَالِ الْوُجُودِ وَالسُّوقِ إِلَى السِّيرِ الصَّعُودِيِّ.

فَظَهَرَ أَنَّ الرَّزْقَ يَتَمَّ بِهِ التَّكْوِينِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَفَاتِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْمَتَعَالِ، وَهُوَ مَرْحَلَةُ بَسْطِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وَمِنْ مَرَاتِبِ الْهَدَايَا.

﴿وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ...﴾، - ﴿الَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ﴾، - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ
يَرْزُقُكُمْ﴾.

الْعَطَاءُ: هُوَ إِيْتَاءُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ بِمَقْنَصَى مَا فِي النَّفْسِ مِنْ عَظَمَةٍ أَوْ التَّزَامِ،
مِنْ دُونِ نَظَرٍ إِلَى جَهَةِ تَمْلِيكِهِ أَوْ غَرْبَهُ أَوْ عَوْضِهِ أَوْ غَيْرِهَا.

كَمَا أَنَّ النَّظَرَ فِي الْجَوْدِ: إِلَى كُثْرَةِ الْعَطَاءِ الْمُنْبَعَثَةِ مِنْ صَفَةِ الْجَوْدِ فِي الْقَلْبِ

وفي الهبة: إلى جهة التمليل من دون توجّه إلى ما يقابلها.

وفي السخاء: إلى جهة صفة اللينة والتمليل إلى الجود في القلب.

وفي البذل: إلى جهة مطلق نقل شيء إلى آخر من دون نظر إلى خصوصيّة في البازل من تفوق، ومن دون نظر إلى عوض.
فيلاحظ في الإعطاء قيدان: الإيتاء، واقتضاء النفس.

الهبة: هي عطاء من دون نظر وتوجّه إلى ما يقابلها من العوض. وسبق في عطا: الفرق بين كلمات تقارب مفهوم الهبة.

ولا فرق بين أن يكون الهبة في موضوع تكويني أو موضوع خارجي موجود أو في علم وحكم أو في مقام أو في مال وملك.

حقائق وسفن إلهية مرتبطة بالابتلاء:

الابتلاء ملازم الإنسان منذ ولادته إلى مماته.

لا مفر من الابتلاء.

الابتلاء يستوعب كل شيء في حياة الإنسان (كل ما هو مسؤول عنه الإنسان).

١- أخطر مجال يستوعبه الابتلاء هو الدين.

المحن هي من المحن (الابتلاء بالمحن والمنح):

﴿كُلُّ نَفِيسٍ ذَاقَهُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَهُ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢٢).

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْخَيْرَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢٣).

﴿فَإِمَّا إِلِّيْسَانٌ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيْ أَكْرَمَنِ ﴾ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّيْ أَهَانَنِ﴾^(٢٤).

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾^(٢٥).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا إِلِّيْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَرَعَنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُؤْسِ كُفُورُ ﴾ *
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتُهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُور﴾^(٢٦).

﴿وَأَسْبَعَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(٢٧).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^(٢٨).

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾^(٢٩).

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(٣٠).

ويتضح ذلك جلياً ما يأتي خلال معرفة أنواع الابتلاء.

أنواع الابتلاء(المحن):

الابتلاءات بلحاظ الفعل الإلهي:



١٣٣

| الابتلاءات | المبتلى | المعاند والحادي والمنكر والمكذب بآيات الله تعالى | المثال | الدعابة والظلمة | العذاب | السبب | الداعم من الابتلاء | الطرق والأساليب | الملاحظات |
|-----------------------------|---|--|----------------|-----------------|---|---------------------------------------|--------------------|--|-----------|
| ١-ابتلاء الاستدراج (الإماء) | العاند والحادي والمنكر والمكذب بآيات الله تعالى | المعاند والحادي والمنكر والمكذب بآيات الله تعالى | الطغاة والظلمة | العذاب | ١-لكي يزداد ويستمر في الاثم والطغيان والبعد والظلم لإقامة الحجة البالغة | الأخير والنسينان والاختياري والتعتمدي | الامتحان | المكر والكيد والإعراض والنسينان والاختياري والتعتمدي | ١٣٣ |

| | | | | | | |
|----------------|---|--|--------|--|--|---|
| | | ٣-لبيان أن الله تعالى لا يجعل لأنه لا يخاف الفت | | | | |
| | | ١-لكيلا يزداد الإذلال والإهانة والإهلاك والطغيان والبعد والدقّ والحطّم والظلم. ٢-فرج للمؤمنين وتقريب الموت | المحبة | الأقوام التي حلّ بها العذاب | من لا خير فيه | ٢-ابتلاء القسم |
| كل بحسب مرتبته | ١-الإبعاد عن الشر ٢-التقريب إلى الشر ابعاداً له عنه (مثل: تعليم الطفل حرارة النار) | ١-التنزيه ٢-التطهير | المحبة | الأنبياء والأئمة والأولياء والأنبياء والصلحاء والمؤمنون والعابدون | من يحتاج إلى انذار، تقرير، تحذيف والدفع عن الدرء والردة والكفّ والتنفيذ والتبييض والإكراه) | ٣-ابتلاء الردع (التجنيد والميل عن والتنحية والتحريف والمنع والدفع عن والدرء والردة والكفّ والتنفيذ والتبييض والإكراه) |
| كل بحسب مرتبته | ١-التقريب إلى الخير ٢-الإبعاد عن الخير تقريراً له إليه (مثل: الحرمان لمعرفة قيمة الأشياء) | ١-التبنيت ٢-الاستدامة واللزوم ٢-التطهير | المحبة | الأنبياء والأئمة والأولياء والأنبياء والصلحاء والمؤمنون والعابدون | من يحتاج إلى تشجيع، تحفيز، تذكير والسحب) | ٤-ابتلاء الجذب (الشد والدفع إلى والميل إلى والجر والجلب والسوق |
| | ١-التدريج ٢-الاختيار | ١-رفع الدرجات ٢-التجميل | المحبة | الأنبياء والأئمة والأولياء والصلحاء والأعزاء والمؤمنون والعابدون والزهاد | من يستحق المقامات الرفيعة | ٥-ابتلاء الرفع (الصعود والرقي والاعتلاء والسمو والعروج والاسراء) |

| | | | | | |
|--|--|---|--|--|--|
| | | ١- اقتداء الناس والتآسي بهم والتعلم منهم والاستفادة من قدراتهم وتجاربهم والرجوع إليهم ٢- التقرب إلى منزلتهم ٣- رفع الدرجات لكونهم سبب للهداية | المحبة الأنبياء والأئمة والأولياء والصلحاء والمؤمنون والعبدون والزهاد | من ي يريد الله تعالى بيان مقاماتهم وصفاتهم وملكاتهم وقدراتهم وعلوهم وطاقاتهم في جميع الحالات | ٦- ابتلاء الكشف (الإظهار) والإيضاح والتبيان والاطلاع والإبراز) |
|--|--|---|--|--|--|

فوائد المحن ومنافعها: (أسباب المحن):

١- تحقيق العبودية لله رب العالمين وقوية العلاقة معه.

معرفة الله تعالى - حتى لا يتعلق القلب بسواده - أنه القادر ولا غيره.

٢- تفجير القابليات الكامنة إلى حيز الفعلية، على سبيل المثال: صفة الشجاعة فإنها تستلزم المحاذاة وغيرها^(٣١).

٣- إعداد للمؤمنين للتمكين في الأرض: امتحان - صبر - خلافة (وراثة) - تمكين^(٣٢).

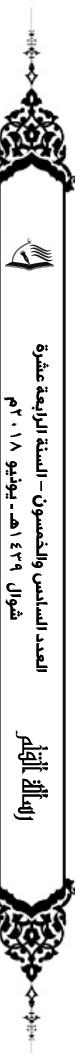
٤- حصول الأجر ورفع الدرجات^(٣٣).

٥- الحصول على الصلوات والرحمة والهداية^(٣٤).

٦- الرجوع إلى الله تعالى^(٣٥).

٧- فرصة لتحويل مسار الحياة (من الغفلة إلى اليقظة).

٨- فرصة لتحديد الأولويات.



٩- فرصة لمعرفة النفس (نقاط القوة والضعف).

١٠- درسٌ من دروس التوحيد والإيمان والتوكّل والرضا والتسليم والصبر.

١١- إخراج العجب والتكبر من النفوس^(٣٦).

١٢- فرصة لإظهار حقائق الناس ومعادنهم من حولنا^(٣٧).

١٣- كفارة للذنوب (تطهير) لكيلا تتراءكم على القلب فيغطيها الرين فيعمى^(٣٨).

١٤- التذكير بالذنوب للتوبة منها^(٣٩).

١٥- جعل الحياة لها قيمة وإدراك قيمة الأشياء (من بعد الحرمان والحننة).

١٦- كشف حقيقة الدنيا وزيفها وأئمها متع الغرور^(٤٠).

١٧- الاستيقاظ إلى الجنة والخلاص من الدنيا^(٤١).

١٨- الإحساس بالآلام المحرّمين لمساعدتهم والدعاء لهم.

١٩- توازن الحوف والرجاء.

٢٠- التربية والإعداد والتدريب والتأهيل الحازم، لكل من: إثبات قدرة التحمل - الاعتماد على النفس - صقل المهارات - زيادة الصلابة - الخبرة - الإرادة - التصميم - العزيمة - الحماسة الصادقة - الثبات - النشاط والثابرة - التحدي - العمل الدؤوب - عدم الاستسلام - إثبات الكفاءة - نضج الشخصية.



٢١- الحصول على التقدير (العزم الواضح يفرض الاحترام).

٢٢- الشعور بلذة الانتصار.

٢٣- استثمار ما يوجد من حولنا.

٢٤- التهذيب وليس للتعذيب.

٢٥- الإيمان في الرخاء يقوى في الشدة^(٤٢).

٢٦- اليأس من الناس والنفس والثقة بالله تعالى^(٤٣).

٢٧- الإخلاص لله تعالى.

مراحل الشفاء من الشدة^(٤٤) (المحن)^(٤٥):

١- التمزق: حالة طبيعية يمر بها المصاب تستلزم منه وقتاً للتغلب على مصابه ويختلف هذا الوقت من شخص لآخر.

٢- التفكير: هي المرحلة التي تتضمن تقبل فقد وتهيئة النفس لبداية جديدة، وهي فترة إعادة التقييم ومراجعة الحياة الجديدة التي يضع المرء أقدامه على اعتابها، عليه حينها أن يجيب عن الأسئلة التالية:

١٣٧

١- ما هو هدفه في الحياة؟

٢- ما هي التغييرات التي عليه إجراؤها؟

٣- ما هي الأفكار التي يجب أن يتخلص منها؟

٤- إعادة البناء: تتلخص هذه المرحلة في مبدأ (النظر إلى الخسارة كاحتمال) واستخدام الإبداع لتحمل التغيير ومن خطوات الوصول إلى الحل

الإبداعي: التحضير - الاحتضان - الكشف - التقييم - الدراسة، وعلى المرء في هذه المرحلة أن يسعى لخلق حلم جديد ويتعرف على الهدف الحقيقي الأهم، لأن الأحلام بثابة مؤشرات ومعالم طريق فمتابعة حلمك أمر لا يتعلق بالخطأ والصواب بل بالنحو والتحول.

٤- التجدد: في هذه المرحلة تتقلص تأثيرات فقد وتبز شعارات كاستمرارية الحب في كونه قيمة تستنهض المرء للعمل واكتساب صبغة جديدة للحياة ووقف المعاناة هنا ليس أمراً مطلوباً في حد ذاته ولكنه نتيجة للقبول.

حقائق ومبادئ ورؤى دينية وتصورات كونية للحياة تساهم في العلاج:

أولاً: التسليم (الفصل بين التسليم والاستسلام)، فالتسليم: إيمان بأن الله تعالى سيعينه وأن كل شيء ممكن الحدوث، فالتسليم يتبع المجال لتدفق الإبداع. والاستسلام: شعور بالعجز يؤدي إلى الاكتئاب والشلل، وهو يعني التخلّي عن القوة، ويخنق الإبداع^(٤٦).

ثانياً: الثقة بالنفس باعتماد الأفكار الإيجابية

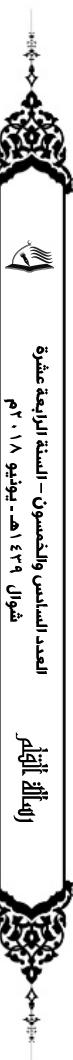
ثالثاً: التواصل مع الآخرين للحصول على خبرتهم

رابعاً: تحويل المحن إلى نعم^(٤٧):

١- احتضان المحن كفرصة للتحويل.

٢- تعديل شكل الفقدان ليصبح إمكانية.

٣- التخلّي عن حالة (ما قبل الفقد).



٤- تقدير قيمة الأشياء التي يتلوكها المرء بدلاً من التركيز على ما تم فقده.

٥- معنى الحمد والشكر.

٦- ﴿فَاصِرْ صَرِّا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾^(٤٨)، «ما رأيت إلا جميلا»^(٤٩).

يُسأل أحد الفلاسفة: ما هي الشدائد كي تجعل الإنسان يتذمر تحت وطأتها؟ قال: إنها الألم الناجم عن ثقب أذن الحسنا، حيث تعلق الجوادر الشمية مكان الجرح.

٧- ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح في الخبر: (لن يغلب عسر يسر) ^(٥٠).

٨- ابتلاء الإنسان على حسب دينه - طاقته - قدراته ^(٥١).

٩- القناعة كنز لا يفنى.

١٠- تقبل نتيجة الخطأ ^(٥٢).

١١- الحبة الإلهية: «سُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْتَدِي عَلَى أَهْلِ مُلْكَتِهِ سُبْحَانَ مَنْ لَا يُأْخُذُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِالْأَوْلَانِ الْعَذَابِ سُبْحَانَ الرَّؤوفِ الرَّحِيمِ»^(٥٣) الله تعالى أراد لنا الخير ويخفى تحت الحنة منحة ونحن لا نعلم «يا مَنْ سَبَقْتُ رَحْمَتَهُ غَضَبَهُ»^(٥٤) «يا خفي اللطف الطف بي بلطفك الخفي»^(٥٥).

عن رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، أنتم كالمرضى، ورب العالمين كالطبيب، وصلاح المريض فيها يعلمه الطبيب وتدبره به، لا فيها يشتهيه المريض ويقترهه إلا فسلموا الله أمره تكونوا من الفائزين»^(٥٦).

الغزالى
^(٥٧)

"ليس في الامكان أبدع مما كان أو ليس في إمكانى أبدع مما أعطانى"

١٢- العدالة الإلهية: لا تكون نتيجة السباق دوماً لصالح الأسرع، كما أن الفائز في المعركة ليس الأقوى دائماً. (مثال: سباق قفز الخيل).

١٣- علينا أن نأخذ في اعتباراتنا العوائق والأعباء التي حملناها والظروف المعاوقة التي اجتنزناها من تعلم غير كافٍ ومن ظروف تربية سيئة وتأهيل ناقص وبيئة معادية وظروف محيطة غير مناسبة عند توزيع جوائز الحياة في النهاية، سيؤخذ بعين الاعتبار المسافة التي قطعناها والأنقال التي حملناها والإعاقات التي كبلتنا. وليس فقط المسافة التي قطعناها بل الصعوبات التي تخطيناها والظروف المعاكسة التي أعادتنا في أثناء السباق ثم تحدد الجائزة^(٥٨).

١٤- لا يوجد في الدنيا شيء بالجانب لكل شيء جزاء: معجل، مؤجل. هناك جزاء حتى لو كان من صنف آخر: مادي، معنوي.
الجزاء (الثمن): عطاء أو أخذ (سلب).

اللذة الجنسية: حمل - ولادة - تربية - مسؤولية، من دون حمل - حرمان من مشاعر الأمومة.

١٥- ما حصل عليه بصعوبة لا يفقد بصعوبة، وما حصل عليه بسهولة يفقد بسهولة.

١٦- الابلاء شيء لا بدّ منه (الابلاء من القضاء والقدر الجاري سواء بالصبر أو بالجزع).



١٧- الدنيا في الأصل دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، ودار بلوى.

من عرِفَ الدنيا لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، لأن الرخاء مؤقت والشقاء مؤقت.

١٨- لا راحة في هذه الدنيا، لذلك يقال إن الموت راحة: راحة للمؤمن، راحة من الفاجر.

١٩- دوام الحال من الحال.

٢٠- كلما زاد إيمان المؤمن اشتد الابلاء (الأمثل فالأمثل)^(٥٩).

٢١- على المرء أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه (ارحم ترحم)^(٦٠).

٢٢- ١٠٪ من الحياة يتوقف على ما تفعله أنت، ٩٠٪ على طريقة تقبيلك للحياة. إيرفيج برلن.

٢٣- توطين النفس على المحن.

٢٤- لا تعتقد أنك الوحيد المبلي (الكل يبتلى من دون استثناء).

٢٥- دائمًا هناك من هو أشد ابتلاءً منك.

خطوات عملية:

أ- تأمل قصص الأنبياء والأئمة والأولياء وفيها السلوى والاسوة^(٦١).

ب- تأمل الآيات والأحاديث في هذا المجال.

ج- عدم السخط والشكوى للناس.

د- الاستغفار.

هـ- الصدقة.

وـ- الدعاء:

١- روى ثقة الإسلام في الصحيح عن أبي الحسن موسى عليه السلام: «ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيلهمه الله تعالى الدعاء إلا كان كشف ذلك البلاء وشيكةً وما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء إلا كان ذلك البلاء طويلاً فإذا نزل البلاء فعليكم بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى»^(٦٢).

٢- روى ثقة الإسلام في الكافي بسند صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا نزلت برجلٍ نازلةً أو شديدةً أو كربةً أمرٌ فليكشف عن ركبتيه وذراعيه وليلصقها بالأرض وليرزق جؤجؤه^(٦٣) بالأرض ثم ليدع بحاجته وهو ساجد»^(٦٤).

الهوامش:

(١) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسبي، المخصص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ل.ات، ل.ط، ج.٥، ق.٢، ص.١٥٤-١٥٥.

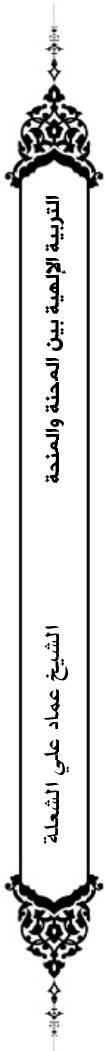
(٢) ابن زكريا، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، ل.ط، ج.٢، ص.٤٨٢-٤٨٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٤) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ، ط.١، ج.١، ص.٤٦٧. والطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، طهران، انتشارات ناصر خسرو، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط.١، ج.١٠، ص.٦.

(٥) سورة التوبة: ١٠٣.





- (٦) ابن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٤٢٨.
- (٧) سورة الشورى: ٥٢.
- (٨) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ط ١، ج ٢، ص ٧١٤، ح ٩٦٠٦.
- (٩) العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، تنظيم الشيخ بيت الله بيّات، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١٢ هـ ط ١، ص ٤٢.
- والراقي الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، بيروت، الأميرة للطباعة والنشر، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، ط ١، ص ٧٠٥.
- (١٠) الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين الحسني البيرجندی، لا.م، دار الحديث، لا.ت، ط ١، ص ٤٧.
- (١١) الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٢٨١.
- (١٢) مجمع البيان: ١٠/٥٠٠.
- (١٣) سورة البقرة: ٢٧٣.
- (١٤) مطالب المسؤول: ٥٥.
- (١٥) بحار الأنوار: ٨١/٥٥.
- (١٦) بحار الأنوار: ٧٨/١٢٧.
- (١٧) الإقبال: ١/١٥٧.
- (١٨) نزهة الناظر: ٤٤/٣.
- (١٩) النظام التربوي في الإسلام - دراسة مقارنة - ص ١٢، باقر شريف القرشي.
- (٢٠) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١١، ص ٤٣ - ٤٥.
- نفس المصدر السابق ج ١، ص ٣٦١ - ٣٦٤.
- نفس المصدر السابق ج ٦، ص ٣١ - ٣٣.
- نفس المصدر السابق ج ٦، ص ٣٥٤ - ٣٥٨.
- نفس المصدر السابق ج ١١، ص ٣٨ - ٣٩.

- (٢١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٨، ص ٢٠٩-٢١٢.
- نفس المصدر السابق ج ١٣، ص ٢٣٢-٢٣٤.
- نفس المصدر السابق ج ١١، ص ٥٣-٥٦.
- نفس المصدر السابق ج ٤، ص ١١٥-١١٨.
- نفس المصدر السابق ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٣.
- نفس المصدر السابق ج ١٢، ص ١٧٧-١٨٢.
- نفس المصدر السابق ج ١٢، ص ٢٠٦-٢٠٩.
- نفس المصدر السابق ج ١، ص ٢٦٩-٢٧٠.
- (٢٢) سورة الأنبياء: ٣٥.
- (٢٣) سورة الأعراف: ١٦٨.
- (٢٤) سورة الفجر: ١٥-١٦.
- (٢٥) سورة الفتح: ١١.
- (٢٦) سورة هود: ١٠.
- (٢٧) سورة لقمان: ٢٠.
- (٢٨) سورة الأنعام: ١٥١.
- (٢٩) سورة الأنعام: ١٢٠.
- (٣٠) سورة الروم: ٧.

(٣١) عن الإمام الصادق ع: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْ يَخَافُهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَزِيزٌ فِي دِينِ اللهِ وَلَا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَامٌ كُلُّ مُؤْمِنٍ» صفات الشيعة: ص ١١٤، ح ٥٥ عن أبي العلاء، بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٠٥، ح ٣٦.

عن الإمام الصادق ع، قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَخْشَعُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ. ثُمَّ قَالَ ع: إِذَا كَانَ خَلِصًا لِللهِ أَخَافَ اللَّهَ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ هَوَامُ الْأَرْضِ وَسِبَاعُهَا وَطَيْرُ السَّمَاءِ». صفات الشيعة: ص ١١٥ ح ٥٦، الأمان: ص ١٢٧، جامع الأخبار: ص ٢٦٨

ح ٧٢٢، الدعوات: ص ٢٢٧، ح ٦٢٧ و ٦٢٨ كلها بزيادة (ويهابه كل شيء) بعد (كل

شيء) الاولى، مشكاة الأنوار: ص ٤، ح ١٤ نحوه، بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٠٥، ح ٣٦.

(٣٢) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ أُولَارِثِينَ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَخْدُرُونَ﴾ (٥ - ٦) القصص.

(٣٣) ﴿إِنَّمَا يُوَفَّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ١٠ الزمر.

(٣٤) ﴿وَلَبَلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحُنُوفِ وَالْجُنُوحِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَدِّدُونَ﴾

(٤٥ - ٤٧) البقرة.

(٣٥) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) البقرة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥) الأنبياء ﴿وَبَلَوَنَا هُمْ بِالْخَيْرَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨) الأعراف.

(٣٦) ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَغْبَجْتُكُمْ كَثُرْتُكُمْ﴾ [التوبه: ٢٥]

(٣٧) مثل ذلك: التصفيات في المباريات العالمية، يريك الذين تغبطهم من أهل الدنيا فيكشف لك ابتلاءاتهم التي يشيب لها الرأس.

(٣٨) ﴿كَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكُسِّبُونَ﴾ (١٤) المطففين.

(٣٩) ﴿وَمَا أَصَابَكُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفِسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا

أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَلَئِنْ يَنْهَمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدَمَيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

(٤٠) ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

(٤١) الفصل الخامس (في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفارى رضي الله عنه) يا أبا ذر: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وما أصبح فيها مؤمن إلا حزينا، فكيف لا يحزن المؤمن وقد أوعده الله جل ثناؤه إنه وارد جهنم ولم يعده أنه صادر عنها وليلقين أمراضاً ومصيبة وأموراً تغيهظه وليظلمن فلا ينتصر، يبتغي ثواباً من الله تعالى فلا يزال حزيناً حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة. مكارم الأخلاق ص ٤٦١.

(٤٢) **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾** (٦٥) العنكبوت.

ومن خطبة لأمير المؤمنين ع: (يصف فيها المتقيين): «نَزَّلْتُ أَنفُسَهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نَزَّلْتُ فِي الرَّحَاءِ» (نهج البلاغة الخطبة [١٩٣] ص ٤٧٨).

وعن رسول الله ﷺ: «يا أباذر! ألا أعلمكَ كُلَّمَا تَيْنَقُّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ، قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ احْفَظِ اللَّهَ تَحْبِدُهُ أَمَامَكَ، تَعْرَفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّحَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ...»....كتاب مكارم الاخلاق ص ٤٦٠ - كتاب (تنبيه المخاطر ونزعه الناظر) المعروف بـ (مجموعة ورثام) - بحار الانوار المجلد ٧٤ نقلًا عن كتاب (مكارم الاخلاق) ويدرك لها أسانيد أخرى.

(٤٣) عن أمير المؤمنين ع: «اسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ وَاحْتَاجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ». الإرشاد في معرفة حجج

الله على العباد، ج ١، ص ٣٠٣.

عن الإمام الباقر ع: «بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدُ لَهُ طَمَعٌ يَقُودُهُ وَبِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدُ لَهُ رَغْبَةٌ تُذِلُّهُ». الكافي، ج ٢، ص ٣٢٠.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَسْأَلَ رَبَّهُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ فَلِيَأْسُ مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ وَلَا يَكُونُ لَهُ رَجَاءٌ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ بِعِنْدِ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِهِ لَمْ يَسْأَلْ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ». الكافي، ج ٢، ص ١٤٨.

(٤٤) كتاب: الشدائند تصنع الأقوباء (تحويل المحن إلى نعم).

(٤٥) مثال: المغمى عليه في حادث وقد رجله.

(٤٦) عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين ع: «أوحى الله تعالى إلى داود ع: يا داود تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن أسلمت لما أريد أعطيتك ما تريده، وإن لم تسلم لما أريد أتعبرتك فيما تريده، ثم لا يكون إلا ما أريد». كتاب التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٣٣٧.

(٤٧) كتاب: الشدائند تصنع الأقوباء (تحويل المحن إلى نعم).

(٤٨) سورة العارج: ٥-٧.

(٤٩) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ع): ٤٥ / ١١٥.

(٥٠) رواه الطبراني في الكبير (٨٥ / ١٠)، وفي الأوسط (١٤٥ / ٢)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٢٨٠)، ذكره ابن حجر في الفتح (٩ / ٧٣٠)، الدر المنثور ٥٠٢ / ١٥.

(٥١) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَخْمَلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُخْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦) البقرة.

(٥٢) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يُكْلِلُ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (١١) التغابن.

(٥٣) مستدرك الوسائل، ج ٢٢، ص ٧٨.

(٥٤) كتاب علم اليقين، ج ١، ص ٥٧.

(٥٥) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٩١، ص ٣٦٩.

(٥٦) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٤٥.

(٥٧) الحكمة المتعالية، ج ٧، ص ٩١، فصل ٧.

(٥٨) بتصرف من مقال: الشدائـد والمحنـ يا لروعـة فوائـدـها: خفايا التغييرـ والنـجـاحـ . ١٤

يولـيوـ ٢٠١٥ بـواسـطة ALABAAD ALKHAFIA من موقع مجلـة الأبعـاد الخـفـيـةـ

- تـصدرـ منـ دـارـ الـيقـظـةـ للـصـحـافـةـ وـالـنـشـرـ وـالتـوزـيعـ [/http://alabaadalkhafia.com/problems](http://alabaadalkhafia.com/problems)

(٥٩) الكافي: ١/٢٥٢/٢.

(٦٠) الأمالي للصدوق: ٣٠٨/٢٧٨.

(٦١) نماذج:

١- ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودَ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٤-٨) البروج.

٢- ﴿ وَلَمَّا رَأَىٰ الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيْمًا﴾ (٢٢) الأحزاب.

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْفُلُوْبُ الْحَتَّاجِرَ وَتَظْلُوْنَ بِاللَّهِ الظُّلُوْنَا * هُنَالِكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْرِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١-١٠) الأحزاب.

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمُّهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا * لِيُجزِي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَنْهَا عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢٣-٢٤) الأحزاب.

﴿ طَسْمٌ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضْعِفُ

طائفةٌ مِّنْهُمْ يُذَبَّحُ أَبْنَاءُهُمْ وَيَسْتَخِي نِسَاءُهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلُوهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلُوهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمٍّ مُوسَى أَنَّ أَرْضِيهِ إِنَّا خَفَّتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوْهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨﴾ القصص.

٣ - **﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مَرْسَارَ لِإِمْرَاتِهِ أَكْرِمِي مَثَوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَسْخَدُهُ وَلَدًا وَكَذِيلَكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْعَلَّمُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلُكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذِيلَكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾** يوسف.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اثْتُوْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِتَنْفِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَرَائِنِ الْأَرْضِ إِلَيْ حَفِيظٍ عَلِيمٍ * وَكَذِيلَكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ يوسف.

٦٢) الكافي، ج ٢، ص ٤٧١، ح ٢.

٦٣) الجو جو: الصدر.

٦٤) الكافي، ج ٢، ص ٥٥٦، ح ٣.

الفحص عن المعارض وجريان الاستصحاب

الشيخ جعفر سلمان آل طوق

الملخص:

إذا ثبتت الحجية للدليل فلا بدّ من رفع المعارض له كي يمكن الاستدلال به، فبحث الكاتب في هذه المقالة مسألة وجوب الفحص عن هذا المعارض من عدمها مستعرضاً أدلة الوجوب ومناقشتها، كما بحث عن أنه هل يكفي مجرد احتمال وجود المعارض كي يجب الفحص، ثم بحث إمكانية التمسك بالاستصحاب لنفي هذا المعارض.

المقدمة:

لا إشكال في أنّ الحجية الفعلية تتوقف على إثبات المقتضي وارتفاع المانع، وفي مرحلة المقتضي لا بدّ من تنقیح جهات ثلاث: الصدور والجهة والدلالة، فإذا قمت بهذه الجهات صار الدليل له حجية اقتضائية لإثبات الحكم الشرعي، ثم تأتي المرحلة الأخرى وهي رفع المعارض حتى يصح الاستدلال بالدليل ويصل الفقيه إلى مرحلة الحجية الفعلية، وكثيراً ما يحتمل الفقيه وجود المعارض، فيقع البحث في وجوب الفحص عن المعارض وصحة

التمسك بالاستصحاب لتفيه عند الشك، وقد قمت ببحث هذه الجهة لتنقیح الحال في ذلك.

والكلام يقع في عدة مطالب:

المطلب الأول: الدليل على وجوب الفحص عن المعارض:

استدل على وجوب الفحص عن المعارض بعده أدلة:

الدليل الأول: وجود علم إجمالي بوجود المعارض

حيث يعلم بوجود التعارض في الأدلة في الجملة، فكل دليل يكون طرفاً في دائرة هذا العلم الإجمالي، ومقتضى منجزية العلم الإجمالي وجوب الفحص حتى يخرج الطرف عن العلم الإجمالي المذكور.

ولكن هذا الدليل ينفع ما لم يحصل علم بانحلال العلم الإجمالي بالظفر بقدار المعلوم بالإجمال، وحينئذٍ لا دليل على وجوب الفحص زائداً على ذلك.

الدليل الثاني: وجود منشأ عقلائي بوجود المعارض

وهو العمدة وحاصله: إن المدرك الأساسي لحجية الظهور هي السيرة العقلائية، ومن الواضح أن السيرة العقلائية مخصوصة بما إذا لم يكن الدليل في معرض وجود المعارض، فإذا كان هناك منشأ عقلائي لوجود المعارض، كثرة نقل المعارضات عن المولى، فإن العقلاة لا يعملون بما ينقل لهم عن المولى المذكور دون الفحص عن المعارض في مظنه، ولا أقل أن دليل السيرة دليل لبّي يقتصر فيه على القدر المتيقن فلا يحرز شموله مع وجود منشأ عقلائي على المعارض.

السيرة المترسية حال وجود منشأ عقلائي بوجود المعارض

وأمّا السيرة المترسية، فهي وإنْ كانت على العمل بالعمومات الصادرة من الشارع إلا أنه لم يُعلم قيامها على العمل بالدليل قبل الفحص عن المعارض إذا وجد منشأ عقلائي للمعارض إنْ لم يدع الجزم بعدم العمل بها كذلك، فالقدر المتيقن منها هو العمل بعد الفحص وعدم الظفر بالشخص، نعم الشخص المخاطب بالعام في مجلس الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ كان العام حجة له على كلّ حال لكونه وظيفته الفعلية ولو لمصلحة ثانوية، وبما أنَّ السيرة دليل لبّي فيقتصر فيه على القدر المتيقن وهو ما ذكرناه.

وإن شئت قلت: إنَّ ملاك الحجية العقلائية ينثم بعرضية الدليل لورود المعارض بمستوى معتمد به لحصول وهن وضعف في درجة الكاشفية في أمثال ذلك.

نعم هذا البيان ينبع عدم الحجية قبل الفحص فقط بحيث يعود ملاك الحجية العقلائية بعد أنْ فحص ولم يجد معارضًا، لا أنَّ العرضية توجب ارتفاع الملاك رأساً بحيث لا يبقى حجة عند العقلاء حتى بعد أنْ يفحص ولم يجد معارضًا.

النتيجة

إنَّ السيرة العقلائية لا تقتضي أكثر من حجية الدليل بعد الفحص إذا كان المعارض له منشأ معتمد به، كما في كلام الشارع لنقل المعارضات بنحو معتمد به، ومعرضيتها لذلك تقنع عقلائيًا عن الحجية من دون فحص وبحث عن مظان وجود المعارض، نعم بعد الفحص والظفر بالمعارض يبني العقلاء على الحجية.

دفع دخل

ثم إنّه ربا يقال^(١): إنّ مراجعة وضع أصحاب الأئمة ورواة الأحاديث تدلنا على أنّهم لم يكونوا في مقام الفحص عن الأدلة والخصائص المنفصلة والمعارضات والتي يتحمل صدورها في عرض ما ينقلونه في أصولهم إلى الآخرين، أي أنّ زرارة مثلاً لم يكن يفحص عن وجود معارض فيما نقله محمد بن مسلم مثلاً، نعم طولياً وبلحاظ من تأخر عنهم كالفضل بن شاذان ربا كان يفحص عمّا ينقله محمد بن مسلم من الخصائص والقرائن ولم يكن يقتصر على نقل ما في أصل زرارة فقط.

إلا أنّ الفحص والبحث فيما بين الرواية المباشرين والذين هم في عرض واحد لم يكن موجوداً، وإلا لأنعكس ذلك وألفت الأنظار ولاستوجب نشوء حركة الاستنساخ والتبادل والتباخت فيما بينهم، وهذا مما يقطع بعدهم عادة مما يكشف عن عدم وجوب الفحص عليهم على الأقل، فربما يجعل ذلك دليلاً على عدم وجوب الفحص حتى مع المعرضية للتخصيص على الأقل بالنسبة إلى الذين كانوا مشافهين بالعمومات أو كانت الخطابات قطعية الصدور في حقهم.

إلا أنّ هذه الظاهرة لا يمكن الاستفادة منها في المقام شيئاً؛ لأنّها تحتمل وجوهاً مختلفة بحيث لا يمكن أن يستفاد منها مطلب محدد، فإنه يمكن أن تفسّر على تفسيرين:

التفسير الأول: على أساس عدم وضوح المعرضية للتخصيص والمعارض في حقهم، إما لثبت جملة من الخصائص ومعلوميتها لديهم ولو بلاحظة مجموع ما هو مسجل أو معلوم ولو ارتكازاً عند كلّ واحد منهم وإنما هذه

المعرضية ثابتة في حقنا نحن اليوم نتيجة التقاطع والضياع في كثير من تلك الأصول، وإنما لعدم وضوح ثبوت هذه المرتبة من كثرة المخصصات عندهم بعد وإنما اتضحت ذلك بعد تجميع تلك الروايات.

التفسير الثاني: تفسر على أساس احتمال وجود ظروف حرجة وصعبة ولو من ناحية التقى كانت قناعتهم من التعرض والبحث والفحص عن المخصصات فيما بينهم إذ قد يستكشف من ذلك حركة علمية تلتف الأنوار وتجلب الخطر عليهم أو تفسر على أساس احتمال ثبوت الحكم الواثق إليهم عبر الدليل في حقهم ولو كحكم ظاهري وظروف التقى وإنْ كان الحكم الواقعي مختصاً، فإنّ مصلحة الظاهر ربما تكون ثابتة حتى في الإظهار والإفتاء لا العمل فحسب كما يؤيد ذلك روايات الأخذ بالأحاديث على ما فصل في تعارض الأدلة.

وعلى كلّ حال، مقتضى هذا الوجه هو لابدّية الفحص عن المعارض في المظان وإنْ لم يوجد لنا علم إجمالي منجز لانحلاله -كما ذكرنا ولكن يكتفى في الفحص بقدر تنتفي به معرضية الدليل لوجود المعارض فلا يجب استيعاب البحث بقدر زائد عن المتعارف.

ولا فرق في وجوب الفحص بين كون المورد من الشبهات الحكمية أو الأمور الحدسية كقول الخبر إذا وُجد منشأ عقلائي للمعارض، فإنّ عمدة الدليل على حجية الأمارة في الأول وقول الخبر في الثاني السيرة العقلائية، وهي منعقدة على العمل بعد الفحص إذا فرض وجود المعرضية لخلاف الأمارة وقول الخبر.

المطلب الثاني: وجوب الفحص في الشبهات الموضوعية

المشهور بين الأعلام عدم وجوب الفحص في الشبهات الموضوعية وقد ذكر السيد الخوئي تفصيلاً في هذا المجال عند بحثه عن عدم وجوب الفحص عن المعارض عند الشك في الفتوى - الوجه في ذلك، فأفاد تفصيلاً^(٢) أن التمسك بالطلقات يشترط فيها الفحص عن المقيد والمعارض والجامع مطلق ما ينافي إطلاق الدليل ولا يجوز التمسك بها من دون فحص، وحيث إنَّ فتوى الأعلم يحتمل أن تكون مخالفة لفتوى غير الأعلم فلا مناص من أنْ يفحص ليظهر أنهما متخالفان حتى لا تشملهما الطلقات أو أنهما متافقان فعلى الأول لا يجوز الرجوع إلى غير الأعلم وعلى الثاني يجوز.

ثم دفع ذلك: بأنَّ التمسك بالإطلاق وإنْ كان يعتبر فيه الفحص عن مقيداته ومعارضاته بل عن مطلق ما ينافي الدليل بحكومة ونحوها، إلا أنه خاص بالشبهات الحكمية، فلا يسوغ التمسك بعموم الدليل قبل الفحص عن مخصوصة، ولا يعتبر ذلك في الشبهات الموضوعية بوجه، مثلاً إذا قامت ببيان على ملكية دار لزيد لم يعتبر في حجيتها الفحص عمما يعارضها من البيانات ولو مع العلم بوجود عدول يحتمل شهادتهم بأنَّ الدار ليست لزيد. ومقامنا هذا من هذا القبيل، لأنَّه من الشبهات الموضوعية لأنَّ مفروض الكلام العلم بعدم اعتبار فتوى غير الأعلم في فرض المخالفة وإنما نشك في أنهما متخالفان أو متافقان فالشبهة موضوعية.

الدليل على عدم وجوب الفحص في الشبهات الموضوعية

الدليل الأول: الوجه في عدم وجوب الفحص في الشبهات الموضوعية هو أنَّ ما يقتضي لزوم الفحص في الشبهات الحكمية عن المنافيات أحد أمرين

على سبيل منع الخلو:

أحدهما: إن ديدن الأئمة عليهما السلام جرى على التدرج في بيان الأحكام الشرعية وما اعتبر فيها من القيود والشروط، ولم يبيّنوا بقيودها وخصوصياتها في مجلس واحد مراعاة للتقىة ومحافظة على أنفسهم وتابعיהם عن القتل أو غيره من الأذى أو لغير ذلك من المصالح، ومن هنا ترى أن العام يصدر من إمام والمخصوص من إمام آخر، أو أن حكماً يصدر من أحدهم عليهما السلام فيصدر منه نفسه أو من إمام آخر خلافه، ومع العلم بحال المتكلّم ودينه لا تجري في كلامه أصالة عدم القرينة قبل الفحص، أو أنها لو جرت وانعقد لکلامه ظهور في نفسه لم تجر فيه أصالة حجية الظهور التي هي أصل عقلائي لا اختصاصها بما إذا لم تجر عادة المتكلّم على التدرج في بيان مراداته ومقاصده، ومع عدم جريانها لا يعتمد على ظواهر کلامه لعدم حجيتها حينئذ.

ثانيهما: العلم الإجمالي بأن العمومات والمطلقات الواردتين في الكتاب والسنة قد ورد عليهما مقييدات وخصوصيات كثيرة، حتى ادعى أن الكتاب لا يوجد فيه عام لم يرد عليه تخصيص، فلأجل ذلك وجب الفحص عن المنافيات حتى يخرج المورد عن الطرفية للعلم الإجمالي بالتخصيص والتقييد.

وهذا الوجهان كما ترى لا يأتي شيء منهما في المقام: أما مسألة جريان عادة المتكلّم على عدم بيان القيود والخصوصيات الدخيلة في حكمه في مجلس واحد فلأجل أنه لا موضوع لها في المقام، حيث إن فتوى أحد المجتهدين ليست مبيّنة ومقيدة أو حاكمة على فتوى المجتهد الآخر



بل فتوى كلّ منها تصدر عن اجتهاده ونظره ولا ربط لإحداها
بالآخرى بوجه.

وأما العلم الإجمالي بالنقيد، فلأنه ليس هناك أي علم إجمالي بالمخالفة في الفتوى بين المجتهدين لاحتمال موافقتهم بل قد يقطع بها كما في أكثر العوام لاعتقادهم أن الشريعة واحدة فلا اختلاف في أحكامها وفتاوي المجتهدين، أو لو فرضنا أن الخواص قد علموا بينهما بالمخالفة ولو على سبيل الإجمال وفي بعض الموارد، فليس لهم علم بالمخالفة في المسائل التي هي مورد الابتلاء، والمراد بالمخالفة ما قدمناه وهو أن يكون فتواهما متنافيتين مع كون فتوى غير الأعلم مخالفة للاح提اط وهي مما لا علم به ولو إجمالاً ومع عدم جريان شيء من الوجهين في المقام لا مقتضي لوجوب الفحص.

الدليل الثاني: يمكن أن يضاف لما ذكره قىث أن ما دل على تنقية حال الشبهات الموضوعية دليله عام بل بعضها صريح في ذلك، فقدت وجدت روایات خاصة في بعض الأبواب الفقهية تصرّح بعدم وجوب الفحص في شبهات موضوعية حتى بالمقدار اليسير.

منها: صحيحة زرارة الثانية في الاستصحاب التي ورد فيها «فهل علي إن شككت في أنه أصابه شيء أن انظر فيه؟ قال: لا ولكنك إنما تريد أن تذهب الشك الذي وقع في نفسك»^(٣)، فإنّها تدل على جواز غمض العين وعدم لزوم الفحص حتى بهذا المقدار.

ومنها: ما ورد أيضاً في باب الطهارة والنجاسة عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «ما أبالي أ بول أصابني أم ماء إذا لا أعلم»^(٤)، وهو واضح أيضاً في عدم

لزوم التصدّي والفحص عن النجاسة المحتملة حتى بهذا المقدار.

ومنها: روایات عديدة واردة في موارد الشك في تذکیة ما يؤخذ من سوق المسلمين أو كونها ميتة أو فيه الميّة، وهي تصرّح بعدم لزوم الفحص والسؤال وإنّه ليس عليكم المسألة، كصحیحة أَبْنَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي نَصْرٍ قال: "سأله عن الرجل يأتي السوق فيشتري جبة فراء لا يدرى أذكيّة هي أم غير ذكية، أيصلّى فيهما؟ فقال: «نعم، ليس عليكم المسألة، إنّ أبا جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْخَوَارِجَ ضَيَّقُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ بِجَهَالَتِهِمْ، إِنَّ الدِّينَ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ»" وفي صحیحته الأخرى عن الرضا عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: "سأله عن الخفاف يأتي السوق فيشتري الخف، لا يدرى أذكيّ هو أم لا، ما تقول في الصلاة فيه وهو لا يدرى أيصلّى فيه؟ قال: «نعم، أنا اشتري الخف من السوق ويصنع لي وأصلّى فيه وليس عليكم المسألة»^(٥)، وهي أيضاً واضحة في الدلالة على نفي لزوم أصل التصدّي والفحص.

ولكن، كلّ ما ذكر لا يتم في الشبهات الموضوعية التي يراد تنقيح حالها بأماراة عقلائية كخبر الثقة في الموضوعات -بناء على حجيته بالسيرة العقلائية- أو إثبات الملكية بقاعدة اليد، فإذا فرض وجود منشأ عقلائي على وجود المعارض فلا يحرز شمول دليل السيرة لذلك -كما تقدم.

المطلب الثالث: جريان استصحاب عدم المعارض بعد الفحص والشك في وجوده

وبيان الحال في هذا المطلب في عدة نقاط:

النقطة الأولى: الظاهر أنّ حجيّة الأماراة كخبر الثقة منوطه بكونها في معرض الوصول ولا تتوقف الحجيّة على الوصول الفعليّ، والوجه في ذلك: أنّ العقل وكذا العقلاة يرون أنّ وظيفة المولى جعل الأماراة في معرض

الوصول، فليست وظيفة المولى أنْ يوصل الحكم لكلّ مكلّف بل اللازم جعله في معرض الوصول إلى المكلفين وهو أعمّ من فرض الوصول إليه فعلاً، واحتفاف أدلة البراءة بذلك مانع من انعقاد الإطلاق لمورد كون التكليف في معرض الوصول وهذا يوجب قصور أدلة البراءة عن الشمول لما قبل الفحص.

النقطة الثانية: ذهب المشهور إلى أنَّ حجية الأمارة منوطة بعدم قيام الحجة على المعارض والمنافي، وعليه لو قامت بيّنة أو فحص المكلّف بالمقدار المتعارف ولم يجد المعارض كفى ذلك في تنقيح موضوع الحجية وإنْ احتمل واقعاً وجود المعارض، إذ العقلاء يرون أنَّ الفحص المذكور حجة في إثبات عدم المعارض، وبالتالي لا يتوقف إثراز موضوع الحجية على نفي المعارض واقعاً بالاستصحاب.

وفي مقابل ذلك ذهب السيد الشهيد قيشش إلى أنه لا بد من إجراء الاستصحاب إذا احتمل وجود المعارض واقعاً ولا يكفي مجرد الفحص في المظان، فحجية الأمارة منوطة بعدم المعارض واقعاً لا مجرد قيام الحجة على عدم المعارض كما ذكر المشهور - ومنشأ الخلاف بينه وبين المشهور يرجع إلى تحليل حقيقة الحكم الظاهري وكون التنافي بينها واقعي كالأحكام الواقعية وبيان ذلك:

هناك مسلكان في مرحلة التنافي بين الأحكام الظاهرية:

المسلك الأول: التنافي في مرحلة الوصول

وهو مسلك المشهور من الأصوليين، وبيانه: إنَّ الحكم الظاهري متقوّم بالوصول أو معرضية الوصول، لأنَّ الحكم الظاهري حكمٌ طريفيٌّ محض،

الوصول

السلوك الثاني: التنافي بين الأحكام الظاهرية في مرحلة الواقع قبل

والحكم الظريقي هو الحكم المنجز للواقع إنْ أصاب والمعدّر من الواقع إنْ أخطأ، وبما أنَّ الحكم الظاهري حقيقته المنجزية والمعدّرية وهما منوطان بالوصول، فمع عدم الوصول فلا يوجد حكمٌ ظاهري، وبناءً على هذا المسلك لا تتنافي الأحكام الظاهرية قبل الوصول لأنّها ليست أحكاماً ظاهرية حق تتنافي، فلو فرضنا أنَّ الشارع جعل أصلحة الحال وفي نفس الوقت جعل وجوب الاحتياط في اللحوم، فلا تنافي بين هذين الجعلين ما لم يصل؛ لأنّهما ما لم يصلا ليسا حكمين ظاهريين كي يقع التنافي بينهما، فإذا وصل أحدهما وهو دليل البراءة مثلاً وقال: إذا شكتم في أيٍ شبهة حكمية فلکم إجراء البراءة، ونحن شككنا في حلية لحم الأرنب، فنجري البراءة، وأما وجوب الاحتياط في اللحوم فحيث لم يصلنا - وإنْ جعله الشارع واقعاً فلا أثر له، ولا نحتاج أصلاً إلى إجراء البراءة عن وجوب الاحتياط، لأنّه لا يكون حكماً في حقنا حتى يصل.

ذهب السيد الشهيد قدسُه (٦) إلى هذا المسلك خلافاً للمشهور، وبيانه:

إنَّ الأحكام الظاهرية متنافية ثبوتاً وواقعاً مثل الأحكام الواقعية تماماً، فكما أنه لا يعقل أن يجعل الشارع وجوب صلاة الجمعة واقعاً وحرمة صلاة الجمعة واقعاً، لأنَّ الأحكام الواقعية متنافية ثبوتاً وإنْ لم تصل، كذلك لا يعقل جعل الأحكام الظاهرية متنافية وإنْ لم تصل، والسرّ في ذلك:

إنَّ حقيقة الحكم الظاهري ليس هو البراءة أو وجوب الاحتياط، بل حقيقة الحكم الظاهري عبارة عن الاهتمام بحفظ الغرض الأهم، فمثلاً: إذا

كان في هذه الدار فردان من اللحم أحدهما مذكى والآخر ميتة، واشتبه علينا المذكى بالميّة، فالشارع في هذا الفرض إما أنْ يهتم بحفظ الغرض النزومي وهو مفسدة الميّة، وإما أنْ يهتم بحفظ الغرض الترخيصي وهو المصلحة الموجودة في اللحم المذكى، فهذا الاهتمام الواقعي مع غض النظر عن الوصول هو الحكم الواقعي، فاهتمامه بحفظ الغرض النزومي وهو تخاши مفسدة الميّة يجعل وجوب الاحتياط في المقام هو الحكم الظاهري وصل أو لم يصل، فإنَّ حقيقة الحكم الظاهري هي عبارة عن الاهتمام بحفظ الغرض النزومي، وإنْ صدر منه اهتمام بحفظ الغرض الترخيصي وهو المصلحة الموجودة باللحم المذكى يجعل أصالة الحل، فهذا هو الحكم الظاهري الترخيصي وإنْ لم يصل، ولا يمكن أنْ يجعلهما معاً واقعاً، مع غض النظر عن الوصول؛ لأنَّهما متنافيان إذ لا يعقل الجمع بين اهتمامه في هذا الفرض بحفظ الغرض الترخيصي وبين اهتمامه بحفظ الغرض النزومي، فهما متنافيان.

إذاً لا محالة أحدهما مقيد للآخر؛ لا أنهما في عرض واحد، فبناءً على مسلك السيد الشهيد قدئش من أنَّ الحكم الظاهري غير متقوّم بالوصول، يقع التنافي بين الأحكام الظاهرية وإنْ لم تصل، فلا بد من جعل أحدهما مقيداً للآخر.

قال قدئش: "بناءً على مسالك القوم من افتراض المصلحة في نفس جعل الأحكام الظاهرية لا تنافي بينهما بوجوديهما الواقعين وإنما التنافي بمقدار وجوديهما الواثقين إلى المكلف حيث يتنافيان من حيث التنجيز والتعديل وأما بلحاظ المبادئ فلا تنافي لتعدد الجعلين واقعاً وتعدد موضوع المصلحة فمن

يذهب إلى أحد مسالك القوم لا بدّ له من الالتزام بعدم التنافي بين جعل الأحكام الظاهرية العرضية بوجوداتها الواقعية لعدم التضاد فيما بينهما إلا في مرحلة الوصول فالمحذور بهذا المقدار لا أكثر.

وأما على مسلكنا من أن الحكم الظاهري ناشئ عن مبادئ حقيقة وهي نفس المبادئ الواقعية ومقدار اهتمام المولى بها في مقام التزام الحفظي فحينئذ لا يعقل جعل حكمين ظاهرين متعاكسيْن حتى واقعاً ولو لم يصل إلى المكلف لأنَّ جعل الإلزامي منهما معناه اهتمام المولى بملائكته الإلزامية الواقعية وجعل التخصيصي منهما معناه عدم اهتمامه بها بل ترجيحه لملائكته الواقعية التخصصية، والاهتمام مع اللا اهتمام بأمر واحد متنافيان لا محالة.

فعلى أساس تصوراتنا في حقيقة الحكم الظاهري يكون التنافي بين حكمين ظاهريين عرضيين ثابتاً واقعاً كالتنافي بين حكمين واقعيين كذلك، وهذا أحد الفوارق والثمرات المترتبة بين المسلكين^(٧).

وببناء على هذا المسلك هناك ثلاثة حالات للشك^(٨):

الحالة الأولى: أنْ نشك في الكبري، بمعنى أننا نشك أساساً هل الشارع جعل أمارة دالة على الإلزام أم لا؟ فهذا شكٌ في تخصيص دليل البراءة «رفع عن أمري ما لا يعلمون»، والشك في التخصيص مجرئٌ لأصلحة العموم.

وبعبارة أخرى: يوجد عندنا دليل مطلق وهو دليل البراءة «رفع عن أمري ما لا يعلمون» وهذا الدليل قد وصل إلينا، ولكن لا ندرِّي أنَّ هذا المطلق هل قُيّد واقعاً يجعل حجيةٍ لأمارة دالة على الإلزام أم لا؟ ومقتضى أصلحة العموم عند الشك في التخصيص هو عدم المخصص، فنتمسك بدليل البراءة

لإثبات عدم حجية خبر الثقة الدال على الإلزام في اللحوم، وإذا تمسكنا بعموم الدليل فلا تحتاج إلى أن نجري البراءة عن الحكم الظاهري وهو وجوب الاحتياط لوجود دليلٍ لفظي وهو أصله العموم فلا تصل النوبة إلى إجراء الأصل العملي.

الحالة الثانية: أن نشك في الصغرى لا في الكبرى، أيًّاً أثنا علمنا بأنَّ الشارع جعل حجية خبر الثقة مثلاً الدال على الإلزام، فنحن نقطع بأنَّ دليلاً البراءة مخصوصاً يكُون هناك خبر ثقة دالٌ على الإلزام، لكنَّنا نشك في الصغرى هل أنَّ هناك خبر ثقة في الواقع على الإلزام أم لا؟ فهنا لا يمكن أن نتمسك بعموم دليل البراءة لأنَّه تمسك بالعام في الشبهة المصداقية، إذ دليل البراءة خُصص بما إذا لم يقم خبر ثقة فلا يمكن نفي ذلك بنفس العام؛ لأنَّ تمسك بالعام في الشبهة المصداقية فتضطر إلى استصحابٍ لتنقية موضوع الدليل، فنقول: مقتضى استصحاب عدم قيام خبر ثقة دالٌ على الإلزام تنقح موضوع دليل البراءة، فيتنقح بالاستصحاب الموضوعي دليلاً للبراءة ويثبت أنَّ هذا المورد مما لم يثبت فيه خبر ثقة على الإلزام فيشمله دليل البراءة ومقتضى دليل البراءة الأم من العقوبة.

الحالة الثالثة: وهي ما إذا لم يكن إجراء الأصل الموضوعي عند الشك في الموضوع، كما إذا قام عندنا خبرٌ يدل على الإلزام، والمخبر بهذا الخبر مما توارد عليه حالتان: حالة الوثاقة وحالة الضعف، ولا ندرى هل أنه كان ثقة ثم ضعف أو كان ضعيفاً ثم صار ثقة؟ فاستصحاب وثاقته معارضٌ باستصحاب ضعفه، كما في سائر موارد توارد الحالتين على الموضوع فإنَّ الاستصحابين يتعارضان، وبعد تعارض الاستصحابين فلا يمكن لنا تنقية هذا الموضوع أصلاً ففي مثل هذا الفرض لا يمكن التمسك بعموم دليل

البراءة، إذ ليس الشك في التخصيص حتى نتمسك بأصالة العموم؛ إذ المفروض إننا نقطع بأنّ دليل البراءة قد خُصّ بحجية خبر ثقة يدل على الإلزام، كما أنه ليس الشك في الصغرى بحيث يمكننا علاج الموضوع بالأصل، لأنّ المفروض أنّ دليل البراءة مقيدٌ ومحخصوص بعدم قيام خبر ثقةٍ يدل على الإلزام، والمخصوص مركب لا مقيد بمعنى أنه مركب من جزأين: عدم قيام خبر رجلٍ - وكون ذلك الرجل ثقة (والجزء الأول من هذا المخصوص محرزٌ بالوجودان، لكنَّ الجزء الثاني من المخصوص هو المجهول لدينا وهو أنَّ الخبر ثقة أم لا؟ ولا يمكن لنا تنقيحه لتعارض الاستصحابيين بمقتضى توارد الحالتين فيتعارض استصحاب الوثاقة مع استصحاب عدمها).

وإنْ شئت قلت: استصحاب عدم قيام خبر ثقة، إنْ كان المراد منه استصحاب عدم قيام خبرٍ وكون ذلك الخبر ثقةً فهذا غير تمام، لأنَّ الجزء الأول معلوم بالوجودان فلا معنى بأنْ يُنفي بالاستصحاب، وإنْ كان المراد منه استصحاب عدم قيام خبر ثقة الذي هو الجزء الثاني من الموضوع، فالاستصحابان فيه (استصحاب وثاقته واستصحاب عدم وثاقته) متعارضان.

النتيجة: إنَّ الأصل الموضوعي لا يجري في المقام وبالتالي لا يمكن العمل بعموم دليل البراءة؛ لأنَّ العمل به مع عدم إمكان تنقية الموضوع تمسك بالعام في الشبهة المصداقية.

وهنا ذكر السيد الشهيد قدس الله رحمه وعلمه أنَّه لا يمكن إجراء البراءة عن الحكم الواقعي، فتظل النوبة لإجراء البراءة عن الحكم الظاهري، وأسماءها البراءة

الطولية، حيث نشك حينئذٍ في هل أنّ الشارع جعل حجية على الإلزام في الواقع أم لا؟ فنحن لا نجري البراءة عن الحكم الواقعي وإنما نجري البراءة عن الحكم الظاهري في المورد.

وثره إجراء البراءة عن الحكم الظاهري التأمين عن الحكم الواقعي، لأنّ الحكم الظاهري -بنظره- هو الاهتمام الواقعي بحفظ الغرض اللزومي، فلو أنّ المولى واقعاً جعل حجة على الإلزام في الواقعة لكان للمولى اهتمام بحفظ الغرض اللزومي الواقعي، فنحن وبالتالي نشك في أنّ المولى اهتم بحفظ الغرض أم لم يهتم؟ فبجريان البراءة ننفي اهتمام المولى بحفظ الغرض الواقعي ومقتضى عدم اهتمام المولى نفسه بحفظ الغرض الواقعي هو الأمان من العقوبة في اقتحام الواقع.

وبالتالي: بناء على مسلك السيد الشهيد قدّر في حقيقة الحكم الظاهري يكون موضوع الحجية مقيد واقعاً بعدم دليل على الخلاف ولا بدّ من نفي المعارض والمخالف عند احتمال وجوده ولو بجريان الاستصحاب بلحاظ الحكم الظاهري وإلا كان تمسكاً بالدليل في الشبهة المصداقية.

هذا قام الكلام في توضيح الحال في المسألة واتضح أنّ الخلاف ناشئ من الاختلاف في تبيّن حال الحكم الظاهري.

الهوامش:

- (١) بحوث في علم الأصول، ج ٣، ص ٣٦٥.
- (٢) موسوعة الإمام الخوئي، ج ١، ص ١٣٢.
- (٣) الوسائل، ج ٣، ص ٤٦٦، باب ٣٧ من أبواب النجاسات، ح ١.

- (٤) المصدر السابق، ح ٤ و ٥.
- (٥) الوسائل، ج ٣، ص ٤٩٠، باب ٥٠ من أبواب النجاسات ح ٢ و ٣.
- (٦) بحوث في علم الأصول، ج ٤، ص ٢٢٢-٢٢٥.
- (٧) بحوث في علم الأصول، ج ٤، ص ٢٢٣.
- (٨) استفدت بعض المطالب المذكورة من سيدنا الأستاذ العلامة السيد منير الخباز عليه السلام.



عقلائية تقليد الأعلم

الشيخ محمود حسن العالى

الملخص:

يتعرّض الكاتب إلى مسألة تقليد الأعلم ويستدلّ لها بإطلاقات الكتاب والسنة الواردة في التقليد، وينتهي إلى أنّ هذه الإطلاقات لا تشمل مطلق الفقيه مع العلم بمخالفة فتواه فتوى الأعلم، ثم ردّ بعض الإشكالات التي قد تورد على الاستدلال.

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء وختام رسله محمد وآلـه الطاهرين.

صرّح في العروة الوثقى في المسألة رقم (١٢) بقوله: "يجب تقليد الأعلم مع الإمكان على الأحوط"^(١).

وقد وافقه جملة من أساطين الفقه وجعلوه الأقوى، منهم الأعلام: الجواهري، البروجردي، النائيني، الأصفهاني، الحكيم، وكذا المحقق الحائرـيـ قـشـنـيـ وـقـيـدـهـ بصـورـةـ الـعـلـمـ بـالـخـلـافـ فيـ الـفـتوـىـ، وـاستـظـهـرـهـ سـيـدـ مشايخـناـ السـيـدـ الخـوئـيـ رـحـمـهـ اللـهـ فيـ صـورـةـ الـعـلـمـ بـالـخـلـافـ ولوـ إـجـمـالـاـ، بلـ يـكـنـ القـولـ بـأـنـ وـجـوبـ تـقـلـيدـ الـأـعـلـمـ فيـ صـورـةـ الـعـلـمـ بـالـخـلـافـ هوـ رـأـيـ الـحـقـيقـينـ منـ أـعـلـامـ الطـائـفةـ.

الجهة الأولى: تاريخ المسألة

من الصعب جداً تحديد بداية طرح المسألة على المستوى الفقهي عند أعلام المدرسة الإمامية، وذلك لجملة من الأسباب أهمها:

إنّ بحث التقليد لم يطرح في الكتب الفقهية ويدرج في المتون الفقهية الفتواوية المجرّدة عن الاستدلال قبل زمان صاحب العروة عليه السلام، وإنّ أول من طرّحه في المتن الفقهي غير الاستدلالي هو السيد اليزدي عليه السلام في العروة الوثقى.

ولكنْ قبل هذا الزمان لم يتناول البحث الفقهي مسائل التقليد ضمن كتب الفقه، نعم تعرض الأصوليون لموضوع الاجتهاد وشرائطه وشروطه المفتي في الكتب والمتون الأصولية، ويظهر من كلام الشيخ حسن بن الشهيد الثاني عليه السلام في معالم الدين أنَّ تقليد الأعلم في صورة الاختلاف هو قول مشهور علماء الإمامية.

قال قدس صلوات الله عليه: "... اعلم أنَّ حكم التقليد مع اتحاد المفتى ظاهر، وكذا مع التعدد والاتفاق في الفتوى، وأماماً مع الاختلاف فإنَّ علم استواهم في المعرفة والعدالة تخير المستفتى في تقليد أيِّهم شاء، وإنْ كان بعضهم أرجح في العلم والعدالة من بعض تعين عليه تقلیده، وهو قول الأصحاب الذين وصل إلينا كلامهم، وحججتهم عليه أنَّ الشقة بقول الأعلم أقرب وأوکد. ويُحکى عن بعض الناس القول بالتخير هنا أيضاً، والاعتماد على ما عليه الأصحاب، ولو ترجح بعضهم بالعلم وبعض بالورع (قال المحقق عليه السلام: يقدَّم الأعلم؛ لأنَّ الفتوى تستفاد من العلم لا من الورع، والقدر الذي عنده من الورع يحجزه عن الفتوى بما لا يعلم، فلا اعتبار برجحان ورع الآخر) وهو حسن".^(٢)

فمن هذه العبارة للمحقق الشیخ حسن رحمه الله يظهر أنَّ القول بتقلید الأعلم هو المعروف من مذهب الإمامية.

الجهة الثانية: تحديد محل الكلام في مسألة لزوم تقلید الأعلم

هل يجب تقلید الأعلم مطلقاً بحيث يستند المكلف في مقام العمل أو يتلزم بتطبيق أعماله على وفق تقلید الأعلم مطلقاً، وافقه غير الأعلم أو لم يوافقه؟ أو لا يجب تقلیده إلا في موارد الاختلاف مع غيره في الرأي؟

قد يتراهى بدواً وجوب تقلیده مطلقاً توافق رأي الأعلم مع غير الأعلم أو لم يتوافق، كما توحى به عبارة السيد اليزدي رحمه الله في عبارة العروة حيث قال: "يجب تقلید الأعلم مع الإمكان على الأحوط ويجب الفحص عنه" ^(٣).

فإنَّ الظاهر الأولى لهذه العبارة تعين الالتزام أو الاستناد إلى قول الأعلم مطلقاً ^(٤)، ومن هنا علق جملة من الأعلام على فتوى المتن كالمحقق الحائر قدس بنحو التقييد لفتوى المتن بقوله رحمه الله: إذا علم الاختلاف في الفتوى ^(٥).

وكذا يظهر من تعليق بعض المحسن رحمه الله ^(٦) حيث أفاد بقوله: "يحتاج إلى تفصيل وبيان من حيث المعنى المراد في المقام وموارد الاستثناء" ^(٧).

فمن الواضح من التعليقتين أنَّ المفهوم من عبارة العروة وجوب تقلید الأعلم مطلقاً، وهكذا يظهر في تعبير بعض الرسائل العملية كتحرير الوسيلة، ولكن هذا الظهور يزول للاحظة ما ذكره في متن تحرير الوسيلة بعد هذه المسألة (١٠) بقوله: "يجوز تقلید المفضول في

المسائل التي تواافق فتواه فتوى الأفضل فيها، بل فيما لا يعلم تخالفهما في الفتوى أيضاً^(٨).

ولكن بضم عبارة السيد في العروة مع ما ذكر في المسألة (١٨) بقوله: "الأحوط عدم تقليد المفضول حتى في المسألة التي تواافق فتواه فتوى الأفضل"^(٩)، يتضح أن مختار السيد هو الاحتياط في عدم تقليد المفضول حتى في فرصة توافقه مع فتوى الأفضل وتعيين تقليد الأعلم مطلقاً، أمّا في صورة اختلافه مع المفضول فيجب تقليده على نحو الفتوى، وأمّا مع اختلاف رأيه مع رأي المفضول فيجب تقليد الأعلم احتياطاً.

ومن هنا علّق جماعة من المشائخ على المسألة رقم (١٨)، والذي ينبغي أن يقال إنّه لا ثرة للمسألة في صورة توافق رأي الأعلم مع غيره في المسألة الفرعية؛ لأنّ النتيجة العمل المتفق عليه بينهما، والتقليد لا موضوعية له إلا من حيث كونه طريقاً لمعرفة الحكم الشرعي.

ومن هنا علّق الميرزا النائي^ج بقوله: "الأقوى جواز تقليد المفضول في هذه الصورة، بل الظاهر أنه بعينه تقليد الأفضل، ولا يخرج بقصد الغير عن كونه تقليداً له"^(١٠).

والحاصل أنّه في صورة اتفاق فتواي الأعلم وغير الأعلم مع الالتزام بأنّ الحجّية ثابتة لطبيعيّ فتواي العالم المنطبق على كلّ منهما، فلا دليل على لزوم تعين أحدهما، فيجوز أن يستند المكلّف إلى طبيعيّ الفتوى والمحجة من دونأخذ خصوصيّة المفتى، وبذلك تحصل المعذرّية أو المنجزيّة أو أن يستند إلى أيّ واحد منها من دون لزوم تعين العمل بفتوى الأعلم بخصوصه.

الجهة الثالثة: إطلاقات باب التقليد

هل يمكن نفي وجوب تقليد الأعلم بإطلاقات أدلة باب التقليد؟ لو فرض وجود إطلاقات في باب التقليد؟

في هذه الجهة لا بد من البحث أولاً عن أصل هذه الإطلاقات.

وثانياً عن موانع هذه الإطلاقات على فرض ثبوتها.

أقول: قد استدلّ على جواز التقليد بآية النفر والسؤال.

أما الأولى: فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَّيَتَفَقَّهُوْا فِي الدِّينِ وَلَيُنِذِرُوْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَخْدَرُوْنَ﴾⁽¹¹⁾.

وأما الثانية: فقوله تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾⁽¹²⁾.

أما تقريب دلالة الإطلاق في الآية الأولى - آية النفر - فهي تدلّ على جواز الرجوع إلى النافرين وأخذ الأحكام منهم، ولم يقيّد جواز الرجوع إلى النافرين بما إذا كان الفقيه أعلم من غيره، فيجوز الرجوع إلى الفقيه كان هو أعلم أو لم يكن هو الأعلم.

وأما آية السؤال فتقريب دلالة الإطلاق فيها واضحة حيث لم يقيّد السؤال من أهل الذكر بكونهم الأعلم.

قال سيدنا الحكيم قدس شفاعة في مستمسكه: "بل حمل مثل آياتي النفر والسؤال على صورة تساوي النافرين والمسؤولين في الفضيلة حمل على فرد نادر"⁽¹³⁾.

ولكن الاستدلال بهذه الإطلاقات واجه جملة من الإشكالات وأهمها في نظرنا:

[الإشكال الأول: لزوم جعل الحجتين المتعارضتين]

لو كانت هذه الإطلاقات تشمل كلاً من الرأيين، رأي الفاضل والمفضول لزم من ذلك جعل الحجتين المتعارضتين، فمثلاً لو أفتى الأعلم بوجوب السورة كاملة بعد الفاتحة في أوليتي الواجبة، وأفتى غير الأعلم بعدم وجودها، فإذا قلنا إنَّ الإطلاقات الآمرة بالسؤال من أهل الذكر والرجوع إلى النافرين للتتفقَّه تشمل كلاً من الرأيين للزم من ذلك جعل الحجية للمتناقضين والمتضادين، وهو ممتنع علَّاك امتناعهما واقعاً.

وما ذكره بعض الأجلاء من إمكان جعل الحجية للمتعارضين نحو جعل الحجية مشروطة أو الحجية التخييرية، فيقال حجية قول الأعلم مشروطة بعدم الأخذ بقول غير الأعلم، أو يقال حجية قول غير الأعلم مشروطة بعدم الأخذ بقول الأعلم، أو أنت مخير بينهما بأحد هذين النحوين - فإنَّه يرد على ذلك أنَّه كما يمكن جعل الحجية بهذا النحو الذي يلزم منه خروج أحد القولين من مفاد الحجية رأساً يمكن جعله بنحو آخر وهو إجراء القرعة مثلاً، وليس الحجية المشروطة بأولى من الحجية بالرجوع للقرعة، والحجية التخييرية في المتعارضين ليست بعرفية، ولم يتضح بناء العرف عليها في المتعارضين، وأمّا الحجية المشروطة بمعنى أنَّ قول الأعلم حجة في حق المكلَّف بشرط عدم الأخذ بقول غير الأعلم وهكذا قول غير الأعلم حجة بشرط عدم الأخذ بقول الأعلم فلا يحلُّ إشكال شمول دليل الحجية لكلِّ منهما؛ وذلك لأنَّ المكلَّف لو ترك كلاً من القولين: قول الأعلم، وقول غيره، فسيكون كلاً منهما مشمول لدليل الحجية لتحقيق شرطه، فيعود الإشكال.

[الإشكال الثاني: لزوم حجية قول الفقيه في زمن المعصوم]

لو كانت الآيات تشمل رأي الفقيه وناظرتين له للزم حجية قول الفقيه حتى في زمن المعصوم، وبتعبير آخر لو كانت آية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تشمل رأي الفقيه فمقتضى الإطلاق جواز الرجوع مثل سلمان الفارسي حتى مع إمكان الرجوع للمعصوم وجواز الرجوع لزرارة حتى مع إمكان الرجوع للمعصوم عليه السلام.

ويكن دفع هذا الإشكال بأنّ غاية ذلك ثبوته بالإطلاق فيقييد بما دلّ من الروايات على عدم جواز التقدّم عليهم، ولا شكّ في أنّ الرجوع للرواية الفقهاء مع إمكان الرجوع للمعصوم هو من أوضح صور التقدّم عليهم، وهو منهيٌ عنه بمقتضى تلك النصوص، والتي منها حديث الثقلين على بعض روایاته، ففي حديث الثقلين عن الطبراني: «فَلَا تَقْدَمُوهُمَا فَتَهْلِكُوْهُمَا وَلَا تَعْلَمُوهُمَا، فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مَنْكُمْ»^(١٤).

نعم، الإشكال الأقوى هو الروايات الواردة في تفسير المقصود بأهل الذكر، فإنّ هذه الروايات تدلّ على اختصاص أهل الذكر مفهوماً ومصداقاً بهم بنحو لا يقبل التأويل بكونهم المصدق الأتم والأكملي، فلاحظ ما جاء في بصائر الدرجات تحت باب ١٩ بعنوان (في أئمة آل محمد عليهما السلام أنهم أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم والأمر إليهم إن شاؤوا أجابوا وإن شاؤوا لم يجيبوا) تجد ثانية وعشرين حديثاً تدلّ على اختصاصهم بعنوان أهل الذكر مفهوماً ومصداقاً، ففي خبر عن سليمان بن جعفر الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول في قول الله تعالى: «﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال: نحن هم»^(١٥).

بل في بعض هذه الأخبار تكذيب الإمام عَلَيْهِ الْكُلُّ لِتَفْسِيرِ أَهْلِ الذِّكْرِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، ففي خبر المعلّى بن خنيس عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكُلُّ «في قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال: هم آل محمد. فذكرنا له حديث الكلبي أنه قال: هي في أهل الكتاب، قال: فعلنه وكذبه»^(١٦).

وفي خبر محمد بن مسلم عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكُلُّ قال: «قلت له: إنّ من عندنا يزعمون أنّ قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أئمّة اليهود والنصارى، قال: إذاً يدعونهم إلى دينهم. ثم أشار بيده إلى صدره فقال: نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون»^(١٧).

فإنّ ظاهر هذه الأخبار مثل قوله: (هم) أو (نحن)، ظاهر في إفادة الحصر بنحو يأبى حمله على إرادة المصدق الأكمل والأتمّ.

[الإشكال الثالث: خروج الآية عن محل البحث]

ثم هنا إشكال ثالث أشار إليه الحقّ السيد الإمام الخميني عَلَيْهِ الْكُلُّ في رسائله، قال قىٰش س بتوضيح متنـاـ: إنّ مورد الآية شبهة عقائدية، وهي نبوة النبي عَلَيْهِ الْكُلُّ وشكّ المشركين والكافر في نبوته، فأمرتهم بالسؤال من أهل الذكر، والشبهة العقائدية لا يُكتفى فيها بالظن، إذاً غاية السؤال هو حصول الظن لا العلم، والمسألة العقائدية يجب تحصيل العلم فيها، ففي الآية إهمال من ناحية لزوم تحصيل العلم أو عدمه، فكما أنّ الآية في مقام بيان أنّ طريق تحصيل العلم لكم هو الرجوع إلى أهل الذكر كما يقال للمريض: إنّ طريق استرجاع الصحة هو الرجوع إلى الطبيب وشرب الدواء، فليس لها إطلاق يقتضى الرجوع إلى الفاضل أو المفضول مع تعارض قولهما، ثم أفاد عَلَيْهِ الْكُلُّ بقوله: ولا يبعد أنْ يقال: إنّ الآية بقصد إرجاعهم إلى أمر ارتкаزي هو الرجوع إلى

العالم ولا تكون بصدق تحويل تعبدِي وإيجابِ مولوي^(١٨)، فيكون مفاد الآيات
ليست إلا إمضاءً لأصل البناء العقلائي من رجوعِ المُجاهل إلى العالم، فلا
تكون لها دلالة أكثر من هذا المقدار بنحو تدلّ على حجية قول العالم مطلقاً
ولو كان قوله مخالفًا لمن هو أعلم منه.

هذا كله بالنسبة إلى الآيات التي يمكن الاستدلال بإطلاقها على فرض
ثبوت الإطلاق لها.

ما ذكره السيد في المستمسك

صرح سيدنا الحكيم عليه السلام أنَّ ما دلَّ على الرجوع إلى العالم شامل حتى
لصورة الاختلاف بين الأعلم وغيره؛ لأنَّ حالة التساوي بين العلماء حالة
نادرة، فإذاً حالة التفاوت موجودة زمن النص فهذه قرينة ومؤيدة على
شمول تلك الإطلاقات لجواز الرجوع حتى في صورة الاختلاف بين الفاضل
والمفضول.

لكن ما ذكره قد يُفسَد غير تمام لما عرفت من أنَّ هذه الأدلة ليست إلا إرشاداً
لبناء العقلاء من الرجوع إلى العالم من دون أن يكون لها نظرٌ لأزيد من ذلك
هذا أولاً.

وثانياً: عدم التسليم بندرة حالة التساوي في زمن النص، بل يمكن كون
التساوي هو الحالة الغالبة، والتفاضل بالمقدار المعتمد به حالة نادرة؛ وذلك
لسهولة الاجتهاد في زمن النص، وعدم حاجته لمقدمات كثيرة، وعدم كونها
حدسية في الغالب، بل غالباً حسية، وكلَّ هذا يكون سبباً لتساوي العلماء
والرواة في الفضل، هذا كله بالاحاطة إطلاقات الكتاب العزيز، وتبيين من ذلك
عدم ثبوت إطلاق يشمل قول غير الأعلم.

هذه هي العمدة من الآيات التي قيل بشivot إطلاقها يشمل قول غير الأعلم.

وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهَدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(١٩) فلم أجد أحداً من أصحابنا من استدلّ به غير المحقق الأرديبيلي في زبدة البيان، فقال عليه السلام: "ويدلّ على عدم جواز تقليد الجاهل والمفضول ومتبعيهما وثبوتها للمهتمي قوله ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهَدَى﴾ يعني أنّ الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتبعه أمن لا يهدي إلا أن يُهَدَى» يعني أنّ الذي لا يهتمي بنفسه أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه غيره، فالأول على قراءة ﴿يَهِدِي﴾ بتشديد الدال وفتح الهاء أو كسرها، كان أصلها (يهتمي) قلبت التاء دالاً وأدغمت فيها، وحرّكت الهاء بالفتحة بنقل فتحة التاء إليها للخفة أو بالكسر، لالتقاء الساكدين. وعلى قراءة التخفيف أيضاً فإن ﴿يَهِدِي﴾، يعني: يهتمي كثير والثاني على قراءة التخفيف فقط، فإنه من يهتمي المتعدّي بنفسه وهو كثير كتعديته باللام، والاستفهام على سبيل الإنكار يعني معلوم أنّ الهدادي بنفسه حقيقة لا غير ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني ما تحكمون أنتم إلا بالحق، لو أنصفتم، أي: معلوم أنّ الهدادي بنفسه أحق.

فيمكن أن يستدلّ بها على وجوب اتباع الله تعالى الخالق دون مخلوقه، وكذا على وجوب اتباع العالم دون الجاهل، وكذا على اتباع الأفضل فيما هو أفضّل به، دون المفضول، خصوصاً إذا كان تعلّمه من هذا الأعلم والأفضل، وإنْ كان المفضول والجاهل متّمكّنان من العلم بما علمه العالم والأفضل بالتعلم فيستخرج منه عدم جواز تقليد الجاهل والمفضول، مع تقدير وجود الأفضل وإنْ كان أورع، ولهذا قال به بعض العلماء وكذا تقديم الأفضل في

الصلاه وكذا الروايه، ويمكن الشهاده وإن سلم أن الآيه في منع الكفار عن اتباع الأواثان دون الله كما قال في الكشاف وتفسير القاضي فإن سبب الورود ليس بمحخصوص بل المدار والاعتماد على ظاهر اللفظ كما هو الحق المثبت في الأصول ولا شك في عموم اللفظ وأن العالم والأفضل يهدي بنفسه، بل ظاهر أن ﴿يهدي﴾ أنها في غير الأواثان لعدم قابليتها للهداية، وهو ظاهر، فيمكن أن يستخرج عدم جواز الاجتهاد للنبي والإمام، حيث يقدرون على تحصيل العلم من الله، وكذا عدم الاجتهاد لمن يقدر على الأخذ بالعلم منهمما، بل عدم جواز الأخذ بالظن مطلقاً مع القدرة على العلم^(٢٠).

الجهة الرابعة: التمسك بالروايات

وأما بالنسبة إلى الروايات فهي على طائف:

الرواية الأولى: ما ورد عن تفسير مولانا العسكري عليه السلام في ذيل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إلى قوله عليه السلام: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدینه، مخالفًا لهواه، مطيناً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»^(٢١).

وتقرير دلالته على جواز الرجوع إلى غير الأعلم بأحد التقريرين:

الأول: إطلاق قوله: (فليقلدوه) حيث يشمل الأعلم وغيره.

الثاني: الإمام عليه السلام ذكر أوصافاً لمن يقلدوه العوام من صائناً لنفسه، حافظاً لدینه، مخالفًا لهواه، إلى غيره ذلك ولم يذكر الأعلمية.

والجواب:

أما عن التقرير الأول: فدلالته على الإطلاق متفرّع على أن يكون

بصدق بيان حالة وجود الاختلاف والعلم به أو احتماله وكل ذلك ليس في الخبر ما يدل عليه.

قال المحقق السيد الإمام عليه السلام: إنّه في مقام بيان حكم الآخر فلا إطلاق لها لحال وجود الأفضل فضلاً عن صورة العلم بمخالفة رأيه رأي الأفضل ^(٢٢).

ومحصل ما أفاده قىثىش: أنّ الرواية ليست في مقام بيان حكم ما إذا اختلف الأفضل مع غيره.

وأما على التقريب الثاني: فليس كلامه عليه السلام في مقام حصر الموصفات المطلوبة في الفقهاء حتى تتم دلالته على عدم اعتبار الأعلمية وحجية مطلق قول الفقيه، ومن هنا لا يصح التمسك بها لعدم اعتبار الرجلة أو طهارة المولد وغير ذلك، ولم نجد من استدلّ بها لنفي ذلك، وذلك لأنّ الرواية ليست في هذا المقام ولا يستفاد منها حصر الموصفات فيما ذكر.

على أنّ الرواية فيها إعجال آخر من جهة أنّ ظاهر الرواية أنّ الذم متوجّه للبيهود على تقليدهم لعلمائهم مع علمهم بفسقهم وأكلهم الربا، فالذى يظهر من الرواية أنّ الذم متوجّه لهذه الجهة، وليس على تقليدهم في أصول العقائد وأنّهم لو قلدّوهم في أصول العقائد مع اتصافهم بالعدالة والاستقامة فلا ذمّ عليهم في ذلك، ولو أنّ عوام الشيعة كذلك، لكانوا مثلهم، ثم قال: أمّا من كان صائناً لنفسه إلخ، فلا مانع من أن تقلدوا من كان متصفاً بذلك ولو في أصول العقائد، ولو أخرجنا الأصول الاعتقادية منه لزم إخراج المورد وهو مستهجن، وهذا يحتم علينا ردّ علمها إلى أهلها على فرض صدورها، وقد أشار إلى هذا الإعجال السيد المحقق الإمام

الخميني عليه السلام.

الرواية الثانية: ومن الأخبار المدعى دلالتها على الإطلاق صدر المقبولة المعروفة بقبولة عمر بن حنظلة، وقد رواها ثقة الإسلام الكليني رحمه الله بسنده^(٢٣) عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكمما إلى السلطان وإلى القضاة أبى حل ذلك؟، قال: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له، لأنّه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الظَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكُفُرُوا بِهِ﴾، قلت: فكيف يصنعان؟، قال عليه السلام: ينظران من كان منكم من قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحکامنا فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحکمتنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعليه رد، والردد علينا الراد على الله، وهو على حد الشرك بالله»^(٢٤).

وتقريب دلالة إطلاقها على حجية قول غير الأعلم يتوقف على هذا التوضيح المشتمل على أمرين:

١- إنّ أمر الإمام عليه السلام بالإرجاع إلى رواة حديثهم في مقابل الرجوع إلى قضاة الجور مطلق، فيشمل بإطلاقه الرجوع إلى أيّ واحد من الرواة ولو كان بعض الرواة مختلف معه.

٢- إذا دلت المقبولة على نفوذ حكم الفقيه ولو كان هناك من مختلف معه في حكم الواقع المترافق فيها- فتدلّ على نفوذ فتواه في باب الخصومات حتى مع اختلافه مع غيره مطلقاً، ولا يعقل نفوذ الحكم من دون نفوذ الفتوى، فيدلّ على نفوذ فتواي الفقيه في غير باب الخصومات مطلقاً كان هو الأعلم أو لم يكن في مورد الاختلاف.

والجواب عن ذلك:

إنه لا شك في دلالة المقبولة على حجية قول الفقيه مطلقاً في باب الخصومة، وليس حجية قول الفقيه في باب الخصومة مختصاً بفتوى الأعلم وحكمه، هذا واضح، وبعبارة أخرى المقبولة تدلّ على حجية فتاوى الفقيه وحكمه مطلقاً في باب القضاء، ولكن هل يمكن التعدي من باب الخصومة والمرافعة إلى باب التقليد بدعوى أنَّ العرف يلغى الخصوصية؟

الجواب: لا يمكن، وذلك لأنَّه في باب القضاء توجد خصوصيَّة غير موجودة في باب التقليد، وهذه الخصوصيَّة هي أنَّ الغرض في باب القضاء فصل الخصومات التي لا يمكن تحقيقها بالإلزام بالرجوع إلى الأعلم، بل الغرض هو رفع خصومة المتخاصمين، وهو لا يمكن أنْ يتحقق نوعاً إلا بحكم الحاكم النافذ، وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه، بخلاف مسألة التقليد المطلوب فيه درك الواقع لا العمل بقول الفقيه كيف ما كان، بل العمل بقول الفقيه الذي يطمئن معه بإدراك الواقع، أما العمل بالاحتياط أو بأخذ أحوط الأقوال مع تuder الاحتياط التام، وعليه فدعوى أنَّ العرف يفهم من المقبولة

والتعيم لغير باب الخصومة يتمُّ بأحد الأمور: إما منْ باب إلغاء الخصوصية بمعنى عدم الخصوصية لباب الخصومات والمرافعات، أو من باب تنقية المناط، أو بدعوى أنَّ الظاهر من قوله عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ: فإذا حكم بحکمنا ... إلغاء احتمال مخالفة رأي الفقيه لحكمهم؛ لأنَّه ليس المقصود من الفقرة: إذا علمتم بحکمنا، فإنَّ هذا لا معنى له، بل المراد أنه إذا حكم بحکمنا بحسب نظره ورأيه فجعل نظره طريقاً إلى حكمهم.

وأمثالها حجية الفتوى لا يخلو من مجازفة، وأما دعوى تنقیح المناط فهي أوضح فساداً.

الرواية الثالثة: ومن الأخبار التي استدلّ بها على إلغاء قيد الأعلمية وجواز الرجوع إلى المفضول وعدم لزوم الرجوع إلى الفاضل التوقيع الشريفي: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتى عليكم وأنا حجة الله»^(٢٥).

وتقرير دلالته أنَّ الإمام عَلِيَّ أرجع شيعته إلى رواتهم، ومن الواضح أنَّ الرجوع إلى الرواية ليس بعنوان أنَّهم نقلةٌ لحديثهم، بل بما هم من أهل الفتوى والرأي والاستنباط لا بما هم رواة، فإنهم بما هم رواة لا يتصور في حقِّهم الحجية وجعلها مساوقة لحجية المعصوم!

فإذاً جعل الحجية لهم بما هم فتوى واستنباط، ومن الواضح حصول الاختلاف بينهم في الفتوى، والإمام عَلِيَّ أطلق الرجوع لهم مطلقاً في صورة الاختلاف وعدمه ولم يقيِّد الإرجاع لهم بصورة عدم العلم بالاختلاف أو الرجوع إلى الأعلم.

والجواب عن ذلك: مع غض النظر عن سند^(٢٦) التوقيع من جهة إسحاق بن يعقوب، وإنْ كان لا يبعد اعتباره أو الاطمئنان بتصور التوقيع من الناحية من خلال قرائن منها إيراد الكليني عليه السلام له وخصوصاً مع ملاحظة ظروف الغيبة الصغرى وما يحيط بها، ومنه قد يطمئن بوثاقة إسحاق بن يعقوب.

فإنَّه يرد عليه أنَّ ظاهر الأمر بالإرجاع إرشاد إلى أصل الرجوع في

معرفة الحكم في الشبهات الحكمية، أو معرفة حكم الشبهات الموضوعية، دون أن يكون لها إطلاق لصورة الاختلاف والعلم بالاختلاف فلا إطلاق لها لذلك، ويحتمل أن يكون الإرجاع لهم في مقام القضاء كما احتمله السيد الحق الإمام الخميني رض^(٢٧)، فهو أمر محتمل بسبب إجمال الواقع المسؤول عنها وعدم وجود قرينة واضحة على تعين المراد منها.

الرواية الرابعة: ما عن الكشي بسند^(٢٨) ضعيف عن أحمد بن حاتم بن ماهويه قال: كتبت إليه -يعني أبا الحسن الثالث عليه السلام- أسأله عنم آخذ معالم ديني، وكتب أخوه أيضاً بذلك، فكتب عليه السلام إليهما: «فهمت ما ذكرتما فاصمدوا في دينكم على كلّ مسنٍ في حبّنا، وكلّ كثير القدّم في أمرنا، فإنّهما كافوكم إنْ شاء الله تعالى»^(٢٩).

والجواب عنه: من الظاهر أنّها ليست في مقام تأسيس أصل الرجوع إلى العلماء حتى يثبت لها إطلاق يؤخذ به في صورة الاختلاف أو العلم به، بل هي جاءت إرشاداً لما هو مرتكز في أذهان الناس بما فيهم الرواة من الرجوع إلى الفقهاء، ولكن ظاهر السؤال عن تشخيصه خارجاً.

الرواية الخامسة: التمسك بالروايات الآمرة بالرجوع إلى أمثال زرارة، وأبان بن تغلب، ومحمد بن مسلم، وزكرييا بن آدم، ويونس بن عبد الرحمن. وتقريب دلالة الروايات الآمرة بالإرجاع إلى آحاد الرواة، أنّها لم تقيد جواز الرجوع بما إذا كان الفقيه أعلم من غيره، بل مقتضى إطلاقها جواز الرجوع إلى كلّ من اتصف بالعلم والفقه وغيرهما مما ورد من العناوين المنطبقة على مصاديقها، وربما يقال: إنّ الغالب هو وجود الاختلاف بين طبقة

الرواة، ومع ذلك لم يقيّد جواز الإرجاع إلى الفقيه بكونه أعلم، واحتمال تساوي الجميع بعيد جداً.

والجواب عن ذلك:

أولاً: إنَّ محلَّ الكلام هو جواز الرجوع لغير الأعلم مع العلم بمخالفته لفتوى الأعلم، وليس في هذه الأخبار ما يدلُّ على هذه الصورة أعني الأمر بالإرجاع مطلقاً لفقيه حتى مع العلم بمخالفته لفتوى الفقيه الأعلم، فليس في الروايات ما يدلُّ على ذلك.

وثانياً: ما ذكره السيد المحقق الخميني قدسُه بتلخيص وتوضيح في رسالته الاجتهد والتقليد من أنَّ الظاهر من بعض هذه الأخبار وهي مثل صحيحة ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّه لِيُسَكِّنُ كُلَّ سَاعَةٍ أَلْقَاكَ وَلَا يَكُنُ الْقَدْوَمَ، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِنَا فَيَسْأَلُنِي وَلِيُسَكِّنُ كُلَّ مَا يَسْأَلُنِي عَنْهُ، فَقَالَ: «مَا يَمْنَعُكَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمِ الثَّقْفَيِّ، فَإِنَّهُ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ وَكَانَ عَنْهُ وَجِيئًا»^(٣٠). هو إرجاع الفقيه إلى فقيه مثله لسماع الحديث منه ثم استنباطه من الحديث حسب اجتهاده منه، ولا إشكال في الاستفادة من الروايات المزبورة جواز رجوع الفقيه إلى الفقيه مع وجود الأفقه منه لسماع الحديث والاستنباط منه^(٣١).

خلاصة البحث في الجهة الثالثة في نقاط:

- ١ - عدم ثبوت إطلاقاتٍ في الكتاب والسنة تشمل جواز الرجوع إلى الفقيه مطلقاً حتى في صورة العلم بمخالفته فتواه مع فتواه الأعلم.
- ٢ - على فرض ثبوت هذه الإطلاقات يوجد مانع من شمولها لكلا

الرأيين، رأي الأعلم وغير الأعلم للزوم شمول الحجية للمتضادين.

٣- عدم إمكان جعل الحجية بنحو التخيير.

٤- حجية التخيير بين الدليلين المتعارضين أمر غير متعارف ومؤلف عند العقلاء.

الإشكالات على القول بلزوم تقليد الأعلم:

تعرّض البعض لإشكالات يلزم من ثبوتها بطلان القول بلزوم تقليد الأعلم.

[الإشكال الأول: لزوم الحرج على المكلفين]

إن القول بلزوم تقليد الأعلم يمثل حرجاً على عامّة المكلّفين، خصوصاً مع تعدد المجتهدين وتكرّرهم في بلاد الشيعة -كثُر الله وجودهم المبارك- وخصوصاً على أهل القرى والأرياف.

وجوابه: كما أفاده السيد المحقق سيد مشايخنا السيد الخوئي قتيل مع التوضيح والزيادة هنا، أن الحرج المدعى يتصرّر إما من ناحية المفهوم، وإما من ناحية تتحقق خارجاً، وثالثة من ناحية الوصول إليه.

أما من الناحية المفهومية: فيتصور أن مفهوم الأعلمية غير واضح ومحل للخلاف، فهو وإنْ كان الملاحظ في كلمات الأعلام وجود اختلاف في تفسير مفهوم الأعلم، فمنهم من فسرها بالمهارة في استخراج الفروع ورد الجزئيات إلى كلياتها، وبعضهم فسرها بالإحاطة بالأخبار مع معرفة صحيحة وسقيمها وأحوالها ورجاها وفهم وجوه الخلل فيها، ومنهم من فسرها بمعرفة الكبريات وحسن تطبيقها على الصغيريات.

قال السيد اليزدي قدس في العروة الوثقى: المراد من الأعلم من يكون أعرف بالقواعد والمدارك للمسألة، وأكثر اطلاعاً لنظائرها، وأجود فهماً للأخبار، والحاصل أن يكون أجود استنباطاً، والمرجع في تعينه أهل الخبرة والاستنباط.^(٣٢)

أقول: ليس هناك من حرج في معرفة مفهوم الأعلمية، فإنه كسائر المفاهيم المرتبطة بالفنون كالطب والهندسة، فإنّ الأعلم فيها هو من علِم بقواعدها وكبرياتها وكان له حسن سلية في تطبيقها على مواردها وصغرياتها، ولا يكفي فيه مجرد القوّة على الكبريات أو الإحاطة بالفروع، بل يتوقف على أن يكون الطبيب مثلاً مع ماله من الإحاطة بجميع أقسام المرض وأدويتها وطرق معالجتها، متمنكاً من تطبيق تلك القواعد على مواردها فكذلك الحال في علم الفقه، فإذاً لا حرج في تشخيص مفهوم الأعلم.

وما ذُكر من الكلمات لا يعني الاختلاف في مفهوم الأعلمية بل هي تعبير عن ماله مدخلية في تحقيق وصف الأعلمية، فلا بد من إحاطة الفقيه بكل ذلك من الأقوال في المسألة والإجماعات، والإحاطة بأخبار المسألة مع جودة فهم ومعرفة بكبريات المسائل الأصولية وحسن تطبيقها على مورده، فالحقيقة ليس ذلك من الاختلاف في تحقيق مفهوم الأعلمية بل ذكر كل ما له دخل في تحقيق هذا المفهوم، و مجرد معرفة الأخبار أو الأقوال أو الكبريات لوحدها لا يكفي في تحقق هذا المفهوم.

إذاً مفهوم الأعلمية ليس من المفاهيم التي لا يمكن تفسيرها وتوضيحها، بل هو مفهوم عرفي واضح كبقية المفاهيم المرتبطة بالحرف

والصناعات العلمية، فالحاذق من الأطباء هو من لديه إحاطة تامة بالمرض وأسبابه وطرق علاجه والنافع من الأدوية للمرض فهذا هو الطبيب الحاذق، وكذلك مفهوم الأعلم في الفقه هو من له إحاطات تامة بكلّ ما له دخل في الاستنباط من معرفة الأقوال في المسألة والإحاطة بأحوال الرواية ومعرفة بسائل الأصول وقدرة على تطبيقها بشكل صحيح ودقيق مع ذوق عرفي سليم، فمن امتلك مجموعة هذه الأمور تحقق فيه وصف الأعلم.

هذا من ناحية ما يدعى من حرج بالنسبة للمفهوم.

وأما الحرج من ناحية تشخيصه: فربما يقال: كيف للعاميّ أن يشخص الأعلم وهو في ريفه ومزرعته أو مصنعه أو قريته خصوصاً مع تعدد المجتهدين العدول - كثرة الله من أمثالهم - وأتى له ذلك؟، فتشخيص الأعلم من بين المجتهدين المتعددين أمر بالغ الصعوبة ويمثل حرجاً على العامي المكلّف.

وجوابه:

أولاً: إنَّ تشخيص الأعلم ليس موكلًا لأيّ أحد، بل موكل لأهل الخبرة من المجتهدين، وهم قادرون من خلال المقارنة بين بحوث المجتهدين على تشخيص من هو متصرف بوصف الأعلمية من بين هؤلاء المجتهدين، فيرجع العامي إلى أهل الخبرة من المجتهدين ليميزوا له من هو الأعلم من بين هؤلاء عن غيره.

ثانياً: غالباً ما يحظى بعض المجتهدين - في صورة اختلاف أهل الخبرة في

تشخيص مصدق الأعلم - ببيانات أكثر وأوفر من غيره، وهذا مرجح
لتقدم من يحظى بالبيانات الأكثر والأوفر.

ثالثاً: قد يحصل في بعض الأعصار - وهو كثير - الشياع بأعلمية مجتهد
من بين المجتهدين، كما لا يخفى على من لاحظ السير وتاريخ الموزات
العلمية وتاريخ المراجع.

رابعاً: لو فرض اختلاف أهل الخبرة في تشخيص الأعلم فهو لا يمثل
مشكلة لدى المكلف، وذلك لأنّ تردد الأعلم يكون غالباً في دائرة ضيقه بين
اثنين أو ثلاثة، وهذه الدائرة الضيقة يمكن الاحتياط فيها بين أقوال أولئك
الفقهاء لو اختلفوا، وذلك لا يمثل حرجاً لندرة وقوع الخلاف، ولو وقع فهو
لا يقع في الأمور الابتلائية، ولو تحقق الاختلاف فيها فهو ما يمكن فيه
الاحتياط ولا يمثل حرجاً على المكلف.

خامساً: وجوب تقليد الأعلم إنما هو في صورة مخالفته مع غيره وعلم
المكلف بصورة الاختلاف لا مطلقاً، والعلم بالمخالفة إنما يتحقق فيما إذا
علم فتوى كليهما، وهذا لا يمثل حرجاً كما أفاد ذلك السيد المحقق
الخوئي رحمه الله.

وأما من ناحية الوصول إليه وإلى آرائه: فهو غير حرجي خصوصاً في
أزمنتنا هذه، بل ولا الأزمنة السابقة حيث إنّ من نعم الله على الطائفة المحبة
تواصل حلقات العلم وعدم انقطاعها على مرّ الزمان، وهذا التواصل في
حلقات العلم والعلماء يرشد العوام من الناس إلى الأعلم.

والجواب:

إننا لا نشك في وجود هذه السيرة، ولكن القدر المتيقن من هذه السيرة صورة عدم العلم بالاختلاف أو الغفلة عنها، فالعقلاء يرجعون إلى مطلق العالم في اختصاصه، إما في صورة عدم علمهم بوجود اختلاف بين أهل الخبرة أو الغفلة عن حالة الاختلاف أو كون مورد الرجوع ليس من الموارد المهمة والخطيرة عندهم.

وأما مع العلم بالاختلاف أو احتماله مع كون المورد من الموارد المهمة عندهم والتي تمثل خطورة، فلم تثبت سيرتهم في الرجوع إلى كيف من كان من أهل الخبرة، بل لا يرجعون إلا مع الاطمئنان في مثل الموارد المهمة، ففي مثل الأمراض الخطيرة لا يرجعون إلى أي طبيب كان، بل لا يرجعون إلا من ثبتت أعلميته في مجاله، وهكذا في بناء ناطحات السحاب مثلاً فلا يرجعون إلى أي مهندس بل يرجعون إلى من هو أكثر خبرة ومهارة وأكثر ممارسة.

[الإشكال الثاني: قيام السيرة على الرجوع إلى مطلق العالم]

قامت السيرة بين جميع العقلاة على الرجوع إلى مطلق العالم دون تقييد منهم بالرجوع إلى خصوص الأعلم، فمن لاحظ سيرة العقلاة في رجوع الجاهل منهم إلى أهل الخبرة وجدهم يرجعون إلى مطلق العالم في فنه مطلقًا كان أعلمًا أو غير أعلم، فمن احتاج منهم إلى الطبيب رجع إلى مطلق الطبيب أعلمًا أو غير أعلم، وهكذا لو احتاج إلى المهندس، والسير العقلائية وهي عمدة أدلة التقليد هذه كافية في جواز الرجوع إلى مطلق العالم دون تقييده بجيئية الأعلم.

الهوامش:

- (١) العروة الوثقى، اليزدي، ص ١٨.
- (٢) معلم الدين وملاد المحتهدين، الشيخ حسن بن زين الدين العاملی، ص ٢٤٦.
- (٣) العروة الوثقى، ص ١٨.
- (٤) ولكن هذا الظاهر بدوي بالنسبة لعبارة السيد قيثر حيث صرّح في ضمن مسائل التقليد.
- (٥) العروة الوثقى، ص ١٨.
- (٦) الفيروز آبادي.
- (٧) العروة الوثقى، ص ١٨.
- (٨) تحرير الوسيلة، الإمام الخميني، ج ١، ص ٤. ط. جامعة المدرسین
- (٩) العروة الوثقى، ص ٢٢.
- (١٠) العروة الوثقى، ص ٢٢-٢٣.
- (١١) سورة التوبة: ١٢٢.
- (١٢) سورة النمل: ٤٣.
- (١٣) مستمسك العروة، السيد محسن الحكيم، ج ١، ص ٢٦.
- (١٤) المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣، ص ٦٦، ح ٢٦٨١. الدر المثور، السيوطي، ج ٢، ص ٦٠.
- (١٥) بصائر الدرجات، محمد الصفار، ب ١٩، ح ١٢، ص ٦٠.
- (١٦) بصائر الدرجات، محمد الصفار، ب ١٩، ح ١٢، ص ٦١.
- (١٧) بصائر الدرجات، محمد الصفار، ب ١٩، ح ١٧، ص ٦١.
- (١٨) رسائل الإمام الخميني رض، ج ٢، ص ١٣٤.
- (١٩) سورة يونس: ٣٥.

- (٢٠) زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ج ١، ص ٣٤٥-٣٤٦.
- (٢١) تفسير الإمام العسكري علیه السلام، ص ٣٠٠.
- (٢٢) رسائل الإمام الخامنئي تتبّع، ج ٢، ص ١٣٩.
- (٢٣) محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن عيسى، عن صفوان بن يحيى، عن داود بن الحصين، عن عمر بن حنظلة.
- (٢٤) وسائل الشيعة، ج ١٨، ب ١١ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به.
- (٢٥) وسائل الشيعة، العاملية، ج ١٨، باب ١١ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به، ح ٩، ص ١٠١.
- (٢٦) عن محمد بن محمد بن عاصم عن محمد بن يعقوب، عن إسحاق بن بعقوب.
- (٢٧) "إن صدره غير منقول إلينا ولعله كان مكتنفاً بقرائن لا يفهم منه إلا حجية حكمهم في الشبهات الموضوعية أو الأعمّ وكان الإرجاع في القضاء لا في الفتوى". رسائل الإمام الخامنئي تتبّع، ج ٢، ص ١٤٢.
- (٢٨) عن جبرئيل بن أحمد، عن موسى بن جعفر بن وهب، عن أحمد بن حاتم بن ماهويه.
- (٢٩) وسائل الشيعة، الحر العاملية، ج ١٨، باب ١١ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به، ح ٤٥، ص ١١٠.
- (٣٠) وسائل الشيعة، العاملية، ج ١٨، باب ١١ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به، ح ٢٣، ص ١٠٥.
- (٣١) رسائل السيد المحقق الإمام الخامنئي عليه السلام، ج ٢، ص ١٤٣.
- (٣٢) العروة الوثقى، ص ٢١-٢٢، المسألة ١٧.

قاعدة الإمكان - في باب الحيض -

الشيخ علي فاضل الصدقي

الملخص:

ذهب جمع من الفقهاء إلى الحكم بجحضية كل دم مشتبه - موضوع قاعدة الإمكان - بالرغم من فقدان النص عليه، وذلك لما ادعى تصيّده من الروايات والأخبار التي حكم فيها الشارع بجحضية كل دم فاقد للتميز أو الصفات، مع تحقق سائر الشروط.

وتسعى المقالة - بتفریقها بين ذات العادة وغيرها - إلى مناقشة أدلة المثبتين للقاعدة اقتضاءً ودلالةً، عبر سردتها لجملة روایات على طوائف ست؛ من دون التعرض لأدلة المانعين لعدم تمامية الأولى.

وتبني المقالة على أن المراد بالإمكان في القاعدة هو القياسي دون الاحتمالي أو الذاتي، وأن المراد بالدم في الروايات هو المعهود - الواحد للصفات - بدليل المقابلة مع الصفرة ولغيره من القرائن، فيما جعله الكاتب مناقشة عامة.

مدخل:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد النبي الأمين وآله الطاهرين

شرائط دم الحيض من استمراره ثلاثة أيام، وعدم تجاوزه العشرة، وتخليّل أقلّ الطهر بين الحيض السابق والدم الحادث -مقتضاها عدم كون الفاقد لبعض هذه الشرائط حيضاً في ابتدائه أو منتهائه، ولكنّ الواجب لها لا يتعيّن كونه حيضاً واقعاً، لإمكان كونه استحاضة.

بهذه الكلمة نتخلّص إلى ما يعرف بقاعدة الإمكان، وأنّ كلّ دم يحتمل كونه حيضاً فهو حيض؛ فإنّه وإن احتمل أن يكون الدم استحاضة، ولكن مجرد إمكان كونه حيضاً يعني كونه حيضاً، بموجب وجوه عدتها الأخبار، فهي قاعدة متصيّدة من مجموع تلکم الأخبار -كما ادعى-، وقبل استعراضها نلتفت إلى المقصود من هذه القاعدة، فقد أفيد بأنّ المراد بالإمكان فيها هو الإمكان القياسي، بمعنى أنّ الدم الذي يمكن أن يكون حيضاً بالقياس إلى أدلة الشروط والأخبار -التي سنعرضها- فهو حيض، وليس المراد من الإمكان لا الإمكان الاحتمالي ولا الذاتي ولا الواقعي، فراجع^(١).

والكلام فيها في مقامين، الأوّل: فيما تراه المرأة من الدم في سنّ من تحيض -في غير وقت العادة- ولم يقل عن ثلاثة أيام، ولم يزد عن عشرة وكان مسبوقاً بعشرة الطهر، ولكنه فاقد للصفات بأنّ كان أصفر، والثاني: فيما تراه المبتداة أو المضطربة أو الناسية، فهل تتخيّض به



بمجرد رؤيته وإن كان فاقداً للصفات أو لا يحكم بكونه حيضاً وإن كان واجداً للصفات؟

و قبل بحث المقامين أقول: ثمة روایات في الصفات عقد لها الشیخ الحرجهی^١ باباً، عنونه بـ (باب ما يعرف به دم الحیض من دم الاستحاضة..)، من قبيل صحیحة حفص بن البختري قال: دخلت على أبي عبد الله علیہ السلام امرأة فسألته عن المرأة يستمر بها الدم، فلا تدری حیض هو أو غيره، قال: فقال لها: «إن دم الحیض حارٌ عیط أسود، له دفع و حرارة، ودم الاستحاضة أصفر بارد...»^(٢)، فلو استفید من هذه الروایات أن صفات دم الحیض المذکورة صفات دائمیة لا غالبية فعلی تقدیر استفادۃ قاعدة الإمكان من الروایات فلا يحكم بكون الفاقد للصفات حيضاً؛ وذلك لأنّ المراد بالإمكان حسبما تقدم هو الإمكان بالقياس إلى أدلة الشروط والأخبار، والمستفاد بحسب الفرض من مثل هذه الروایة شرطیة الصفات، فتكون على نسق سائر الشرائط، وأماماً لو استفیدنا من مثل الصحیحة أنها صفات غالبية للحیض، فليست لها دخلة في حیضیة الدم.

المقام الأول: (في كون الدم الواجب للشرائط الفاقد للصفات حيضاً):

ومن هنا يأتي في فاقد الصفات بحث استفادۃ قاعدة الإمكان من الأخبار، وهي على طائف:

الطاقة الأولى: ما دل بطلاقه على تحیض الحبلی بالدم ولو كان فاقداً للصفات، وهي صحیحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله علیہ السلام أنه سئل عن الحبلی ترى الدم، أترك الصلاة؟ فقال: «نعم؛ إن الحبلی ربما قدف بالدم»^(٣).

وصحىحة أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال: سأله عن الحبل ترى الدم، قال: «نعم؛ إنّه ربما قذفت المرأة الدم وهي حبل»^(٤).

وقد قرّب الاستدلال بهما بأنّ التعليل كالصریح في أنّ الدم المحتمل كونه حیضاً بعد اجتماع شرائطه فهو حیض؛ وذلك لأنّ كلمة (ربما) لا تفيد غير الاحتمال، والإمام عَلَيْهِ الْكَفَافُ حكم بحسبیته معللاً باحتمال أن يكون حیضاً، فدللت الصحیحة بتعليقها على أنّ كلّ دم محتمل لئن يكون حیضاً فهو حیض؛ لأنّ الدم المحتمل كونه حیضاً إذا بنينا على حیضیته في الحبل فهو حیض في غير الحبل بالاولوية القطعية؛ لأنّ الحیض في الحبل نادر، وفي غيرها كثير^(٥).

ويتوجّه عليه أنّ التعليل فيهما مسوق لبيان إمكان حیض الحامل - لا لتحقیصها بالدم المجهول الحال، ليدلّ على الاكتفاء في التحیض باحتمال حیضية الدم - كيف لا؟! وأبو حنیفة من منكري اجتماع الحیض مع الحبل^(٦).

ومن روایات هذه الطائفة صحیحة صفوان قال: سأله أبا الحسن الرضا عَلَيْهِ الْكَفَافُ عن الحبل ترى الدم ثلاثة أيام أو أربعة أيام، تصلّي؟ قال: «تمسک عن الصلاة»^(٧). وهي غير مذيلة بما ذیلت به الصحيحتان الأولتان من التعليل، وقد دلت على التحیض بالدم المردّ بين الاستحاضة والحيض، وقد عرفت أنه إذا حکم بكونه حیضاً في الحبل فهو كذلك في غيرها بالاولوية، وهي بإطلاقها شاملة لما إذا لم يكن الدم في العادة ولا بالصفات.

ومنها مرسلة حریز عن أبي أخیره عن أبي جعفر وأبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ في الحبل ترى الدم، قال: «تدع الصلاة؛ فإنّه ربما بقى في الرحم الدم ولم يخرج، وتلك الهرقة»^(٨).

الطائفة الثانية: ما دلّ بإطلاقه على التحيّض بالدم قبل وقت المenses ولو لم يكن واجداً للصفات، وهي موثقة سماعة قال: سأله عن المرأة ترى الدم قبل وقت حيضها، فقال: «إذا رأت الدم قبل وقت حيضها فلتدع الصلاة؛ فإنه ربما تعجل بها الوقت...»^(٩).

وهي وإن دلت على تحيّض ذات العادة الوقتيّة بالدم المردّد، ولكن لا شاهد على التحيّض به في غير موردها كالمبتدأ والمضربة والناسية.

الطائفة الثالثة: ما دلّ على أنّ المرأة تترك الصلاة كلّما رأت الدم، وبإطلاقه على حيضيّة الدم ولو كان أصفر، منها: صحيحه يونس بن يعقوب قال: قلت لأبي عبد الله عاشوري: المرأة ترى الدم ثلاثة أيام أو أربعة؟ قال: «تدع الصلاة»، قلت: فإنّها ترى الطهر ثلاثة أيام أو أربعة؟ قال: «تصلي»، قلت: فإنّها ترى الدم ثلاثة أيام أو أربعة؟ قال: «تدع الصلاة»، قلت: فإنّها ترى الطهر ثلاثة أيام أو أربعة؟ قال: «تصلي»، قلت: فإنّها ترى الدم ثلاثة أيام أو أربعة، قال: «تدع الصلاة، تصنع ما بينها وبين شهر، فإن انقطع عنها الدم وإلا فهي بمنزلة المستحاضة»^(١٠).

فإنّ قوله عاشوري: «تدع الصلاة» في صدرها -جواباً عن أنّ المرأة ترى الدم ثلاثة أيام أو أربعة- يدلّ على أنّ الدم المشتبه حيض، وقد أجب عن التنافي بينه وبين ما ورد في الجملات اللاحقة من الحكم بالحيض في أيام الدم وبالطهر في أيام طهرها إلى شهر -الذى لا يمكن حمله على الحكم الواقعي؛ لاشتراط فصل أقلّ الطهر بين الدمين، (نعم أجب عن التنافي) بأنّ ما في جملة الاستدلال مستقل لا ربط له بالجملات اللاحقة^(١١).

ولكن من المحتمل اتحاد هذه الصحيحة مع صحيحة أبي بصير قال:
 سالت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ عن المرأة ترى الدم خمسة أيام والطهر خمسة أيام، وترى الدم أربعة أيام وترى الطهر ستة أيام، فقال: «إن رأت الدم لم تصل، وإن رأت الطهر صلت ما بينها وبين ثلاثين يوماً، فإذا تمت ثلاثة يومناً فرأيت دماً صبيباً اغسلت واستفررت واحتشت بالكرسف في وقت كل صلاة، فإذا رأيت صفرةً توضأت»^(١٢)؛ فإن يونس هو راويها عن أبي بصير، ومضمونهما واحد، وجواب الإمام في صحيفه أبي بصير بالتحقيق ببرؤية الدم بعد فرض السائل أن المرأة ترى الدم خمسة أيام والطهر خمسة أيام، وترى الدم أربعة أيام وترى الطهر ستة أيام، فلا يسعنا معه تبعيضاً الحجّية.

الطائفة الرابعة: ما دل باطلاقه على التحقيق بالدم بعد الطهر ولو كان فاقداً للصفات، وهي صحيفه محمد بن مسلم عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال: «إذا رأت المرأة الدم قبل عشرة أيام فهو من الحيضة الأولى، وإن كان بعد العشرة فهو من الحيضة المستقبلة»^(١٣). بتقرير أن الجملة الثانية -بعد إرادة عشرة الطهر من العشرة فيها- تدل على اعتبار ما تراه المرأة حيضاً رغم أنه محتمل للاستحاضة أيضاً.

نعم لا مجال للاستدلال بالجملة الأولى؛ بدعوى أنها دلت أيضاً على التحقيق بما تراه المرأة في ضمن عشرة رأت فيها الدم سابقاً -لو أريد هذا من العشرة في هذه الجملة.-

والوجه في عدم إمكان الاستدلال بها -ما أفيد- من أنها تدل على أن ذات العادة إذا رأت الدم بعد أيام عادتها وقبل العشرة فهو ملحق بالحيضة المتقدمة، ولا مانع من الالتزام بذلك إلا أنه حكم خاص، بمعنى أنه إلحاقي

للدم المردّد بين الحيض وغيره بالحيضة المتقدّمة في ذات العادة، ولا دلالة لها على أنّ الحكم كذلك في الدم الخارج من غيرها كالمبتدئة والمضرّبة والناسية^(١٤).

وهو كما أفيد فإنّ الجملة الأولى كما الثانية وإن لم يكن فيها إشارة على كون مَن رأى الدم في ضمن العشرة ذات عادة، إلا أنّ التحبيض بما تراه المرأة في ضمن العشرة مرهون بكون ما قبله مفروغاً من حيضيتها، وهذا لا يكون في المبتدئة والمضرّبة والناسية، كما لا يخفى، فيتعين في ذات العادة، ومنه يعرف ما في الاستدلال بنصوص الاستبراء الحاكمة ببقاء الحيض بخروج شيءٍ من الدم على القطنـة^(١٥).

ومن روایات هذه الطائفة صحيحة عبد الله بن المغيرة عن أبي الحسن الأول عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ فِي امرأة نفست فتركت الصلاة ثلاثة أيام يوماً ثم طهرت، ثم رأت الدم بعد ذلك، قال: «تدع الصلاة؛ لأن أيامها أيام الطهر (و) قد جازت مع أيام النفاس»^(١٦). بالتقريب المتقدّم.

الطائفة الخامسة: ما دلّ بإطلاقه على التحبيض بالمشتبه بدم العذرـة ولو كان فاقداً للصفات، وهي صحيحة خلف بن حمّاد الكوفي -في حديث- قال: دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَغِيرَةِ، فقلت له: إنّ رجلاً من مواليك تزوج جارية معصراً لم تطمث، فلما افطضها سال الدم، فمكث سائلاً لا ينقطع نحوً من عشرة أيام، وأنّ القوابيل اختلفن في ذلك، فقال بعضهن: دم الحيض، وقال بعضهن: دم العذرـة، فما ينبغي لها أن تصنع؟ قال: «فلتتّقِ الله» -إلى أن قال عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ-: « تستدخلقطنة، ثم تدعها مليأً، ثم تخرجها إخراجاً (رفيقاً)، فإن كان الدم مطوقاً فيقطنة فهو من العذرـة، وإن كان مستنقعاً فيقطنة فهو من الحيض»^(١٧).

وصحيحة زياد بن سوقة قال: سئل أبو جعفر عليه السلام عن رجل افتضّ أمرأته أو أمه، فرأته دماً كثيراً لا ينقطع عنها يوماً، كيف تصنع بالصلاحة؟ قال: «تمسّك الكرسف فإن خرجقطنة مطوقّة بالدم فإنه من العذرة، تغسل وتمسّك معهاقطنة، وتصلّى، فإن خرج الكرسف منغمساً بالدم فهو من الطمث، تقدّع عن الصلاة أيام الحيض»^(١٨).

ولكن حكي عن غير واحد أنَّ موردهما ما إذا عُلم من الخارج انتفاء غير العذرة والحيض، سيما الأولى المتضمنة لاختلاف القوابل في أنه من الحيض أو العذرة بنحو مانعة الخلو^(١٩).

وقد أجب بعدم القرينة على ما ذُكر، بل فرض عدم طمث المغاربة قبل ذلك يدفع الانحصار بهما، ويفتح باب الاحتمال على غيرهما^(٢٠).

ويردّه نفس افتراض ترددّه بين الطمث والعذرة؛ إذ لو كان أصفر لم يتحمل كونه عذرة.

الطاقة السادسة: روايات إفطار الصائمة برؤية الدم في النهار، فتدلّ بإطلاقها على حيسيّة الدم ولو كان فاقداً للصفات: منها: معتبرة محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن المرأة ترى الدم غدوة أو ارتفاع النهار أو عند الزوال، قال: «تفطر، وإذا كان بعد العصر أو بعد الزوال فلتمضِ صومها، ولتقضِ ذلك اليوم»^(٢١)، هذا.

وقد أفيد بأنَّ هذه النصوص وإن اختصّت ببعض الموارد، وبعضها مختصّة بالاشتباه بالعذرة، وبعضها مختصّة بن تقدم منها الحيض دون المبتدأة إلا أنَّ إلغاء خصوصيّة مواردها قريب جداً، ولا أقلّ من الاستدلال بمجموعها على العموم^(٢٢).

مناقشة عامة:

-وبعد عرض طوائف الروايات ودفع ما قد يرد على الاستدلال بها لإثبات القاعدة - يخطر بالبال الكليل أنَّ من المحتمل قريباً أن تكون مفردة (الدم) في روايات القاعدة دمٌ معهود، فقول السائل مثلاً: الحبل ترى الدم، أتترك الصلاة؟ يريد أنها رأت غير الصفرة، سيما إذا كان محلى باللام، كما في كلِّ الروايات عدا صحيحة زياد، ومع هذا الاحتمال لا تُحرز إرادة ما يعمّ ما ليس بصفة دم الحيض، فلا يسعنا -والحال هذه- البناء على إطلاق (الدم) ليشمل الأصفر. ويؤكّد هذا الاحتمال ويقرّبه أمور:

الأول: انصراف الدم في بعض تلك النصوص عن الأصفر، كما في نصوص الطائفة الرابعة؛ ووجه الانصراف أنَّ كثرة الدم أو سيلانه المساوقة لتدفقه من جهة، واستباهه بدم العذرة من جهة أخرى - لا يتفق مع صفرته.

الثاني: شيوع التعبير عن غير الواحد لصفة الحيض بلفظ الصفرة، كما في روايات الباب الرابع، والبالغة تسع روايات^(٢٣).

الثالث: المقابلة بين لفظ (الدم) و(الصفرة) في جملة وافرة من الروايات، منها: روایة عليّ بن جعفر عن أخيه قال: سأله عن المرأة ترى الدم في غير أيام طمثها، فترأها (كذا) اليوم واليومين والساعة (والساعتين)، ويذهب مثل ذلك، كيف تصنع؟ قال: «ترك الصلاة إذا كانت تلك حاتها ما دام الدم، وتغسل كلّها انقطع عنها»، قلت: كيف تصنع؟ قال: «ما دامت ترى الصفرة فلتتوضأ من الصفرة، وتصلي، ولا غسل عليها (من صفرة تراها إلا) في

أيام طمثها، فإن رأت صفرة في أيام طمثها تركت الصلاة كترتها للدم»^(٢٤).

ومنها: صحيح عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن امرأة نفست فمكثت ثلاثة أيام أو أكثر، ثم ظهرت وصلّت، ثم رأت دماً أو صفرة، قال: «إن كانت صفرة فلتغسل، ولتصلّ ولا تمسك عن الصلاة»^(٢٥).

ومنها: صحيح أبي بصير المتقدمة في الطائفة الثالثة^(٢٦):

ولا ينافي ذلك جعل الدم مقسماً للدم العبيط والصفرة، كما في صحيح إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة الحبلية ترى الدم اليوم واليومين، قال: «إن كان دماً عبيطاً فلا تصلي ذينك اليومين، وإن كان صفرة فلتغسل عند كل صلاتين»^(٢٧); إذ من المحتمل قريباً كون ذكر الصفرة لا لأنّها من الدم، بل من أجل التأكيد على خروجها عن حكم الدم.

فالتحصل في ضوء هذا الإشكال العام أن روایات القاعدة قاصرة عن إثباتها، ولا تصل النوبة بعد قصور المقتضي إلى البحث عن وجود المانع، نعم قد يسعفنا في الإثبات صحيح العيسى بن القاسم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن امرأة ذهب طمثها سنين، ثم عاد إليها شيء، قال: ترك الصلاة حتى تظهر^(٢٨)، ولكنها - هي الأخرى - لا إطلاق لمفردة (شيء) فيها ليتناول الصفرة بقرينة الحكمة، كما أن هذه المفردة تعني فرداً لا جاماً؛ إذ هي في سياق الإثبات لا النفي، هذا كلّه بلحاظ المقام الأول.

المقام الثاني: فيما تراه المبتدأة أو المضطربة أو الناسية، فهل تتحيّض به بمجرد رؤيتها وإن كان فاقداً للصفات، أو لا يحكم بكونه حيضاً وإن كان واجداً للصفات؟

وقد عرفت مما تقدم قصور روايات القاعدة عن إثباتها في فرض فقدان الدم للصفات وإن مضى عليه ثلاثة أيام، فكيف تتحيّض به المبتدأة والمضرّبة والناسية بمجرد رؤيتها؟! فيبقى البحث في تحيّضهن بالواحد للصفات بمجرد رؤيتها وقبل أن تضي عليه ثلاثة أيام، فمقتضى الاستصحاب الاستقبالي كونه حيضاً، إذ الفرض جريان الدم فعلاً، وتشكّ في بقاء الجريان إلى ثلاثة أيام، والأصل ذلك، والفرض أنه لا شكّ في حيادية الدم إلا من جهة بقاء الجريان، وبعد تعبد الشارع ببقاء جريانه إلى ثلاثة أيام، فهو لا محالة حيض.

كما أن ذلك مدلول جملة من الأخبار، منها: صحيحه سعادة بن مهران قال: سأله عن الجارية البكر أول ما تحيض فتقعد في الشهر يومين وفي الشهر ثلاثة أيام يختلف عليها لا يكون طمثها في الشهر عدة أيام سواء، قال: فلها أن تجلس وتدع الصلاة ما دامت ترى الدم ما لم يجز العشرة..^(٢٩). فقد دلت على أن الجارية البكر أول ما تحيض - ورغم أن ما رأته قد لا يتفق له الاستمرار إلى ثلاثة أيام، كما قال سعادة: (فتقعد في الشهر يومين) - فإنّها تتحيّض بما تراه وإن احتمل عدم استمراره، وتترك الصلاة، نعم لو لم يستمر ينكشف عدم كونه حيضاً، فتقضي ما فاتها من الصلوات.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على النبي محمد الأمين وآلـهـ الـذـينـ آتـاهـمـ اللهـ ماـ لـمـ يـؤـتـ أحدـاـ مـنـ الـعـالـمـينـ، وقد فرغت من كتابتها ليلة الخامس من رجب الأصبـ من سنة ١٤٣٨ هـ

وبعد فراغي من كتابة هذه الأسطر أطّلعت على ما قاله الإمام

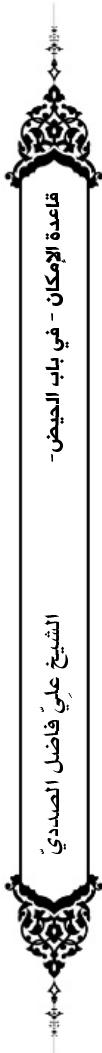
الهوامش:

الخميني قدّس في كتاب الطهارة، وقد ناقش كل روايات القاعدة، وكان يفهم من كلمة (الدم) في مثل رأى المرأة الدم أَنَّها رأت الدم المعهود مثل سائر النساء، وساق قدّس مقابلته للصفرة شاهداً على ما فهمه^(٣٠)، هذا.

وقد أجاب قدّس عن الاستدلال بصحيح العيسى بما نصّه: "أن ظاهر العود مجيء الطمث، مع أن الأخذ بإطلاق قوله: (شيء) لا معنى له، فلا بدّ من تقدير، والظاهر أن التقدير: عاد إليها شيء من الطمث؛ فإنه ذهب فعاد، ولا أقلّ من احتماله، ومعه لا يجوز التمسّك به للقاعدة"^(٣١).

والحمد لله أولاً وأخراً، وصلّى الله على محمد النبي وآله.

- (١) التنقیح في شرح العروة الوثقی (ك. الطهارة٦)، موسوعة الإمام الخوئی قدّس ٧: ٢٠١، ٢٠٢.
- (٢) وسائل الشیعیة٢: ٢٧٥ ب٣ من أبواب الحیض ح٢.
- (٣) وسائل الشیعیة٢: ٣٢٩ ب٣٠ من أبواب الحیض ح١.
- (٤) وسائل الشیعیة٢: ٣٣٢ ب٣٠ من أبواب الحیض ح١٠.
- (٥) التنقیح في شرح العروة الوثقی (ك. الطهارة٦)، موسوعة الإمام الخوئی قدّس ٧: ١٩٧.
- (٦) المغنى لابن قدامة١: ٣٧١.
- (٧) وسائل الشیعیة٢: ٣٣١ ب٣٠ من أبواب الحیض ح٤.
- (٨) وسائل الشیعیة٢: ٣٣٢ ب٣٠ من أبواب الحیض ح٩.
- (٩) وسائل الشیعیة٢: ٣٠٠ ب١٣ من أبواب الحیض ح١.
- (١٠) وسائل الشیعیة٢: ٢٨٥ ب٦ من أبواب الحیض ح٢.
- (١١) التنقیح في شرح العروة الوثقی (ك. الطهارة٦)، موسوعة الإمام الخوئی قدّس ٧: ١٩٨.
- (١٢) وسائل الشیعیة٢: ٢٨٦ ب٦ من أبواب الحیض ح٣.



- (١٣) وسائل الشيعة: ٢: ٢٩٨ ب ١١ من أبواب الحيض ح ١١.
- (١٤) التنقیح في شرح العروة الوثقى (ك. الطهارة) - موسوعة الإمام الخوئي قیثیر ٧: ٢٠٠.
- (١٥) وسائل الشيعة: ٢: ٣١٠ - ٣١٠ ب ١٧ من أبواب الحيض ح ٤ - ٤.
- (١٦) وسائل الشيعة: ٢: ٣٩٣ ب ٥ من أبواب النفاس ح ١.
- (١٧) وسائل الشيعة: ٢: ٢٧٢ ب ٢ من أبواب الحيض ح ١.
- (١٨) وسائل الشيعة: ٢: ٢٧٣ ب ٢ من أبواب الحيض ح ٢.
- (١٩) مصباح المنهاج (ك. الطهارة) ٤: ١٧٩.
- (٢٠) مصباح المنهاج (ك. الطهارة) ٤: ١٧٩.
- (٢١) وسائل الشيعة: ٢: ٣٦٧ ب ٥٠ من أبواب الحيض ح ٤.
- (٢٢) مصباح المنهاج (ك. الطهارة) ٤: ١٨٠.
- (٢٣) وسائل الشيعة: ٢: ٢٧٨ ب ٤ من أبواب الحيض ح ١ - ٩.
- (٢٤) وسائل الشيعة: ٢: ٢٨٠ ب ٤ من أبواب الحيض ح ٨.
- (٢٥) وسائل الشيعة: ٢: ٣٩٣ ب ٥ من أبواب النفاس ح ٢.
- (٢٦) وسائل الشيعة: ٢: ٢٨٦ ب ٦ من أبواب الحيض ح ٣.
- (٢٧) وسائل الشيعة: ٢: ٣٣١ ب ٣٠ من أبواب الحirst ح ٦.
- (٢٨) وسائل الشيعة: ٢: ٢٣٧ ب ٣٢ من أبواب الحirst ح ١.
- (٢٩) وسائل الشيعة: ٢: ٣٠٤ ب ١٤ من أبواب الحirst ح ١.
- (٣٠) كتاب الطهارة ١: ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢.
- (٣١) كتاب الطهارة ١: ٦٣.